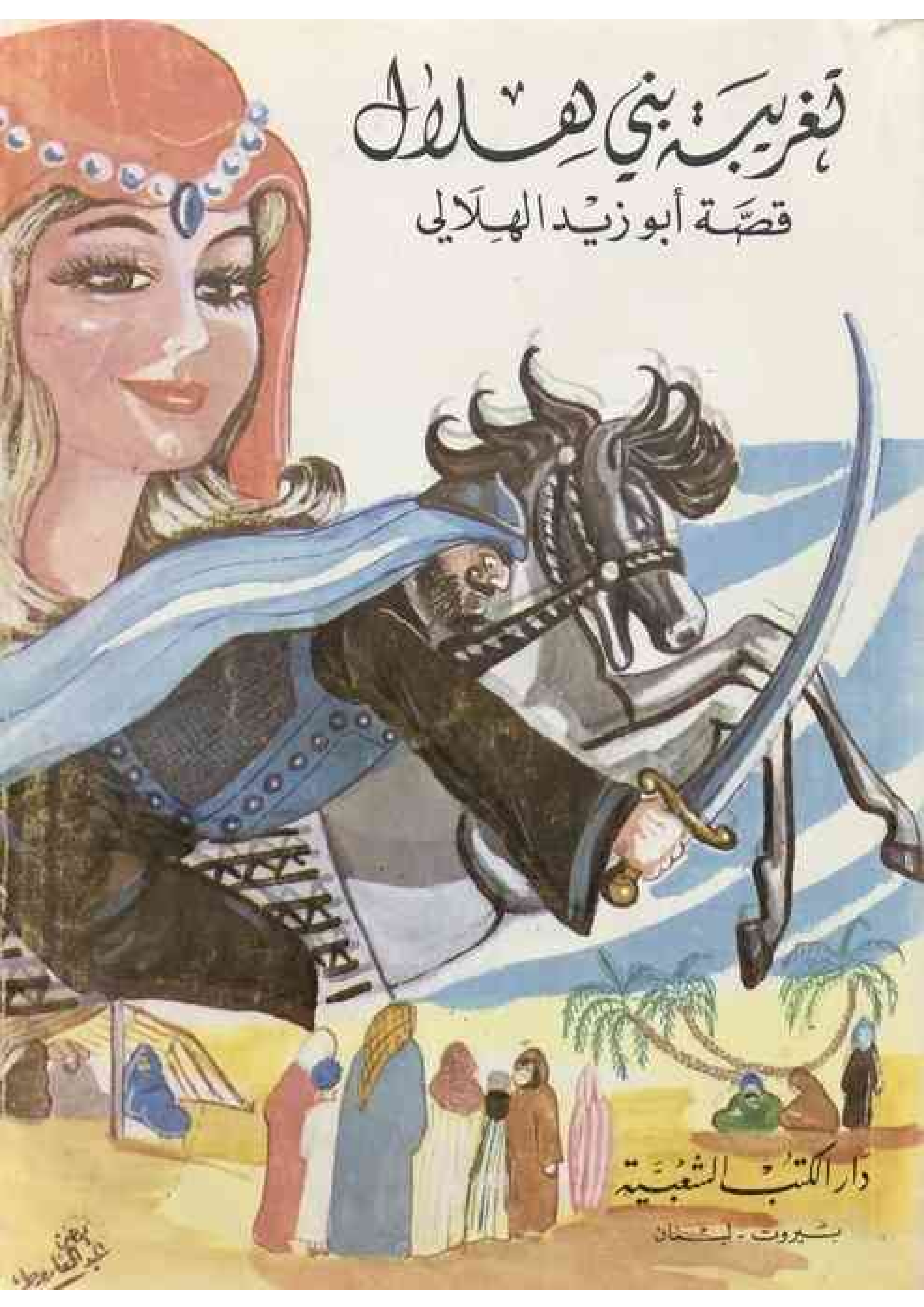
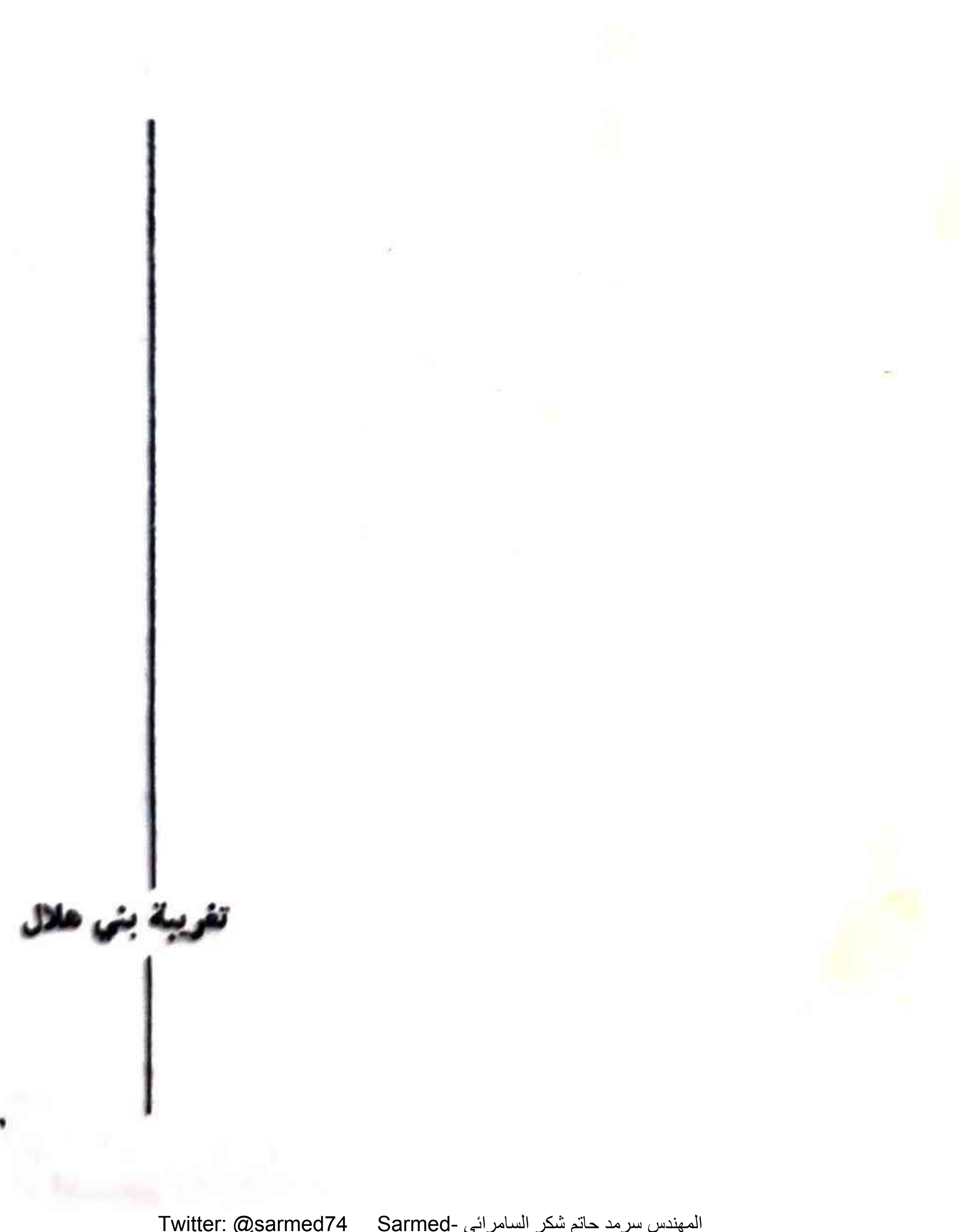


تغريبة بني هلال
قصة أبو زيد الهلالي
دار الكتب الشعبية
بيروت - لبنان


تغريبة بني هلال

تغريبة بني هلال

ورحيلهم إلى بلاد الغرب

قصة أبو زيد الهلالي كاملة

دار الكتب الشعبية
بيروت - لبنان
ص.ب : ٣٨٧٤

الطبعة الثانية

١٩٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة مغامس مع شاة الريم

كانت بلاد نجد من اخصب بلاد العرب ، كثيرة المياه والغدران والسهول والوديان حتى كانت تذكرها شعراء الزمان بالاشعار الحسان وتفضلها على غيرها نظرا لحسن هواها . وما زالت على رونقها الاول حتى تغير قطرها واضمحل ، وعمت البلاد المجاعة من جميع الجهات واشتدت على بني هلال، فاجتمعت منهم المشايخ والشبان وقصدوا مضارب الامير حسن بن سرحان فدخلوا وسلموا عليه وقالوا له اعلم يا ملك الزمان بأن الجوع قد اشتد وانقطعت المأكولات من نجد ، فان لم نتدارك الامر في الحال انقرضت جميع بني هلال وفقدت المواشي والاموال .

فلما سمع الامير حسن هذا الخطاب استعظم المصاب ، وكان عنده جماعة من السادات الاماجيد ، والفرسان الصناديد ، منهم البطل الهمام ابو زيد فارس الصدام ، والامير دياب ابن غانم البطل المقاوم ، والقاضي بدير بن فايد السيد الماجد ، فأخذوا يتذاكرون في هذا الشأن نحو ساعة من الزمان فاستقر رايهم على الرحيل من تلك الديار قبل حلول الدمار ، ثم قال الامير حسن لاكابر القوم ، قوموا بنا نتخفى ونتفقد احوال القبيلة في هذا اليوم ، فتنكروا في الحال حتى لا يعرفهم احد وركبوا ظهور الجمال وطافوا في المضارب والخيام مدة ثلاثة ايام حتى داروا على القبيلة ولم يجدوا من يدعوهم الى ضيافته لانه لم يكن عند احد عشا ليلة ، واتفق انهم في اليوم الرابع اشرفوا على سهل وفيه عدة مضارب وخيام وحواشي وخدام غير شهير اسمه مفرج بن نصير ، وكان واقفا عند الابواب وهو في حالة الذل والاضطراب وعيناه تذرفان الدموع من شدة الجوع ، فحيوه بالسلام ووقروه بالكلام ، وقالوا له : ايها السيد الكريم اتقبل ضيوفا قد قصدوك من ابعد اقليم من اكبر سادات العشيرة وافضالك بين الناس معروفة شهيرة، فخجل من حديثهم وكلامهم ولم يجد بدا من اكرامهم ، فقال اهلا وسهلا

بالضيوف فشرفوا محلكم فنزلوا عن ظهور الجمال ودخلوا الى خيامه وكان لمفرج زوجة يقال لها مي ، فقال لها اذهبي الان واقصدي بيت ابيك شيبان، لعلك تجدين شيئا من انواع الطعام تأتين به الى ضيوفنا الكرام ، لانهم قصدونا دون باقي العربان واتوا من ابعد مكان .

فلما سارت الى بيت ابيها وطلبت منه شيئا من الطعام ، قال والله يا ابنتي ما دخل بيتنا طعاما منذ ثلاثة شهور ، واني خجلان منك فاعذريني بالقصور ، فلما سمعت كلامه رجعت في الحال واعلمت زوجها بذلك المقال وانشدت شعرا طلبت فيه الى زوجها ان يبيع ابنتهما ليعتري الضيوف .

فلما فرغت من شعرها قال لها زوجها نعم الراي والتدبير ، قومي الان اصلحي من شأنها ، والبسيها ثياب الحرير ، حتى ادور في القبيلة جميعها وادلل عليها وابيعها . فقامت والبستها احسن ثياب وعطرتها بأفخر الاطياب، فتعجب الامير حسن وابو زيد ودياب ، وقالوا هذا الامر غريب وحادث عجيب ، ولكنهم صبروا حتى ينظروا ماذا يجري . واما الامير مفرج فانه نهض في الحال وطاف بابنته انحاء بني هلال ، وهو ينادي ويقول : يا اهل الفضل والمعروف من يشتري ابنتي الثريا بعشاء اربعة ضيوف وكان كل من ينظر اليها ويتأمل فيها يتحسر على جمالها وحسن معانيها ويقول ، اذا اشتريناها ماذا نطعمها ونسقيها ، ولما لم يجد ابوها من يشتريها أرجعها الى المضارب ، فقالت زوجته علامك ما بعتها يا امير ، فقال لم اجد من يشتريها مني لا بقليل ولا بكثير ، فقالت له اذهب بها الى الامير حسن امير القبيلة فانه يشتريها منك ولو بعشاء ليلة ، فأخذها وسار فعند ذلك خرج الامير حسن من المضارب وسبقه وسار الى صيوانه بدون ان يراه احد من اهل الامير مفرج ، واما الامير مفرج وابنته لما دخل سلم عليه وقبل يديه وانشد يقول :

يقول الفتى المدعو امير مفرج	ولي قلب موجوع وزاد افكار
أيا امير اتانا ضيوف جازوا محلنا	وداروا هلال كبارها مع صغار
وما عندنا بالبيت شي نقيتهم	ولا مرتع للدود والاطيار
اخذت الى بنتي ودرت نجوعهم	ودرت ميامنها ودرت يسار
فلم اجد منهم من يشتريها	واضيافي قد تركتهم بالدار
يا امير ساعدني واجبر بخاطري	يجيرك الهي من عذاب النار
وخذ بنتي واكسب الثنا	وجد لي بمال يزيل عنا العار

فلما فرغ الامير مفرج من الشعر والنظام ، طيب الامير حسن خاطره واحترمه غاية الاحترام ، ثم امر له بقنطار من الطحين وان يرجع بابنته الى خيمته فشكره على ذلك الاحسان ورجع بالصبية وهو فرحان ، ولما ابتعد وغاب عن المضارب والقباب ، نهض الامير حسن بالعجل وتزيا بزيه الاول

وركب مطيته وسار الى بيت مفرج فوصل قبله ، واعلم الامير ابو زيد بما فعله ، ولما وصل مفرج اعلم زوجته بما ناله من الانعام وبلوغ القصد والمرام، ثم قال لها قومي الان وضعي العشاء حتى تأكل ضيوفنا وتتعشى . فبادرت في الحال وعجنت وخبزت وقدم مفرج خبزا الى الضيوف بدون ادام .
وقال تفضلوا وكلوا ولا تؤاخذونا بالقصور فاني والله معذور ، فقال ابو زيد: لو جلست معنا ، كنا في غنى من هذا التعب والعناء ، لانه يوجد من الزاد ما يسد به رمق الفؤاد . ثم مد يده الى الخرج وافرغه على سفرة الطعام ، فشكره مفرج على ذلك الاهتمام وجلس معهم يباسطهم بالكلام ثم تركهم ورجع الى فراشه ونام ، وهم ناموا الى طلوع النهار فركبوا مطاياهم وقصدوا جوانب القفار .

ولما اقتربوا من وادي سلامة سمعوا صياحا وضجيجا مثل يوم القيامة، فتقدموا على الاثر ليكشفوا حقيقة الخبر ولما صاروا في ذلك المكان وجدوا جمهورا من الرجال والشبان والنساء والصبيان يصيحون من قلب موجوع من شدة الجوع، فتقدم الامير حسن اليهم وقد اشفق عليهم فطيب خاطرهم بالكلام وفرق عليهم جوائز الانعام ثم ساروا الى المضارب والخيام واستدعى اليه سادات القبيلة واكابر الجماعة وجعلوا يتفاوضون في امر المجاعة ، فاتفق رأيهم بوجه الاجمال على ان يرحلوا من تلك الاطلال بالاهل والعيال ، وان يذهب ابو زيد الى بلاد الغرب وتلك الديار فيجس الاحوال ، ويأتيهم بحقيقة الاخبار ، ثم يرحلون بأولادهم واثقالهم الى تلك الاقطار ، فقال ابو زيد للامير حسن ، لا يخفاك اطال الله عمرك وابقاك ، ان المسافة بعيدة طويلة فيلزم ان يكون معي جماعة من سادات القبيلة ، فقال دياب هذا الامر من اسهل الامور فخذ معك من تريد من الجمهور ، فقال ابو زيد متى طلع النهار يوفق الله كما يشاء ويختار ثم عاد الى الخيام في قلق واهتمام فقامت له زوجته على الاقدام وقالت له بكلام الدلال ، مالي اراك منقبض الوجه يا ابا الابطال ، فأعلمها بواقعة الحال وكيف اتفق رأيهم على ارساله لتونس ولا يوجد من يعتمد عليه ليأخذه على سبيل المعاونة والمؤانسة ، واني قد رهنت لساني مع القوم على ان أذهب ثاني يوم ، فقالت له اني أرشدك على حيلة تتخلص بها من هذه السفرة الطويلة ، وهو انك عند الصباح تدخل على الامير حسن وسادات القبيلة وتقول بأنك مستعد ان تذهب الى تونس بشرط ان يرسلوا معك مرعي ويحيى ويونس ، فانهم من ابناء الاعيان ولا تسمح بهم اهلهم ان يتغربوا عن الاوطان ، وبهذه الوسيلة يكون عذرك واضحا عند سادات القبيلة ، فاستصوب منها هذا الكلام وفي ثاني الايام ذهب الى عند

الامير حسن فالتقاه بالاكرام وقال ، هل استعديت على الرحيل فقال انني في غاية الاستعداد للذهاب الى تلك البلاد ، غير اني اريد ان يكون معي رفقاء واصحاب من سادات الاعراب لان المسافة بعيدة ومشقات الطريق شديدة ، فقال الامير حسن خذ معك من تريد من الفرسان الصناديد فقال اريد ان آخذ معي يونس ويحيى ومرعي لانهم يعاونونني في الطريق عند كل شدة وضيق ، وبهم يحصل النجاح والتوفيق واعود اليكم سريعا بلا تعويق، فاستعظم الامير حسن هذا الطلب خوفا عليهم من العطب ، وكان يظن بأن ابا زيد يطلب غيرهم من فرسان العرب ، ولكنه سمح له اخيرا بعد ان حدثهم بذلك الخبر ، وفي اليوم الثالث تجهزوا للسفر وركب الامير حسن بن سرحان في سادات القبيلة واكابر الاعيان ، وساروا لوداعهم مدة ثلاثة ايام على التمام ، ولما عزموا على الرجوع الى الاطلال والربوع بكوا من فؤاد متبول واشار ابو زيد يقول :

يقول ابو زيد الهلالي سلامة ... ونيران قلبي زايدات اللهايب
وعيني من كثر البكا قل شوفها ... جرى دمعها فوق خدي سكايب
اسمع كلامي يا امير ابو علي ... وكن لقولي فاهما ثم حاسب
غدونا بعون الله جل جلاله ... نرود دروب الغرب يم المغارب
وفي صحبتي مرعي ويحيى ويونس ... من اجلهم ذا النجع باكي وناحب
وعليا عيوني يا عرب في حيكم ... وصبرا وريا طويلات الذوايب
يا ابو علي بالك عليهم من العدا ... اذا هاجت الفرسان بين المضارب
اودعتكم الله ربي وخالقي ... ومن يلتجي لله ما راح خايب

فلما فرغ ابو زيد من شعره ونظامه ، وفهم الامير حسن وباقي الامراء معاني كلامه ، تقدم حسن امام قواده وجعل يوصي ابو زيد بالاولاد ثم بكى وقال :

يقول الفتى حسن الهلالي ابو علي ... دمعي جرى فوق خدي سكايب
ونيران قلبي كلما اقول تنطفي ... يزيد لها بين الضلوع لهايب
لفرقة مرعي صار قلبي ذائبا ... اصبحت كالسكران للخمر شارب
ويحيى ويونس نور عيني وضوها ... على بعدهم دمعات عيني سكايب
فارقتهم ما كان قصدي فراقهم ... ولكن احوجتني لذاك مطالب
ايا هل ترى مرعي اراه بناظري ... وتزول ايام العنا والمتاعب
ايا دهر يا غدار مالك غدرتني ... ففارقت خلاني وكل الحبايب
اودعتكم لله ربي وخالقي ... ومن اودع الرحمن ما راح خايب
اوصيكم المزح لا تمزحونه ... فانه بأكثر الاوقات غير صائب
واذا اردتم تدخلون مدينة ... فيونس تراه يشتري ويحاسب
واذا جادلتم عالما بطريقكم ... فمرعي على ذاك الجدال يجاوب

وابقوا ليحيى حارسا لجمالكـم فانــه سيحميها مـن الاغارب
ومن يم عليا منور عيني ومهجتي وصبرا وريـا أعز كـل الحبايب
هذي وصايـا احفظوها جميعـا فان كلامـي كله قـول صائب
وهذه مقالات الامير ابو علــي فقلبي ذاب مـن هول المصايب

فلما فرغ الامير حسن من هذا الشعر والنظام ، بكى كل من كان حاضرا ثم تقدمت امراته الست نافلة ، اخت الامير دياب وهي في بكاء وانتحــاب وجعلت توصي الامير ابو زيد بولدها مرعي وتقول :

تقول فتـاة الحي نافلة النسـا بكيت على الفرقة وما قد جرا لها
ابو زيد لا تترك لمرعي وحـده فان غاب مرعي غاب عقلي وزالها
وحافظ عليه في الصباح وفي المسا وداريه من الاخطار وامنع وبالها
فكم يوما من نجد لبـلاد تونس فاعلمني حتـى اعـد ليالهـا
فيا ليت نجدا ارضها مـا امحلت ولا راح مرعـي للمغارب جالهـا

فلما فرغت الاميرة نافلة من كلامها ، تقدم الامراء فودعوهم ثم رجعوا الى بلادهم وسار الامير ابو زيد يقطع البراري والقفار ويوصل سير الليل بسير النهار ، قاصدا تونس وتلك الديار ، واما الامير حسن فانه قال مرادي اكتب تاريخ هذه الزيارة حتى تبقى ذكرا للجميع ، فاستدعى الامير زيد بن مانع وكان كاتم اسراره وكاتب الوقائع فلما حضر أمره بتسجيل بعض الابيات.

فلما انتهى الامير حسن من هذه الابيات وسمعها السادات الكــرام استحسنوها غاية الاستحسان ، وسجلها زيد بن مانع في الديوان لتبقى لهم ذكرى في طول الزمان ، وكانت جميع النساء والبنات والامراء والسادات تدعو لرب السموات في اكثر الاوقات ، وتطلب منه نجاح ابو زيد في تونس ورجوعه سالما مع مرعي ويحيى ويونس ، هذا ما كان من امر القبيلة والامير حسن . وأما ما كان من ابو زيد فانه بعد رحيله من الوطن ما زال مجدا في المسير حتى أشرف على بلاد حزوة والنير ، وهي بلاد كثيرة الخيرات واسعة الاراضي والجهات ، وكان الحاكم عليها في ذلك الزمان ملك عظيم الشأن صاحب ابطال وفرسان ، اسمه الدبيسي بن مزيد ، فقصده ابو زيد وسلم عليه وتمثل بين يديه ووقف مرعي ويحيى ويونس حواليه ، فقال ابو زيد أطال الله عمرك ورفع مقامك فانك وحيد العصر واولى بالمديح والشكر ، فلما سمع منه هذا الكلام قال له من اي بلاد انت ؟ قال نحن شعراء حجازية نقصد الامراء الاجاويد ، ونمدح الملوك الاماجيد ، فناخذ عطاهم وننقــل ثناهم ، فقصدناك الان لنمدحك دون غيرك ونشكر فضلك وجزيل خيرك ، لاننا سمعنا بجودك وكرمك ومن الاتفاق الغريب والامر العجيب اننا مررنا

على نجد وتلك الاوطان ، مدحنا اميرها حسن بن سرحان فاجازنا بالجوائز السنية وخلع علينا الخلع الملوكية ، وتلك البلاد الان في غاية الضيق من شدة المحن وعدم وجود القوت والدقيق ، ثم ان ابو زيد بعد هذا الخطاب عدل الرباب واشار يمدح الدبيسي ويعلمه عن احوال نجد بانشاد الوان القصيد .

قال الراوي : فلما سمع الدبيسي منه الشعر والنظام اكرمهم غاية الاكرام ، وقال لهم مرحبا يا وجوه العرب ثم انزلهم في أحسن الخيام واقاموا عنده عشرة ايام ، وكان ابو زيد في هذه المدة قد عرف أحوال البلاد وما فيها من عساكر وأجناد ، وميز مراكزها وجميع ضواحيها ، وبعد ذلك ودع الدبيسي ورحل من ذلك البلد وهو قاصد بلاد المغارب ، وقد جدوا بالمسير وسابقوا بجنودهم الطير وما زالوا يقطعون البراري والآجام مدة تسعة ايام ، وكانوا يستريحون بالنهار ويقطعون الفلاة تحت ظلام الاعتكار، حتى وصلوا الى بلاد العمق وهي بلاد الامير مغامس ، وكان دخولهم في الليل الدامس ، ولما اقتربوا من الابيات سمعوا اصوات المولدات ودق طبول وزمور تدل على فرح وسرور ، فقال ابو زيد لاصحابه ابشروا بالخير فان اهل الحي مشغولون بعرس لهم ومن الصواب ان نقصدهم ونصرف هذا اليوم عندهم (قال الراوي) وكان السبب في ذلك انه كان أخان اميران من اكابر الاعيان اسم الواحد عامر والثاني ابو الجود وكان للامير عامر ولد اسمه مغامس جميل المنظر وكان لابي الجود بنت اسمها شاة الريم وكانت في الحسن على جانب عظيم ، فاتفق ابو الجود على ان يزوجها بمغامس ابن اخيه لانه يحبه وهكذا تم الاتفاق وصار تقديم المهر والصداق ، وكان لهذين الاميرين عدو من ملوك العربان يقال له نبهان ، فغار بجنوده ذات يوم على هؤلاء ، فالتقاه ابو الجود والامير عامر بالابطال والعساكر وجرت بينهم حروب تشيب رؤوس الاطفال ، انجرح فيها الامير عامر وقتل ابو الجود وكان للامير عبد من الشجعان الصناديد يقال له سعيد كان يرعى الجمال بين الروابي والتلال، فلما راى تلك الحال وما حصل بمولاه من الوبال ، ركب ظهر الحصان وهجم على نبهان وتبعته الابطال والفرسان ، بقلوب اقوى من الصوان ، ولم يكن غير ساعة من الزمان حتى طعنه بالرمح بين بزيه ، فألقاه على الارض يتخبط بعضه ببعض ، ثم انصب على جيش الاعداء فهزمه في تلك البيداء وبعد ذلك رجع الى القبيلة بغنائم جزيلة فالتقته النساء بالنشائد والمدح الزائد وشكرته الرجال على تلك القتال واكرموه غاية الاكرام ، وفي اليوم الثالث

اشتد على الامير عامر الالم حتى صار في حالة العدم ، فاستقر رايه على ان يقيم عبده سعيدا مكانه لبينما يكبر ابنه مغامس ويرتفع بين الناس قدره وشانه ، فجمع أكابر الديوان وقواد الفرسان واعلمهم بذلك الشأن ثم احضر سعيدا وقال له بحضور السادات الاماجيد ، اعلم ايها الفارس الصنديد ، اني قد اقمتك مكاني ملكا على هذه الاقاليم بينما يكبر ابني مغامس فتزوجه بابنة عمه شاة الريم ويصير هو الامير وتكون انت له من جملة الوزراء والاعوان . (قال الراوي) فلما انتهى عامر من كلامه بكى كل من كان حاضرا من السادات الكرام وقال سعيد لمولاه سأفعل ما امرت به اني عبدك وفي نعمتك قد انتشيت وكبرت ثم تفرقت العرب الى المضارب والخيام وبعد ثلاثة ايام شرب كأس الحمام . فغسلوه ودفنوه بالوقار والاحترام ، وبكى عليه الخاص والعام . وفي اليوم الثاني جلس سعيد على الكرسي مكان مولاه الامير عامر واطاعته الاكابر والاصاغر ، فكان يحكم في القبيلة ويفعل ما يريد ولا يعترضه احد حتى تمكن غاية التمكين وصار من جملة الملوك المعظمين ، فلما اشتهر امره وانتشر بين الناس ذكره داخله الطمع على اختلاس المملكة والقاء ابن مولاه مغامس في مهاوي التهلكة ، فجمع الاعيان والابطال وقال لهم على رؤوس الاشهاد اعلموا ايها السادة الاماجد اني صممت الان على طرد مغامس من الاوطان وارساله الى أبعد مكان ، فلا عدتم من الان تساعدوه وتعاملوه بشيء مهما كان ، وكل من خالف ولم يمتثل الى أحكامي قطعت راسه وأخمدت انفاسه ، فماذا تقولون ؟ فقالوا سمعا والف طاعة فما عدنا نعامله ولا نتكلم معه من هذه الساعة ، لانك انت ملكنا واميرنا وحامي بلادنا واوطاننا . فبينما هم في الحديث والكلام واذا بالامير مغامس قد دخل عليهم فحياهم فلم يجسر احد ان يرد الجواب خوفا من القصاص والعقاب ، فتأثر من ذلك الامر واحترق قلبه بلهيب الجمر ، وعلم ان العبد مراده يتملك على القبيلة بالقوة الجبرية فارتد راجعا على الاثر واعلم امه بذلك الخبر ثم بكى وتنهد وانشد شعرا .

(قال الراوي) فلما انتهى مغامس من شعره ومقاله رثت أمه لحاله وقالت اني خائفة من غدر هذا العبد فانه نكر الجميل والمعروف ، وبادانا بالشر بعدما كان راعي جمالنا وعبدنا وخدامنا ، فما انتهت من هذا الكلام حتى اقبل عليها بعض الخدام يخبرها ان تذهب بابنها من تلك الديار ، وقد ارسل اليك هذه الناقة الجربانة وهذه الشاة في سبيل الاحسان والصدقة فاذهبي في الحال قبل حلول الوبال فبكت أم مغامس من هذا الكلام ، وتذكرت ايام زوجها وما كانت فيه من العز والانعام وعلو الجاه ورفعة المقام ، ولكنها

اجابت الامر بالسمع والطاعة ورحلت بابنها ، وفي الطريق نصبا خيمة من القش واغصان الشجر لتقيهما من حرارة الشمس وضوء القمر ، وجلسا في ذلك المكان تحت مشيئة الرحمن . (قال الراوي) هذا ما كان من امرهما واما سعيد العبد الخائن اللئيم فانه قد ارسل يطلب شاة الريم وامر امها ان تجهزها تلك الليلة وتصلح حالها حتى يدخل عليها ، فلما سمعت شاة الريم ذلك الكلام كان عليها اشد من ضرب الحسام ، وجعلت تبكي مع امها على مغامس ابن عمها ، لانها كانت تحبه ولما زاد عليها الحال انشدت تقول من فؤاد متبول :

تقول شاة الريم من قلب حزين	ودمع عيني فوق وجناتي غزير
من بعد ابي وعمي قبله	صار راعينا على راس السرير
يا رب سعيد العبد اعدمه الحياة	واكتب نصيبي في مغامس يا نصير

فلما انتهت من كلامها وفهمت امها فحوى شعرها ونظامها قالت لها : اعلمي يا بنت ان الصبر مفتاح الفرج ، ولا بد ان نجد لهذا الضيق من مخرج، فاصبري على حكم الله وعلى قدره وقضاه ، لان هذا العبد سعيد جبار عنيد وشيطان مريد ، وقد ذلت له الفرسان الصناديد وابن عمك مغامس فقير الحال ليس له مال ولا رجال ، وان خالفنا له امرا اخذك غصبا وقهرا، فمن الواجب ان نسمع كلامه ونمتثل اوامره واحكامه ، فلما سمعت شاة الريم من امها هذا الكلام صبرت على احكام رب الانام ، وكان العبد سعيد قد صنع في تلك الليلة وليمة لها قدر وقيمة ، جمع فيها بعض الاعيان واكابر الديوان ، فدقت الطبول ونفخت الزمور وقام في القبيلة الفرح والسرور ، ودقت المولدات بالدفوف ولعبت الفرسان بالرماح والسيوف ، فلما سمع مغامس اصوات الطبول وصهيل الخيول قصد الحي تحت ظلام الليل ، فعندما وقف على حقيقة الخبر ، طار من عينيه الشرر من شدة الوجد والغرام وزواج ابنة عمه بدر التمام بذلك العبد ابن اللئام ، فرجع واعلم امه بذلك فبكت شفقة عليه وجعلت تتلطف بخاطره وتقول ، الله كريم فلا بد ان تكون من نصيبك شاة الريم ، وكان في هذه اللحظة مرور ابو زيد ومن معه فسمع قولهما وبكاءهما فنزل اليهما يستفهم عن سبب بكائهما فاعلماه بما جرى من العبد سعيد ، فقال في سره لا بد ان انصرهما وجلس عندهما ، فقام مغامس وذبح ناقته التي ليس له غيرها وقدمها لهم ، فاكلوا وشربوا واخذ ابو زيد يغني على الرباب وكان راع لسعيد العبد مارا من هناك ، فسمع غناء ابو زيد عند مغامس وامه ، فذهب واخبر العبد سعيد بما رآه، وهذا ارسل في طلبهم فحضروا الى العبد سعيد ، فوجدوا عنده جماعة من

السادات والاماجيد ، وهو متكي على ظهره كانه فحل جاموس ومنتظر قدوم العروس ، فسلم ابو زيد عليه فلم يرد عليه ولا اكترث بكلامه ، ولكنه قال لهم كيف تكونون من شعراء العرب واصحاب الفضل والادب وتتركون زيارة الامير وتقصدون عجوزا لا قدر لها ولا شأن ، فقال ابو زيد اطال الله عمرك وزاد في مقامك وقدرك اننا ما اتينا الى هذه القبيلة الا لنمدح جنابك ونتشرف بساحة اعتابك غير ان وصولنا كان في الظلام وكنا نريد ان نزور حضرتك في ثاني الايام ، الى ان ارسلت في طلبنا مع الغلمان ، فحضرنا حالا لامرك العالي فلا زالت ايامك في سرور وأفراح مدى الايام والليالي ، فلما انتهى ابو زيد من مقاله جلس على يمينه وجلس مرعي ويحيى ويونس عن شماله ، وكان عند جلوسه القى ساعده على فخذ سعيد ، بقوة وعزم شديد، فتألم سعيد من تلك الحركة وقال : لا مرحبا بك ولا حلت علينا البركة ، قاتل الله أباك وأمك فما أثقل دمك ، فقال ابو زيد لا تؤاخذنا كثر الله خيرك ومعروفك ثم انشد هذه الابيات :

يقول الحجازي والحجازي سلامه	ارى الدهر يندر بالملوك الافاضل
يا حيف اهل العز ولى زمانهم	ومن بعدهم حكمت أولاد الارازل
يا لهف قلبي على ملوك قد مضوا	حكم بعدهم في الناس خدام عاطل
أنا ناصر الايتام بالسيف والقنا	وطاعن الاعادي فوق ظهر الاصايل
إنا منصف المظلوم جابر خاطره	انا فارس الفرسان أرد الجحافل
انا ازوج الزينات لابناء عمهم	وابعد عنهم كل خبيث مماطل
فلا خير في عبد علا فوق سيده	ولا خير في من يغدر اهل الفضائل
فلا تحسب ان الدهر يصفو لظالم	ولا بد ما أريك طعن الذوابل

(قال الراوي) فلما انتهى ابو زيد من هذه القصة اغتاظ منه سعيد وقال له : ما هذا الكلام الغليظ الشديد ، يا أخس العبيد ، فلولا سواد لونك كنت قطعت راسك ، وأخمدت انفاسك ، فاجلس مكانك واكفنا شرك ولسانك ، ودع غيرك يطربنا بالكلام يا ابن اللئام ، فعند ذلك التفت مرعي وقال له لا تؤاخذه ولا تغضب عليه ، فانه من جملة العبيد الذين لا يعرفون مقام الملوك ولا لهم خبرة بحسن التصرف والسلوك ، فان كنت تريد غنيتك الان بقصيد يستحق الانعام ومزيد الاكرام فتزيل اكدارك وتريح أفكارك . فقال سعيد هات ما عندك فأنشد شعرا اسوأ من شعر ابو زيد فلما فرغ من كلامه وشعره ونظامه اغتاظ سعيد الغيظ الشديد ، وصاح على الجلاد ان يقطع رأسه ويخمد انفاسه فمنذ ذلك اعتذر اليه يحيى امام الحاضرين وكبار السادات المقدمين ، وقال لا تؤاخذهما من هذا القبيل ايها الملك الجليل ، فانهما من اناس بهاليل لا يعرفون مضمون الكلام ولا يميزون بين

النور والظلام فانا امدحك بابيات حسان ما سمعها احد الا وزال عنه الهم والاحزان لانها تشرح الصدور وتجلب السرور ، فقال هات ما عندك لعن الله اباك وجدك فأجاب يحيى بشعر اسوا ايضا من شعر مرعي ، فلما فرغ يحيى من شعره ونظامه وفهم سعيد فحوى كلامه ، زاد عليه الحال واستعظم المقال وصاح على الجلاد ان يقطع راس الثلاثة قصاصا لهم على ذلك الافتراء، فنهض يونس على الاقدام واعتذر إليه بالكلام ، وقال ان هؤلاء الشعراء من أوباش العربان لانهم تكلموا بحضرتك بما لا يليق من الكـلام ، فان اردت انشدك ابياتا ما سمعها قط انسان الا استحسنها ، فقال بارك الله فيـك انشد وخذ مني ما يرضيك ، فان صدري ضاق وقلبي يحدثني بالفراق فأنشد يونس شعرا اسوا من شعر يحيى .

فلما فرغ يونس من شعره ونظامه وفهم سعيد فحوى كلامه ، عظم عليه الامر وتوقد قلبه بلهيب الجمر وقال لهم احضرناكم يا لئام . حتى تطربونا بالشعر والنظام وتأخذون الجوائز والانعام ، ولكنكم اسأتم الادب وخرجتم عن سنة العرب ، وتكلمتم بما لا يليق امامي ولا اعتبرتم قدري ومقامي ، فلا بد من قتلكم على كلام الزور والنفاق . فلما انتهى من هذا المقال التقاه ابو زيد مثل سبع الآجام وضربه على راسه بالحسام فقتله في الحال واورثه الخبال ثم هجم على باقي العبيد وتبعه مرعي ويحيى ويونس الفرســـان الصناديد ، ولم تكن الا لحظة من الزمان حتى انزلوا بهم الهوان ، ومسحوهم بالسيف الهندوان ، بعد ذلك جمع ابو زيد سادات القبيلة والوجـــوه الكبار ، وقال لهم ها قد قتلت هذا العبد الغدار وجماعته الاشرار ، لانهم قد طغوا وتجبروا فلا رحم الله العبد اللئيم والوغد الذميـــم ، لان مراده استخلاص المملكة من مغامس اليتيم ، واخذ ابنة عمه شاة الريم ، فمرادي الان ان اقيمه اميرا مقام ابيه فما هو رأيكم وماذا تقولون فيه : قالوا هو ابن مولانا وقد رضيناه علينا اميرا ونحن عبيده وطوع يديه ولا نبخل بأرواحنا عليه ، فعند ذلك ركب ابو زيد الحصان وركبت معه الابطال والفرســـان والسادات والاعيان ، وقصدوا الامير مغامس ومعهم الطبول والزمور ، حتى وصلوا اليه فسلموا عليه وتمثلوا بين يديه ، واعلمه ابو زيد بواقعة الحال وكيف انه قتل ذلك العبد المحتال ، ففرح مغامس بهذا الخبر وزال عنـــه القلق والضجر ، ثم احضره الى الحلة مع امه بموكب عظيم وزفوا عليه ابنة عمه شاة الريم ، واجلسه على الكرسي مكان ابيه وصارت العرب تمدحه وتهاديه ، لانه تخلص من ايدي اولئك العبيد الاوباش ، فشكروا ابو زيـد ومرعي ويونس على ذلك الصنيع واراد ان يمنعهم عن السفر الى تونس ،

وان يبقوا عنده فيزيد فرحه ويستأنس بهم . فقال ابو زيد لا بد من سفرنا وها انت أمنت من الخطر .

ثم اقام ابو زيد ثلاثة ايام في فرح وسرور وغبطة وحبور ، وبعد ذلك ودع الامير مفامس وسار مرعي ويحيى ويونس ، قاصدين مدينة تونس وهم يجدون في قطع الروابي والتلال . فوصلوا الى مكة المشرفة وقلوبهم على زيارة المصطفى متلهفة . وبعد ان زاروا المقام وادوا واجبات الوقار والاحترام ، اجتمعوا في بيت شكر الشريف بن هاشم وهو زوج الجازية اخت الامير حسن ، وأعلموه بخروجهم من الوطن فترحب بهم وأكرمهم بمشاهدة ابو زيد ومرعي ويحيى ويونس . ثم انهم ركبوا وساروا يقطعون البراري والآكام حتى اشرفوا الى بلاد العجم . فدخلوا عليها وداروا في أسواقها ، وبعد ذلك رحلوا من تلك الديار وواصلوا سير الليل بسير النهار حتى وصلوا الى بلاد التركمان ، فدخلوا على ملكها الفضبان ومدحوه بالقصائد الحسان ، فأكرمهم غاية الاكرام واجازهم بنفائس الانعام ، ثم ركبوا الخيول وجدوا في قطع البراري والسهول الى ان وصلوا الى عند الخفاجي عامر حاكم بلاد العراق . فدخلوا وسلموا عليه فرد عليهم السلام واكرمهم غاية الاكرام ثم ان ابو زيد اخذ يمدح الخفاجي عامر. وطلب منه ان يمن عليه بانعامه .

فلما انتهى ابو زيد من شعره ونظامه وفهم الخفاجي عامر فحوى كلامه، اجازهم بالجوائز الحسان ثم قدم لهم الطعام . فشكروه على هذا الاهتمام واقاموا عنده ثلاثة ايام في عز واكرام ثم ودعوه وجدوا في قطع البراري والآكام الى ان وصلوا الى الشهباء ، وكانوا قد تعبوا من السفر فنزلوا عن خيولهم واستظلوا تحت اغصان الشجر . وكان امير المدينة رجلا عالي المقام اسمه الامير بدريس وله وزير عاقل خبير اسمه الخزاعي ، وهو صاحب رأي وتدبير فاتفق انه خرج في جماعة من القوم قاصدا الصيد والقنص ، فرأى ابو زيد ومن معه فسلم عليهم وسألهم عن أحوالهم فنهض ابو زيد وحياه ، وانشده ، فأكرمه الامير وأعطاه .

فلما انتهى ابو زيد من هذا الشعر والنظام شكره الخزاعي وقال لهم اعلموا يا شعار العرب وأصحاب الفضل والادب ، اني الخزاعي وزير بدريس امير حلب فاقصدوني الى المدينة وأنا اخلع عليكم الخلع الثمينة ، فيزول عنكم العنا وتنالوا القصد والمنى ، ثم تركهم وسار فأرسل ابو زيد الامير يونس الى البلد ليأتيهم بالمأكل والمشرب لانهم كانوا في غاية الجوع . فسار بالعجل وجعل يدور فيها ويتأمل في أسواقها وحسن مبانيها ثم رجع بالطعام

واخذ يشرح لابي زيد عن حسن المدينة وعما شاهد فيها من القلاع الحصينة، وبعد ذلك ركب مع جماعته مرعي ويحيى ويونس وجدوا في قطع البراري والآكام ومروا بحماه وحمص وطرابلس حتى اشرفوا على مدينة الشام ، وكان الحاكم عليها في ذلك الزمان ملك عظيم الشأن اسمه شبيب التبعي ابن مالك ابن حسان ، وساروا ولو كان لهم اجنحة لطاروا الى ان وصلوا الى القدس الشريف ، فأقاموا بها يومين ومنها ساروا الى غزة ودخلوا على حاكمها الشركسي ابن نازب ، فمدحوه بنفائس الاشعار واعتبرهم غاية الاعتبار ، واقاموا عنده عشرة ايام ثم جدوا في السير حتى وصلوا الى العريش، ودخلوا على حاكمها البردويل ابن راشد فمدحوه بالاشعار واقاموا عنده ثلاثة ايام . ثم ودعوه وساروا الى ان وصلوا الى مصر العدية وتلك الاراضي البهية ، فقصدوا الفرمند بن متوج ودخلوا عليه ومدحوه بنفائس الاشعار فالتقاهم بالترحيب والوقار ، واقاموا عنده ثلاثة ايام وساروا قاصدين بلاد الصعيد وبلاد المغارب حتى وصلوا الى عند القاضي بن مقرب، ودخلوا وسلموا عليه ومدحوه بالاشعار فاعتبرهم غاية الاعتبار وقاموا عنده في اعزاز واكرام . وكان هذا الرجل من اعلى الناس بكرم الضيوف ويجود بالالوف وهو الذي ذكره المؤرخ الشهير ابن خلدون في كتابه العبر . ثم تأهب ابو زيد للسفر فودع الماضي وسار مع جماعته .

(قال الراوي) واتفق ان جماعة من شعراء العربان كانوا قصدوا بلاد نجد ومدحوا الامير حسن بن سرحان بالاشعار الحسان كما جرت العادة في ذلك الزمان ، فأجازهم بالعطايا الجميلة والمواهب الجزيلة ، وكانت من جملتها جارية من بنات الحي تسمى مي ، فشكروه على هذا الجميل والاحسان ثم ساروا قاصدين بلاد العرب وتلك الاوطان ، حتى وصلوا الى تونس الخضراء ومدحوا الزناتي خليفة والوزراء ، فأحسنوا اليهم وانعموا عليهم ثم باعوا تلك الجارية الظريفة الى سعدة بنت الزناتي خليفة ، وكانت سعدة من اجمل البنات ، لطيفة الذات ، قد اتصفت بالانس والمحاسن ، وشاع ذكرها في جميع الاماكن ، تجالس الادباء وتنادم الملوك والامراء ذات ادب وفضل لها معرفة بضرب الرمل ، فاتفق انها سألت تلك الجارية ذات يوم عن سبب وقوعها في أيدي اولئك القوم ، فأخبرتها بالقصة وكيف ان الامير حسن اوهبها لهم على سبيل الهدية ، فقالت وهل يوجد نظيري بين نساء العرب في الحسن والادب ؟ فقالت لها يا صاحبة الجود والكرم انه يوجد بين الامم من يشبهك في الظرف والجمال ومكارم الشيم وحسن الخصال ، وهو بطل الابطال وزينة الرجال الامير مرعي ابن مولاي حسن

امير بني هلال ، فلما سمعت سعداء هذا الكلام تعلق قلبها بمرعي وهام ، لان الانسان قد يعشق بسمع الاذان قبل المشاهدة والعيان ، فقالت سعدة: اذا كان كلامك هو حقيق فأوصفيه لي على التحقيق فأشارت مي تقول :

لو تنظري يا ست مرعـــي بنظرة — فنظرة فـي مرعي تزيـل المصايب
له وجه مثل البدر عند اكتمالـــه — وخدود تشبـه ساطعات الكواكب
له خد احمر والعيــون نواعس — وكالسيـف ماضي قفلة الحواجب
وطوله كعود الزان ان كان مايـــل — خلى نـار قلبـي تزيــد اللهايب

فقالت لها سعداء قومي بنا الى البستان وانا اضرب هناك الرمل ، وانظر احوال الذين ذكرتهم الان ، فان قلبي تعلق بهم غاية التعليق ومرادي ان أعرف اخبارهم على التحقيق ، ثم اخذتها معها الى البستان وكان من احسن المنتزهات فضربت الرمل وولدت البنات من الامهات ، فتأكد لها ذلك الخبر وعرفت الامور التي سوف تجري ، وبينما هما في الحديث أقبل عليهما العلام ابن عم الزناتي خليفة ونائبه في معاطاة الاحكام ، صاحب معرفة وفضل وعقل من خبر الناس في ضرب الرمل ، وكان يتردد على سعدة في اغلب الايام لانه من جملة الاهل وبني الاعمام ، فسلم عليها فردت السلام واستقبلته بالترحاب والاكرام ، فجلس بقربها وكان قد عرف ما في قلبها لانه ضرب الرمل في ذلك النهار وظهرت له الاخبار ، فأعلمها بأفكاره وكشف لها اسراره فطلبت منه ان يكتم ذلك الخبر ولا يبيح به لاحد من البشر ، خوفا عليها من الضرر وقالت له اريد منك يا ابن عمي ان تعلمني متى حضر هؤلاء القوم لاني بانتظارهم ، فأجابها الى ذلك الطلب ووعدها بالمساعدة على بلوغ الارب ، ثم ودعها وسار طالب الصيد والقنص .

(قال الراوي) هذا ما كان من سعدة وابن عمها العلام ، وأما ما كان من البطل الهمام والاسد الدرغام ابو زيد فارس الصدام ومن معه من السادات الكرام ، فانهم كانوا قد جدوا في قطع الروابي والآكام ، مدة عشرة ايام حتى وصلوا الى تونس وقت الظلام ، فباتوا خارج المدينة وفي اليوم التالي صاروا يتأملون في مبانيها فوجدوها متينة وابراجها حصينة كثيرة القلاع قوية الدفاع ، انهارها غزيرة وخيراتها كثيرة ، فجعلوا يدورون حواليهـــا يتبصرون كيف يكون الهجوم عليها ، ثم دخلوا الى بستان واستمروا تحت اغصان الشجر وكانوا يقطفون ويأكلون الثمر ، فبينما هم على تلك الحال اذ اقبل عليهم جماعة من الابطال أرسلهم الزناتي ليقبضوا عليهم ويقيدوهـــم بالاغلال حيث بلغه خبرهم من بعض الفرسان بأنهم في ذلك البستان ، فداروا بهم من اليمين والشمال فلما نظر ابو زيد تلك الفعال استعد للحرب

والقتال ، وهجم عليهم كالسبع وضرب بالسيف في ذلك الجمع فقتل منهم عدة رجال ومددهم على الرمال ، ثم تكاثرت العساكر والجنود واحاطوا بهم ، وقبضوا على مرعي ويحيى ويونس واوثقوهم بالقيود والاغلال ولم يقدروا على ابو زيد في الحرب والقتال ، فعند ذلك تقدم اليه العلام على انفراد وقال له من تكون من العباد وما هو سبب مجيئكم الى هذه البلاد . فقال ابو زيد اننا شعراء من بلاد الشرق وعادتنا ان نمدح الامراء وسمعنا بكرم الزناتي خليفة وما خصه الله من الشمائل اللطيفة ، فقصدناه لاجل هذه الغاية الوحيدة ، وكان وصولنا مساء فبتنا في هذا المكان حيث اننا غرباء لا نعرف احدا ، الى ان اشرفتم بجمعكم علينا واوصلتم اذاكم الينا . وانا اسمي محمود واسم جماعتي شداد وحماد ومسعود ، فقال العلام لقد كذبت في المقال وتكلمت بكلام المحال ، ما انت الا الامير ابو زيد صاحب المكر والكيد ، واما رفقاؤك فهم مرعي ويحيى ويونس ، وقد اتيتم الى بلادنا لتعرفوا احوالنا وقواتنا ثم تهجمون علينا وتحتلون بلادنا ، ثم قال امسكوه ولا تؤذوه فانطبقت الفرسان على ابي زيد من اليمين والشمال ، حتى قبضوا عليه واخذوه مع باقي اصحابه الى الزناتي ، ولما دخلوا عليه تمثلوا بين يديه ، وقالوا اعلم يا مولانا ان هذا العبد حاربنا ودهانا ، وقتل منا ابطالا وفرسانا ، فاغتاظ الزناتي وتكدر من هذا الخبر ، وقال لابي زيد من تكون من العربان يا أخس السودان ، قال نحن شعراء نقصد الملوك والامراء فنمدحهم ونأخذ الانعام ونحصل على بلوغ المرام ، فسمعنا بكرمك فقصدناك من بلاد العرب ، طمعا بالفضة والذهب ، وحيث اننا من الاعراب وليس لنا في هذه الناحية اصدقاء ولا احباب ، فدخلنا الى ذلك البستان لنأخذ لانفسنا راحة يا ملك الزمان ، ثم نقصد جناحك العالي وباقي السادات والموالي ، فأحاطت بنا العساكر مع الاهالي وغاروا علينا قاصدين قتلنا واذانا ، فاقتضى الحال اننا دافعنا عن انفسنا بقدر الامكان الى ان وقعنا في الاسر والهوان ، فأمر بما تشاء وتريد ايها الملك السعيد ، فلما سمع الزناتي هذا الكلام وابدى الضحك والابتسام ، وقال لهم يا مناحيس ما انتم الا جواسيس ، اتيتم لترودوا البلاد وتعرفوا احوال العباد ، ثم تذهبون وتأتون بالعساكر والجمع الوافر ، فتملكون بلادنا واراضينا ، وتتحكمون بجموعكم فينا ، هذا هو السبب الذي قادكم الينا وحملكم على القدوم والهجوم علينا ، فلا بد من قتلكم با أوغاد على رؤوس الاشهاد .

(قال الراوي) وكان الزناتي قد وقف على الخبر اليقين من المنجمين .

وبعد مفاوضات طويلة مع ارباب المجلس استقر الراي على شنق ابي زيد ومرعي ويحيى ويونس . فأخذهم العسكر ومروا بهم من تحت قصر الاميرة سعداء فلما سمعت ضجيج العسكر قامت جاريتها لتعلم ما الخبر فطلت راسها من الشباك وامعنت النظر فيهم فاعتراها الكدر . وقالت لمولاتها اعلمي يا زينة الدنيا ان هؤلاء الثلاثة مرعي ويحيى ويونس واما هذا العبد الرابع فهو ليث الوقائع الامير ابو زيد فارس المعامع . فلما سمعت سعداء هذا الكلام ، تبدل نهارها بالظلام لانها كانت تعلقت بحب مرعي دون الانام ، فصاحت على الجلادين والعساكر والمحافظين وقالت لهم ارجعوا الى ابي بهؤلاء العرب واياكم ان تقتلوهم فيحل بكم العتب . واني سأتبعكم على الاثر لاقف على حقيقة الخبر ، فلما سمعوا كلامها رجعوا في الحال ، وذلك لما يعهدون من علو منزلتها ونفوذ كلمتها ، ثم ان سعدا لبست افخر الثياب وذهبت تخبر أباها بما فعلت ونصحته بعدم قتلهم لعدم ثبوت جرمهم واقترحت عليه حبسهم في قصرها ، فأجابها الى طلبها .

فأخذت الاربعة انفار وحبستهم عندها في الدار ، ثم اخذت من الطعام ما يكفيهم ونزلت اليهم فاجتمعت بمرعي في اول الامر وقالت له ، كل ولا تخبر احدا بل احفظ ذلك السر ثم فعلت هكذا بيحيى ويونس وقالت ليونس ان يرسل لها ابو زيد فلما حضر قدمت له شيئا من الطعام فشكرها على هذا الاهتمام ، ثم انه قسمه على سبعة اقسام فسألته عن سبب ذلك فقال لها اعلمي يا زينة الممالك وبدر الليل الحالك ، انني انا وجماعتي اربعة وانت والجارية اثنان على التمام ، والحصة السابعة سأحزمها بحزام وأرسلها الى ابنة عمي عاليا ، فقالت له سعدا لماذا لا تتغذى وحدك . فتنهد من فؤاد متبول وانشد يقول :

اذا اكلت انا وجاعت جماعتي ... فلا عشت عمري لسكب الصفائح
واذا جعت انا واكلت جماعتي ... احمد ربي وهو كريم مسامح
ايا ست زاد اثنين يكفي ثلاثة ... ويكفي اربعة ايا ست والكل رايح
ويكفي خمسة من اجاويد حينا ... ويكفي لستة من هلال السمائح

فضحكت سعدة من كلامه واعجبها فحوى شعره ونظامه ، ثم انها اخرجتهم من الحبس واحضرتهم الى عندها وقدمت لهم الطعام واخذت تحادثهم بالكلام وتسألهم عن احوالهم وعن بلادهم فقال ابو زيد : نحن من جملة الشعراء نقصد الملوك والامراء فنمدحهم بنفائس الاشعار ونرجع الى الديار بالدرهم والدينار ، فقالت انكم لم تعلموني على التحقيق مع انني عارفة بأحوالكم فأخذت تعلمهم بسفرهم وما جرى لهم في الطريق والسبب

في قدومهم الى تلك الديار شعرا .

فلما فرغت سعدة من كلامها شكرها الامير ابو زيد على اهتمامها ، وباتوا تلك الليلة في سرور وانشراح ، ولما اصبح الصباح امر الزناتي باحضارهم، فلما احضروا قال لابو زيد اذا اطلقناك الى ان تأتي جماعتكم من الاوطان ، فكم يوم تغيب عنا وماذا تجيب لنا ، فقال اغيب ثلاثة شهور واجيب لـك اربع مية الف مدرع مشهور ، فقال وما هو مرادك من المدرع ايها البطـل الصميدع ، فأخرج الامير ابو زيد من جيبه قطعة من الفضة الخاص وقال: هذا هو المدرع ، ففرح لزناتي بذلك وقال اذهب بأمان ، فقال اعطني عدة حرب وحصان لان الطريق مخطرة ، فأعطاه ما طلب فودع الزناتي وذهب، وجعل يدور البلاد ويطوف في المدائن ، حتى اشرف على وادي الغباين وتلك الاماكن ، فوجدها كثيرة المياه والنبات متسعة البراري والفلوات تصلح للحرب والقتال ، ومرعى النوق والجمال ، ثم سار من هناك الى فابس ومنها الى عين دورس فوجدها احسن محل لامتلاك تونس ، وقد تعجب من خيرات البلاد وكثرة ما فيها من الايراد ، ثم طاف جميع البلاد وعرف السهول والوهاد ورجع ليرى احوال البلاد ، ولما دخل الى قصر سعدا فرآه مطليا بالرصاص وكان الوقت نصف الليل فأرعدت الدنيا وابرقت ، حتى قام الاولاد من نومهم وعادوا يذكرون بلادهم وصار مرعي ينشد الشعـر ممزوجا بالخيبة .

فلما فرغ مرعي من شعره كان ابو زيد واقفا تحت القصر يسمع ، ثم رآه الطواشي ففتح له ودخل عندهم وسلم عليهم ، فقالوا له اين كنت يا ابا زيد الى الان ، انت في تونس ونحن نقاسي اشد الضيق ، فقال انني تهت عن الطريق وقد صممت الان على السفر وأتيت لوداعكم ، ثم تقدم وودعهم واوصى سعدا بهم ثم بكى بكاء شديدا وتقدم الامير مرعي يودعه .

فلما فرغ الامير مرعي من كلامه قال ابو زيد ، لا يكون لك ادنى فكر لانني سأبذل الجهد في تخليصكم ، ثم ودعهم وسار وعيناه تذرف بالدموع، وسار يقطع البراري والقفار مدة عشرين يوما حتى اقبل الى ارض الصعيد، فدخل على القاضي بن مقرب واخبره بما جرى له من الاول الى الاخر ، فبكى القاضي بكاء شديدا ، ثم انه بقي بضيافته نحو يومين وبعد ذلـك ودعهم وسار يقطع البراري والقفار عدة ايام حتى وصل نواحـي حلب فجلس في ظل شجرة هناك لاخذ الراحة ، فبينما هو جالس اقبل عليـه تاجر وحياه بالسلام ثم ساله الامير ابو زيد عن حاله ، فقال اني تاجر قاصد بلاد المغرب ، فقال له هل تعرف الامير علام ؟ فقال له : من اعز اصحابي

واعظم احبابي فقال له ابو زيد ارغب ان اعطيك كتابا توصله اليه فقال اكتب ما بدا لك فعند ذلك اخذ ابو زيد يكتب للعلام ويقول :

يقول ابو زيد الهلالي سلامـــة — فمن كان شقي لا تسعده الايـــام
نعم ايها الغادي وحامـل كتابنـا — تجد السرى في واسع الاكـــام
اذا جيت تونس وقابس وارضها — فسلم على الفتى المسمى العـلام
اوصيك في مرعي ويحيى ويونس — اولاد اختـي مـن فروع اكـرام
فلا بد مـا ارجع واعود وانثنـي — ولا بد مـا آتي بقوم لـــزام
بأربع تسعينات الوف عدادهـم — تشبـــه جرادا منتشر بغمـــام
ولا بد من لطمة على بـاب تونس — ويبقى الدما فوق الثرى عـــوام
ولا بد من قتل الوهيدي بصارمي — وابقي الزناتـــي بالقبور ينـــام
واهلك بلاد الغرب بحد صارمـي — واملكك فـي الغرب يا عـــلام

فلما فرغ ابو زيد من كلامه طوى الكتاب وختمه فأخذه التاجر وسار يقطع البراري والقفار حتى اشرف الى تونس وتلك الديار فأخذ المكتوب وسلمه الى العلام ، ففضه وقراه وعرف حقيقة فحواه ، واما الامير ابو زيد فانه ما زال يجد المسير مدة خمسين يوما حتى اقبل الى نجـــد ، وحين دخوله الى نجع بني هلال التقاه الكبار والصغار حتى اقبل الى صيوان الامير حسن فدخل وسلم عليه وعلى الذين حواليه فلما رآه الامير حسن والامير دياب والقاضي بدير والامير زيدان تقدموا اليه وقبلوه بين عينيه واجلسه الامير حسن بجنبه ودارت البشائر في بلاد نجد بأن الامير ابو زيد حضر من بلاد الغرب ، فاجتمعت الفرسان من كل جانب ومكان حتى احتبك الديوان، وحينئذ سألوه عن مرعي ويحيى ويونس ، فعند ذلك بكى الامير ابو زيد بكاء شديدا واشار يخبرهم عما جرى له بقصيدة انشدها امامهم .

فلما فرغ ابو زيد من الشعر بكى الامير حسن ومن حضر من الســادات الكرام لاسيما اهل الاولاد ، فقد تفطرت منهم الاكباد وقالوا لابو زيد اعلم يا فارس الفرسان اننا لا نفك عنك ولا نعرف اولادنا الا منك ، فقال كونوا براحة بال فاني كما اخذتهم من الاطلال سأرجعهم وهم على احسن حـــال وانعم بال ، فالتفت الامير حسن الى الحاضرين وقال لهم مرادي الرحيل الى بلاد الغرب واقيم هناك الحـــرب واخلص الامراء بالطعـــن والضرب ، فاستحسنوا هذا الخطاب وقال ابو زيد هذا هو الراي الصواب ، ولكن قبل الرحيل من هذه الاطلال بالفرسان والابطال والنساء والعيال ، يجب ان تأتوا بالجازية لتركب امام ظعون بني هلال مع الست ريما والست عدلا والست ريا وسعد الرجا وبدر النعام وجوهرة العقول ونجمة السحور وزين الدار والست عليا لانه اذا اشتعلت نيران الحرب ووقع الطعن والضرب تكـــون

الجازية وباقي السيدات امام الابطال في العماريات لان الجازية من النساء المشاهير ذات راي وتدبير ، وهكذا تم الراي بين الامراء والاعيان وارسلوا اربعة وعشرين فارسا من الشجعان للرحيل بنساء القبيلة ، وتأهبوا للطعن والضرب والسير الى تونس الغرب ، وامر الامير حسن بدق طبل الرجوج فدق الطبل في الحال واجتمعت الفرسان والابطال ، وسارت الرجـــال ودخلوا على الامير حسن بن سرحان وهو في الديوان ، فاخبرهم بما جرى وقال لهم استقر راينا ان نرحل من الاوطان ونقصد بلاد الغرب بعد ستة ايام فكونوا في الاستعداد التام لان ارضنا قد امحلت ووقع بنا الفلا واولادنا في اسر الزناتي خليفة يقاسون العنا .

قال الراوي وفي اليوم السابع تجهز الابطال للمسير والارتحال فهدت المضارب والخيام وانتشرت الرايات والاعلام ودقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول ، واعتقلوا بالسيوف والنصول وركبت الحريم والعيـــال والاولاد والاطفال ونساء الامراء والجازية ام محمد وكان الامير ابو زيد في مقدمة الفرسان ، وساروا عدة ايام حتى اشرفوا على بلاد حزوة والنـــير فنزلوا هناك ونصبوا المضارب والخيام وكان الحاكم عليها الدبيسي بن مزيد وكان من صناديد الابطال .

قصة الدبيسي بن مزيد

لا يقدر العواقب ولا يخشى حلول المصائب . وكان في الشجاعـــة والفروسية في طبقة علية يفتخر بنفسه ويفضل ذاته على جميع الفرسان في ساحة الميدان ويقول انه اذا ركب الجواد لا يوجد من يقاومه في الحرب والطراد ، ولو كان ابو الفوارس عنترة بن شداد ، وكان له اربعة وزراء يركن اليهم ويعتقد في اموره عليهم ، وهم مقلد وهمام وراشد وسلام وله ولد اسمه مزيد قد سماه على اسم جده وكان يحبه كثيرا ، ومن شـــدة محبته فيه اراد ان يزوجه بابنة اخيه فجمع وزراءه واخبرهم بما قد صمم عليه فأجابوا على ذلك المرام ما عدا الوزير همام ، فانه كان صاحب رأي وتدبير فنهاه عن ذلك في الوقت الحاضر ، واعلمه بقدوم بني هلال الى تلك البلاد بالجيوش والعساكر ، فانذهل الدبيسي وحار في امره وبينما هو في مجلسه دخل عليه الرعيان واخبروه بقدوم بني هلال وانهم ملأوا الارض بجيشهم فاستشار الدبيسي وزراءه فأشاروا عليه بأن يرسل من يستطلع

مددهم ، فارسل العبد راشد الى مضارب بني هلال ، فانذهل مما رأى من كثرة الرجال والابطال والفرسان ورجع الى الدبيسي واخبره بما رأى فزاد خوفه وفزعه فاستدعى اليه الوزراء واخبرهم بذلك ، فلم يجبه احد بكلام ، فقال لهم ما بالكم لا ترون الجواب فقال الوزير راشد انه من الواجب ان ترسل لهم كتابا تأمرهم بدفع عشر المال مع النوق والجمال ، فان امتنعوا عن ذلك فنقاتلهم في الحال ونشتتهم في البراري والتلال ، فاكتب لهم بهذا الصدد وانا آخذه اليهم وآتيك بالجواب ، فاستصوب الملك رايه وكتب لهم كتابا يقول فيه :

يقول الدبيسي والدبيسي مزيد	بدمع جرى فوق الخدود بدود
الا يا غاديا على متن ضامر	تشابه غزالا بالفلاة شرود
اذا جيت عند الهلالي ابو علي	أعطيه مكتوبي تنال سعود
الا يا حسن اسمع كلامي واعتبر	وافهم مني غاية المقصود
فان كان قصدك تجوز بلادنا	فارسل لنا عشر مالك حتى ترود
ارسل لنا الفين حمرة سليلة	والف جواد يامير هدود
والفين سيف يا امير مسقطة	والف درع من عمل داود
وارسل لنا الجارية ام محمد	مع الست عليا بغية المقصود
وارسل لنا معها بنات امارتك	واحذر تخالف لا تكون حقود
وان كنت لا تدفع لنا ما ذكرته	فارجع لارضك واياك تعود

ثم ختم الكتاب واعطاه للوزير راشد ، فأخذه وسار حتى اشرف على بني هلال فنزل من على الحصان فسلم على السلطان ، وعلى باقي الامراء فردوا عليه السلام والتقوه بالترحاب والاكرام ، وامر له بالجلوس فجلس بقربه وسأل عن اسمه وعربه فأعلمه بواقعة الحال وعن سبب حضوره الى تلك الاطلال ثم اعطاه الكتاب ، فأخذه الامير وقراه ، ولما وقف على حقيقة فحواه غضب الغضب الشديد لكنه اخفى الكمد واظهر الجلد ، ثم امر الغلمان ان يأخذوا الوزير الى دار الضيافة ، ولما خرج من الديوان التفت الى الامراء والاعيان واطلعهم على خطاب الدبيسي الذي يطلب فيه عشر المال، فقال ابو زيد انه من الصواب ان تقول للدبيسي ان يمهلنا عشرة ايام ونحن نرسل له طلبه بالتمام ومتى انقضت المدة ولح في الطلب تقول له ليس عندنا مال ولا ذهب سوى الحرب والقتال في ساحة المجال ، وبهذه الحالة تكون فرساننا قد استراحت من تعب الطريق .

وتبادل الدبيسي وحسن الحوار شعرا ، ثم ان حسن طوى الكتاب وختمه في الحال وسلمه الى الوزير فأوصله الوزير الى الدبيسي ودخل وسلم عليه واعطاه الكتاب ففتحه وقراه وعرف ما حواه ففرح واستبشر

وايقن بالنجاح وبلوغ الوطر ، ولما انتهت العشرة ايام لم ترسل بنو هلال الاموال ، قال الدبيسي للوزير ها قد مضت المدة المعينة ولم نقف على افادة ولا وردت الاموال ، فيجب ان تسير اليهم وتطلب منهم ان يبادروا بارسالها في الحال والا حاربناهم وانزلنا بهم الوبال فامتثل الوزير امره وسار الى صيوان الامير حسن ودخل وسلم عليه ، ثم جلس قليلا وبعد ذلك طالبه بالمال ، ولامه على ذلك الاهمال ، فقالت السادات ارجع الى مولاك وقل له ليس عندنا مال ولا نوق ولا جمال ، غير ضرب السيف وطعن النصال ؛ فاغتاظ الوزير من هذا الكلام ورجع الى مولاه واخبره بما سمعه من القوم فزاد غيظ الدبيسي ، وامر الرؤساء والقادة بجمع العساكر والاجناد ، فعند ذلك دقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيل واعتقلت بالرماح وخفقت الرايات وركبت الابطال بأربع مائة الف مقاتل .

(قال الراوي) فلما ركب الدبيسي ومعه العسار والاجناد ، طالبا ديار بني هلال ، اقترب منهم فالتقوا به ودنوا من بعضهم ، فبرز من فرسان الدبيسي فارس كأنه الاسد الكاسر اسمه الامير خاطر ، فبرز اليه دياب فقال له من تكون من بني هلال ، فقال انا دياب المصادم وصاح فيه ، وهجم عليه فالتقاه الفارس كالاسد الكاسر ، وجرى بينهما حروب وأهوال تشيب رؤوس الاطفال وبعد ذلك اختلف بينهما ضربتان قاطعتان ، وكان السابق الامير دياب لانه أعلم في أصول الحرب واخبر في مواقع الطعن والضرب ، فوقعت الضربة على هامه فقدته نصفين ، ثم سال وجال وطلب مبارزة الابطال ، فبرز اليه فارس اخر فقتله وثان جندله وثالث عجل الى المقابر مرتحله ، وما زال يبارز الفرسان والابطال ويمددها على وجه الرمال الى وقت الزوال، دقت طبول الانفصال وبات الفريقان يتحارسان تحت مشيئة الرحمن ، ولما اصبح الصباح واشرق بنوره ولاح ، برز الامير دياب الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فبرز اليه الوزير راشد ، فالتقاه الامير دياب بقلب كالحديد . ثم التقى البطلان كأنهما جبلان أو اسدان كاسران ، وحان عليهما الحين وغنى على رأسيهما غراب البين ولم تكن الا ساعة من الزمان ، حتى استطال عليه دياب في الميدان وطعنه بالرمح في صدره ، خرج يلمع من ظهره فوقع على الارض قتيلا وفي دمه جديلا ، فلما قتل الوزير راشد هجمت جموع الدبيسي بقلب واحد فتلقتهم بنو هلال بقلوب كالجبال واشتد بين العسكرين القتال ، وعظمت الاهوال ، فما كنت ترى الا وقع السيوف على السيوف وقتال يشيب الاطفال ، وما زال القوم على تلك الحال وهم

في اشد قتال الى وقت الزوال ، فعند ذلك دقت طبول الانفصال فتاخرت عساكر الدبيسي خاسرة ورجعت بنو هلال ظافرة ، وفي ثاني الايام دقت طبول الحرب والكفاح ، فركبت الفرسان واعتقلت بالسيوف والرماح وبرز الامير دياب فصال وجال في ساحة المجال ، وطلب مبارزة الابطال فبرز اليه الوزير محمود فالتقاه الامير دياب بقلب شديد .

ثم ان الوزير هم على دياب فالتقاه دياب بقلب شديد وهجم عليه هجوم الصناديد ، واشتد بينهما القتال في ساحة المجال ، فاختلف بين الاثنين ضربتان قاطعتان وكان السابق الوزير محمود ، ففطس دياب تحت الخضراء فراحت الضربة خائبة ، ثم انتصب الامير دياب وهجم عليه كسبع الغاب وضربه بالسيف على هامه ، فقطعه نصفين وكان له اخ يدعى الهداف ، فلما راى اخاه قد مات زادت عليه الحسرات فهجم على الامير دياب ليأخـذ بثأر اخيه فالتقاه الامير دياب في الميدان بقلب اقوى من الصوان ، وجرى بينهما حروب واهوال تشيب رؤوس الاطفال، واستمر على تلك الحـال وهما في أشد قتال ، الى ان ولى النهار واقبل الليل ، فوقفا عن القتال وباتت العساكر في البطاح ، ولما اصبح الصباح دقت طبول الحرب والكفاح وبرز الهداف الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فبرز اليه دياب وصدمه كليث الغاب ، فالتقاه الهداف وهجم عليه هجوم الاسد الرئبال، وما زالا في اشد قتال وطعان يذهل عقول الشجعان ، الى ان انتصف النهار وكان ان استظهر عليه دياب وضربه على عنقه بالسيف البتار فقطعه نصفين والقاه في ساحة المجال ، فلما رات جموع الدبيسي ما حل بوزيرها ، هجمت على دياب ، فعند ذلك هجمت بنو هلال من اليمين والشمال ، والتقت الرجال بالرجال وجرى الدم وسال من شدة الحرب والقتال ، وما زالوا على تلك الحال الى وقت الزوال ، فدقت طبول الانفصال وباتت بنو هلال في سرور، وبات الدبيسي في قلق وضجر لانه قد قتل من قومه اكثر الرؤساء والقواد، ولما اصبح الصباح واشرق بنوره ولاح، ركبت الفرسان الى الحرب والكفاح. وكان اول من برز الى الميدان وطلب قتال الشجعان الملك الدبيسي ، فصال وجال في ساحة المجال ونادى اين فرسان بني هلال ، فلتبرز الان الـى ساحة القتال. فما اتم كلامه حتى صار الامير دياب قدامه وانشد شعرا يهدد به الدبيسي فاغتاظ الدبيسي منه ، ورد عليه ، فاغتاظ دياب بدوره وانطبق عليه ، وفعل الدبيسي مثل ما فعل واخذا في الحرب والقتال وجرى بينهما عجائب واهوال ، الى ان ولى النهار واقبل الليل بالاعتكار ، فافترقا

عن بعضهما البعض وعند رجوع الامير دياب من معركة الصدام التقاه الامير حسن باعزاز واكرام وشكره على ما فعل ، وقال له لا تنزل غدا الى الميدان لان لك عدة ايام في الحرب والصدام والدبيسي مرتاح ثم ختم الكلام بهذا الشعر والنظام :

قال الفتى حسن الهلالي ابو علي ... الدمع من فوق الخدود سيولا
يا مرحبا بك يا دياب الغانم ... يا فارس الفرسان يوم الهولا
يا فارس الفرسان يا ليث العدا ... يا ليت عمرك يا امير يطولا
يا امير انك قد قتلت لراشد ... وسلام اضحى ميتا مقتولا
أما الفتى محمود ولى وانمحى ... واخوه هدافا غدا مجدولا
فقهرتهم يوم الوغى حتى غدوا ... قتلى بحد الصارم المصقولا
واليوم قد نزل الربيسي صادمك ... في حومة الميدان مثل الغولا
يا امير دع غيرك في غدا ينازله ... فاسمع كلامي وافهم المنقولا
أخاف توقع يا دياب بغدره ... تضحي صريعا في الفلا مقتولا

(قال الراوي) فلما فرغ الامير حسن من شعره ونظامه وفهم دياب فحوى كلامه ، توقف عن رد الجواب فقال له حسن علامك يا دياب لا ترد الجواب فقال ارجو ايها الهمام ان لا تمنعني عن هذا الطلب وان قتلت فروحي فداك فاني لا اخشى الموت في قتال اعدائك فشكره حسن وقبله في صدره وقال له : انا ما تفوهت بهذا الكلام الا لما وجدتك تعبان وما دام الامر كذلك فابرز نهار غد وقاتل خصمك واتكل على الله . ثم باتوا تلك الليلة في سرور وانشراح ولما اقبل الصباح واشرق بنوره ولاح ، دقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالرماح والنصول ، وتقدموا الى ساحة الميدان وكان اسبقهم الامير دياب ، ولما صار في معركة القتال طلب الدبيسي ، فانحدر اليه فالتقاه كسبع الاجام ، واخذ معه في الحرب والصدام واشتد بين البطلين القتال وعظمت الاوهال ، وكانا تارة يتقدمان وتارة يتأخران وكانت عيون الفرسان شاخصة اليهما وما زالا على تلك الحال الى وقت الزوال ، فدقت طبول الانفصال فافترقا على سلام ورجعا الى الخيام ، ولما اصبح الصباح ركب الامير دياب فتقدمت اليه ابنته وطفا وهي تبكي بدموع غزار ، فتعجب من ذلك وقال لها اعلميني بما اصابك ، قالت مرادي ان تتوقف هذا اليوم عن قتال القوم فقد رايت حلما في المنام اصبحت منه في اوهام وقصت حكاية حلمها شعرا ، فقال لها : لا تخافي من هذا المنام فانه اضغاث احلام ، فلا بد لي من الحرب والصدام فاذهبي الى خيامك ولا تخافي ، فرجعت الى الخيام وتقدم دياب الى معركة الصدام

فوجد الدبيسي بانتظار ، فصالا وجالا في ساحة الميدان واخذا بالضرب والطعن حتى حيرا الاذهان ، فاختلف بين الاثنين ضربتان قاطعتان ، وكان السابق الامير دياب فأبطلها الدبيسي بمعرفته ثم هجم على دياب كسبع الغاب وطعنه بالرمح طعنة قوية فجاء الرمح في فخذه فسالت دماءه ويئس من الحياة ، وأراد الدبيسي ان يعجل فناه ، واذا بفارس من بني هلال قد اقبل كأنه قطعة من جبل وهو يهدر كالاسد ، فخلص دياب من يد الدبيسي واعاده الى المضارب ، ثم اقتحم الصفوف والمواكب ، وهو يصيح وينادي اتاكم ابو زيد ليث الاعادي ، وجعل ينخي بني هلال على الحرب والقتال فحملوا على جيش العدا من كل جانب ، فعند ذلك حملت العساكر على العساكر وتقاتلوا بالسيوف والخناجر وحمل الامير حسن بن سرحان وتبعه السادات والاعيان ، ولم تكن الا ساعة من الزمان حتى اشتدت الاهوال وتمددت الابطال على وجه الرمال وما زالوا في اشد قتال الى وقت الزوال، وكانت عساكر الدبيسي قد استظهرت في ذلك النهار وأسرت عشرين فارسا من بني هلال الاخيار من جملتهم الامير عرندس والرياشي ومفرج والهدار ، فلما شاهد حسن تلك الاهوال خاف على بني هلال من الهلاك والوبال فلما نزل في المضارب جمع قادة المواكب واخذ يستشيرهم بالقصد.

فرد عليه ابو زيد وفهم الامير حسن فحوى مرامه فاستحسنه مع جميع السادات . هذا ما كان من بني هلال واما الدبيسي فانه عند رجوعه من القتال ، كبرت نفسه واحضر الاسرى بين يديه وتهددهم بالقتل والدمار ، فوجدهم لا يبالون بالاخطار فأرسلهم الى الحبس بعد ان شفي منهم غليل النفس ، ولما اصبح الصباح واشرق بنوره ولاح ، برز القاضي بدير الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فبرز اليه فارس يقال له جاسر فحملا على بعضهما البعض وتجاولا في الطول والعرض وتضاربا بالسيوف وتطاعنا بالرماح ولم يزالا في حرب وطعن الى قرب الزوال .

وكان القاضي قد استظهر على جاسر وهجم عليه كالاسد الكاسر وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره ، فوقع على الارض يتخبط بعضه ببعض ثم هجم اخر فقتله وعجل من الدنيا مرتحله ، فعند ذلك دقت طبول الانفصال فرجع القاضي من معركة القتال فالتقته بنو هلال بالاكرام والاجلال وهنأته بالسلامة من الوبال ، وباتوا تلك الليلة الى ان اصبح الصباح فتواثبوا الى الحرب والكفاح ، فبرز من قوم الدبيسي فارس يقال له تميم، وطلب قتال الفرسان فبرز الامير عقيل وهو اخو ابو زيد ، فصدمه تميم صدمة جبار وأشار يقول شعرا ، فرد عليه عقيل ، ولما فرغ من شعره

حمل عليه واخذا في الصدام والعراك واشتبكا اشد اشتباك ، وما زالا على تلك الحال وهما في أشد قتال ، وكان عقيل قد استظهر على خصمه غاية الاستظهار ، فضربه على عنقه بالسيف البتار واذا براسه قد طار ، وكان له اخ اسمه ناصر فلما راى ما حل باخيه هجم على عقيل هجمة الاسود ، فالتقاه عقيل بقلب كالجبل والتحم بينهما القتال ، وكان عقيل يريد سرعة الانجاز فلاصقه وضايقه وضربه بالحسام على راسه فشقه ووقع على الفلاة وعدم الحياة ، وكان الوقت قريب الزوال فدقت طبول الانفصال ورجع عقيل الى بني هلال ، فالتقاه قومه بالكرامة وهنأوه بالسلامة وشكروه على فعاله وزادوا في اكرامه واجلاله ، واما الدبيسي بن مزيد فقد تنغص عيشه وتنكد . فاجتمعت الاكابر والعمد ودخلوا على اميرهم وتمثلوا بين يديه وقالوا الى متى هذا الحال ، فقد قتل منا عدة ابطال ، فجعل يوعدهم في الانتصار ، وثاني الايام برز الدبيسي الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فبرز اليه غنيم ابن مفلح ، وكان غلاما جميلا فقال له الدبيسي من تكون يا غلام حتى تبرز في معركة الصدام ، ثم صدمه بقوة واهتمام ، وما زالوا في قتال شديد فمد الدبيسي يده واقتلعه مثل العصفور وسلمه الى اصحابه فأوثقوه بالكتاف ، ثم صال الدبيسي وجال وطلب مبارزة الابطال ، فبرز اليه زيدان وصدمه بقلب اقوى من الصوان، فالتقاه الدبيسي كالاسد الغضبان واخذا يتضاربان ويتحاربان واستمرا على ذلك الشان نحو ثلاث ساعات ، ثم افترقا بالسلامة والامان ، وبينما كان الامير زيدان راجعا من الميدان ، ضرب الدبيسي حصانه فرماه على الارض، فانقضت عليه جموع الدبيسي فأخذوه وأوثقوه ، فهاج بنو هلال النساء والرجال واستعظموا تلك الاحوال وذهبت منهم جماعة من الاعيان الى عند ابي زيد فارس الفرسان ، فوقعوا عليه وطلبوا منه ان يسعى لتخليص الفرسان والابطال من الاسر والاعتقال ، فطيب قلوبهم ووعدهم بأنه سيبذل المجهود ، ثم انه غيَّر زيه وتنكر ولبس حلة من الحرير الاخضر ووضع طيلسانا على راسه حتى لم يعد يعرفه احد ، وقصد الملك الدبيسي ودعا له بالعز والانعام ، وكان كلامه معه باللغة الفارسية فلما رآه الدبيسي على تلك الصفة ظن بأنه من دراويش الاعجام فاحترمه غاية الاحترام وقال له : من اين اتيت يا ابن الاجواد ؟ قال من مدينة بغداد واني من فقراء عبد القادر رب الفضائل والمآثر ، فقال ادعو لنا يا درويش الاعجام بالنجاح والانتصار ، وان الله يرزقنا بأبي زيد الخادع الماكر حتى نقتله على رؤوس

الاشهاد ، لانه هو السبب في قدوم بني هلال الى هذه المنازل والاطلال فاذا استجاب الله طلبك بلغناك أربك ، فقال له الله يبلغك المرام بجاه مولاك عبد القادر وباقي الاولياء العظام ، وما دام كذلك اريد منك ان تأمر لي بالذهاب الى البلد حتى انام في جامع عبد الصمد ، فسمح له بالذهاب وامر الحجاب ان يفتحوا له الابواب .

وعند دخوله الى البلد قصد المكان الذي كانت مسجونة فيه فرسان بني هلال ، فوجد العبيد يطوفون من خلف وقدام ، فسلم عليهم فردوا السلام وقالوا من انت وما تريد ، فقال قد ارسلني الدبيسي لادعو له في جامع عبد الصمد ، بأن الله يبلغه المراد وينتصر على ابي زيد ، وانتم من تكونون ؟ فقالوا اننا الحراس نحافظ على اسرى بني هلال خوفا من الاعداء. ثم ان ابا زيد اخرج من جيبه شمعة مبنجة فأضاءها بعد فرك منخريه بضد البنج . فلما اشتعلت فاحت منها رائحة زكية ولم تكن الا برهة يسيرة حتى وقعت الحراس كالاموات من ذلك البنج . وبعد ذلك اخرج حجر المغناطيس ووضعه على الاقفال فتساقطت في الحال ، فرأى فرسان بني هلال في القيود والاغلال وهم يقاسون الاهوال ، فأعلمهم بالامر وفكهم من الاسر واعطاهم اسلحة الجماعة وقال لهم اتبعوني بعد ساعة ، فلما وصل الى الباب وجد الحراس جالسين وفي ايديهم السيوف والحراب فسلم عليهم فردوا عليه السلام ، وقاموا له على الاقدام واجلسوه بجانبهم ، وجعلوا يخاطبونه ويخاطبهم ، وكان يمد يديه الى جرابه ويأخذ قطعا من السكر ويأكلها امامهم فقالوا له ما هذا الذي تأكله يا شلبي ؟ فقال هذا ملبس حلبي فقالوا اطعمنا ونحن ندعو لك بالتوفيق والخير ، فأعطاهم قبضة كبيرة وكانت مبنجة فأكلوها فلما استقرت في بطونهم تبنجوا وفي تلك الساعة اقبلت الاسرى وخرجوا وجدوا في قطع البراري والبطاح ، فوصلوا لاهلهم عند الصباح فقامت الافراح وكثر الصياح ، وشكروا ابا زيد على تلك الفعال . واهل البلد حل عليهم الويل والنكد لما رأوا الحراس راقدين والاسرى مطلوقين ، ولما بلغ الدبيسي هذا الخبر طار من عينيه الشرر ، وتأكد عنده بعد التحقيق والتفتيش ان البلاء من ذلك الدرويش ، وما هو الا ابو زيد صاحب المكر والكيد ، ولكنه اخفى الكمد واظهر الجلد ، وزحف بالعساكر والابطال لقتال بني هلال ، وبرز للميدان وكان اول من برز الى الدبيسي سرور بن فايد فالتقاه الدبيسي بقلب كالصوان ، واخذه اسيرا ، وبرز اليه نعيم الزحلان وكان من صناديد الشجعان ، فأسره في الحال وما زال يأسر الفرسان والابطال حتى اسر خمسين فارسا من بني

هلال وفقد منها عدة ابطال وقد اشرفت على الوبال من هول القتال ، فلما كان اليوم الرابع هجم الدبيسي بجيوشه قاصدا قتال بني هلال وانطبق عليهم من اليمين والشمال وقاتلهم اشد قتال ، فكانت موقعة عظيمة لم يسمع بمثلها في الايام ، فكثر الصياح وجرى الدم وساح ، فما كنت ترى الا رؤوسا طائرة ودماء فائرة وفرسانا غائرة ودارت على بني هلال الدائرة، واستمر القتال على هذا المنوال حتى كثرت الاهوال على بني هلال فلم يعد لهم ثبات ، فتأخروا الى الوراء وقد قتل من الفريقين نحو عشرين الف بطل كرار ، ولما أظلم الظلام واجتمعت بنو هلال في الخيام وهم بحالة الذل والانكسار ، عقدوا ديوانا مع الامير حسن وطلبوا منه ان يمدهم برايه فأخذ يحمسهم بالمقال ويشجعهم على الحرب والقتال ، ثم قال من الواجب ان تركب الجازية مع العمارية ونحمل عليهم في الصباح بالكتائب والمواكب، والا حلت بنا النوائب ، فاشتدت عزائمهم على الحرب والصدام واجابوه على فرد لسان ، اننا سنقاتل نهار غد بالسيف والسنان ، حتى لا يبقى منا انسان ، ولما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح ، دقت طبول الحرب والكفاح ، فركبت العساكر وهجمت على عساكر الدبيسي بقلب كالحديد، والتقت الرجال بالرجال والابطال بالابطال واشتدت الاهوال وارتجت السهول والجبال وما زالوا على تلك الحال حتى تضعضعت من الدبيسي الأحوال ، فعند ذلك مالوا عليهم من اليمين والشمال وتفرقت جموعهم بين الروابي والتلال ، هذا والدبيسي ينخي الابطال ويقول انا الفارس المؤيد المدعو الدبيسي ابن مزيد ، فلا يبرز لي الا ابو زيد صاحب المكر والكيد الذي اتى الينا واحتال علينا ، فما أتم كلامه حتى صار ابو زيد امامه وصدمه صدمة تزعزع الجبال والتقيا في ساحة المجال ، واصطدما كأنهما بحران وتزاحما كأنهما اسدان حتى حان عليهما الحين وزعق فوق راسيهما غراب البين ، واستمرا على تلك الحال الى نصف النهار ، وأما ابو زيد فاستظهر على خصمه وضايقه وسد عليه طرقه وطرائقه وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره ، فوقع على الارض قتيلا ، ولما رات قومه ما حل به خافت من الهلاك والبوار فولوا طالبين الفرار ، وقصدوا المدينة وقد انقطع منهم الامل فتبعهم ابو زيد وبنو زحلان والامير دياب والامير حسن وباقي الفرسان ودخلوا المدينة وراءهم وضربوا فيهم بالسيف حتى جرت الدماء في الاسواق وبليت قدم الدبيسي بما لا يطاق ، وعلا بينهم الصياح والبكاء والنواح ، ثم هجمت بنو هلال على الحصون والقلاع وخلصوا اسراهم من الاعتقال ،

ورجعوا من ساحة القتال وثيابهم كشقائق الارجوان من ادمية الفرسان ، ونزلوا في المضارب والخيام وقد بلغوا غاية المرام ، فخلعوا الحديد ولبسوا الاطالس والحرير ودارت القهوة والشراب على الامراء والسادات . ثم نهض وزير الدبيسي همام واخذ مزيد بن الدبيسي وامه بدر ، وسار بهما عند الامير حسن فدخل وسلم عليه وبكى وطلب منه العفو والامان وان يعاملهما بالطيب والاحسان ، ثم تقدمت الاميرة بدر هي والامير مزيد والوزير همام الى الامير حسن وقالوا له العفو يا ملك الزمان ، فقد نصحنا الدبيسي وحذرناه من عواقب الامور فلم يسمع كلامنا الى ان نفذ به الامر المقدر ، فأجابهم الى ما طلبوا واكرمهم غاية الاكرام وخلع عليهم الخلع الفاخرة ونادى بالامان وزالت الاكدار والاحزان . وكان مزيد خاطب ابنة عمه هند وكانت من النساء المحسنات ، فأعلم الوزير الامير حسن بذلك وطلب منه ان يزفها عليه فأجابه الى ذلك ، وفي الحال ذبحوا النوق والاغنام ودارت الافراح سبعة ايام ، وبعد تمام الافراح ولى الامير حسن مزيد مكان ابيه على تلك البلاد ، وطاعته جميع العباد لانه كان يحب العدل والانصاف ويكره الجور والاسراف ، وبعد تمام العرس أمر الامير حسن بهد المضارب والخيام وجمع المكاسب والاغنام وبالرحيل الى بلاد الغرب ، فاجتمعت الفرسان من كل جانب ومكان فركب الامير دياب والقاضي بدير وزيدان شيخ الشباب ، بستين الف من الشبان وركبت الجازية مع البنات وحينئذ ركبت الفرسان ظهور الخيول وانتشرت البيارق وكانت الفرسان تهوج وتموج مثل ايام يأجوج ومأجوج ، وجدوا في قطع البراري والقفار والسهول والاوعار ، يوصلون سير الليل بسير النهار ، حتى وصلوا الى بلاد الاعجام، فنزلوا في مرج واسع كثير المياه فنصبوا المضارب والخيام .

حرب بني هلال مع الأعجام وسبي المارية

(قال الراوي) وكان الحاكم على بلاد الاعجام في تلك الايام سبعة ملوك عظام وهم خرمند وعلي شاه والصنصيل والقمقام والمغل وبندر والنعمان ، ولما نزلت بنو هلال في ذلك المكان اطلقوا مواشيهم في المراعي فأكلت العشب والاشجار والبساتين والاثمار ، وبعد ان اخذوا الراحة وامنوا نوائب الزمان ، رجع الامير حسن والقاضي بدير الى نجد مع بعض الاجناد لتحديد

البلاد ، وبرجوع الامير حسن والقاضي بدير الى نجد ، اجتمعت ملـــوك الاعجام عند الخرمند ، وجعلوا يتداولون في امر نزول بني هلال في ذلك البر فقال الخرمند : اعلموا ايها السادات ان بني هلال قدموا البلاد ، وهم كل يوم في ازدياد فقال الراي عندنا ان نبادرهم بالقتال ونسبي حريمهم والعيال وننهب نوقهم والجمال قبل ان تكثر جموعهم وتصل اذيتهم الينا. وكان الملك النعمان حاضرا في الديوان ، فصعب عليه ذلك الامر لان اصله من بلاد العرب ، فقال للملك الخرمند ان كان لا بد من حرب بني هلال طمعا بالغنائم والاموال فارسل اطلب منهم عشر المال ، فان امتثلوا امرك تكون قد بلغت منهم المرغوب ، وان امتنعوا عنه فحينئذ تبادرهم بالقتال وتنهب اموالهم وتطفي آثارهم ، فلما سمع منه هذا الخطاب رآه عين الصواب ، فكتب الى بني هلال يطلب منهم عشر المال او يرحلوا من بلاده ، ثم طـــوى الكتاب وأعطاه للنجاب وامره ان يسير الى بني هلال ويدفع الكتاب الى نائب السلطان ، ويرجع اليه من غير توان ، فامتثل النجاب امره وسار حتى وصل تلك الديار ، فدخل على ابي زيد واعطاه الكتاب وطلب منه الجواب، فلما فتحه وقراه مزقه ورماه وكتب الى الخرمند يهدده بقصيدة شعرية.

ولما وقف الخرمند على هذا الشعر والنظام ، صار الضياء في عينيه كالظلام ، وقال هل يبلغ من قدر بني هلال ان يخاطبوني بمثل هذا المقال وانا ملك العجم ، وذكري في جميع الامم ؟! ثم انه استدعى قواد العساكر ومن يعتمد عليهم في الحروب والمخاطر ، وأمرهم ان يستعدوا للقتـــال ويجهزوا الفرسان والابطال ، فاجتمع خمسمائة الف عنان ، وارسل الى بلاد خراسان تمده بالجيوش والعساكر . ثم ركب في ثاني الايام للحرب والصدام ، ولما بلغ ابو زيد هذا الخبر ركب في جموع بني هلال واشتبك بين الفريقين القتال ، فقتل من العرب والعجم من قتل ، الى ان مات غنيم البطل ، واخذوا مارية سبية ، فلما سمع ابو زيد هذا الخبر طار من عينيه الشرر ، فكتب الى الامير دياب يعلمه بواقعة الحال ويطلب منه المعونة في القتال ، وارسل الكتاب مع عشرة ابطال . فلما وصل الكتاب الى الامير دياب وقف على ما تضمنه من الخطاب فامتنع عن الحضور وقال هو أولى بحماية الجمهور ، فلما وقف ابو زيد على هذا الخطاب غاب عن الصواب وغضب من كلام دياب ، ثم كتب الى الامير حسن بن سرحان والقاضي بدير يعلمهم بما جرى بينه وبين الاعاجم .

فلما فرغ الامير ابو زيد من الكتاب سلمه للنجاب وأمره ان يجد في

مسيره الى بلاد نجد ويسلمه الى الامير حسن ويرجع بالجواب .

(قال الراوي) ومن الاتفاق الغريب ان القاضي بدير رأى تلك الليلة حلما هو انه كان قابضا على حمامة بيضاء واذا بعقاب اسود قد هبط من الجو فخطفها وطار ، فاستيقظ من المنام وهو في قلق عظيم وسار الى عند الامير حسن وقص عليه الرؤيا . فقال يا ابن العم ان هذا الحلم يدل على ضيق وغم ، وان ابنتك مارية قد خطفها الاعجام ، فلما سمع هذا الكلام صار الضيا في عينيه كالظلام وقال ما دام الامر كذلك فيجب ان نركب حالا ونجد في قطع القفار ونكشف خبر قومنا في تلك الديار ، فأجابه الامير حسن الى هذا المرام وركبا ومعهما فرسان الصدام قاصدين بني هلال، ولكنهما لم يصادفا النجاب الذي اخذ الكتاب ، وعند وصولهما بالعساكر والابطال الى اول نجوع بني هلال رأيا العبد سعيد ، فسأله القاضي عن الاحوال فقال لقد تغلب علينا الاعجام ، وسبوا المارية ، فقال القاضي خيبك الله على هذه البشارة . ثم مرا على الامير دياب فطلب منهما ان ينزلا عنده، فأبى حسن وقال له علامك يا امير ما ركبت مع ابي زيد على قتال الاعجام، اتسبى العيال وتنهب الجمال وانت جالس في الخيام بدون فكر ولا اهتمام؟! قال الذي منعني يا ملك الزمان هو الخوف من هجوم العدا الى هذا المكان فتنهب الاغنام ، ثم ركب دياب مع القاضي والامير حسن وركبت معه الابطال والفرسان ، وما زالوا يجدون السير حتى وصلوا عند ابي زيد ، فالتقاهم بالتعظيم والاحترام وذبح لهم الاغنام فامتنع الامير حسن عن الاكل وهو مغتاظ زعلان ، فسأله ابو زيد عن سبب ذلك فقال اني مغتاظ لفقد المارية من بين يديك فأجابه ابو زيد يقول :

يقول ابو زيد الهلالي سلامة	بدمع جرى من مقلة العين نابع
يا ابو علي اسمع كلامي وافهمه	وانت يا قاضي فكن لقولي سامع
اتونا بنو الاعجام من كل جانب	سبعة ملوك من غير التوابع
فصحنا عليهم هاجمين بقوة	قتلنا منهم الفين ما عدا التوابع
فكانت فتاة الحي مارية المها	غدت فعاد القوم فيها طوامع
جفل بكرها فيها وانا ما رايتها	وقلبي لاجل المارية عاد واجع
ونادت بعالي الصوت يا آل عامر	وتومي بأيديها وتلوي الاصابع
اتى نحوها المدعو غنيم بن مفلح	وقاتلهم بقلب شديد وسط المعامع
طعنه الملك صنصيل بالرمح صبابه	بحربة نورها كالشمس ساطع
وحال ظلام الليل بيني وبينهم	وعاد العجم بعد هذه الوقائع
وحق كلام الله والبيت والحجر	فلا بد لي من حربهم ان اسارع
ولا بد ان اجيب المارية	واهدم الكوفة وارتد راجع

فلما فرغ الامير ابو زيد من كلامه قال له الامير دياب ، والله يا ابا زيد لو كنت حاضرا قتال العجم ، ما كنت تركتهم يسبون المارية ويسطون على الحريم ، بل كنت قاتلت اشد قتال او اموت موت الابطال ، فلما سمع ابو زيد ذلك الكلام قال له صدقت يا امير دياب وبما انك قادر على كسر الاعجام فلماذا لم تحضر الى الميدان عندما ارسلت خلفك عشرة فرسان لتحارب معي الاعجام وحينئذ ترينا شجاعتك في معركة الصدام .

(قال الراوي) أما الاعجام فانهم لما رجعوا الى أوطانهم تنازع ملوكهم على المارية بنت القاضي بدير ، وكان كل واحد يريد ان يأخذها لنفسه وذلك لما فيها من الحسن والجمال والبهاء والكمال ، فاتفق رأيهم على اعطائها للشاه خرمند ، وانهم يركبون على بني هلال مرة ثانية وكل من يكسب امراة تكون له ، وفي ثاني يوم ركبت الاعجام على بني هلال فركب الامير حسن واستقبلهم في ساحة الميدان ، ما عدا ابو زيد ، فانه لم يركب معهم لقتال القوم وجعل نفسه مريضا في ذلك اليوم ، ولما نشب القتال وعظمت بين الفريقين الاهوال هجمت الاعجام على بني هلال مثل اسود الآجام ، وقاتلت اشد قتال وجعلت ترميهم بالنشاب وتطعنهم بالحراب ، فلما رأت بنو هلال تلك الاحوال وهجوم العجم عليها من اليمين والشمال ارتدوا الى الخلف وانهزموا ، وتبعهم فرسان العجم حتى دخلوا الى الخيام وبدأوا ينهبون البيوت ويسبون النساء والبنات ، فارتفع البكاء والنواح وزادوا في الصياح، فلما سمع ابو زيد عويل النساء والاصوات هجم مع الابطال والفرسان بالسيوف والرماح فالتقى بعسكر الاعجام وحكم برقابهم ضرب الحسام ، فردهم عن المال والحريم ، فارتدوا منهزمين الى الكوفة وقومه وراهم مثل الشواهين الى ان بلغ منهم المراد .وقتل عددا كثيرا من الاجناد ، ثم ارتد منتصرا فالتقاه الامير حسن وشكره على تلك الفعال وقال له مثلك تكون الابطال يا زينة الرجال فلولاك لكنا في اسوأ حال وصرنا معيرة بين سائر العربان على طول الزمان ، وكذلك القاضي بدير اثنى عليه وكان متأسفا على فقد ابنته مارية ، فقال له ابو زيد لا بد لي من خلاص ابنتك ايها القاضي الجليل واشفي من عساكر العجم الغليل ، ثم ان ابا زيد صبر الى وقت الظلام وتزيا بزي الاعجام وسار الى مدينة الكوفة وفي صحبته عبده ابو القمصان وبدر بن غانم ، وعند وصولهم اليها وجدوا ابوابها مغلقة فدار ابو زيد من جميع الجهات فلم يجد منفذا ، فبينما هو يتفرج ويتأمل راى دهليزا صغيرا فنزل فيه فأوصله الى البلد فترك رفيقيه بانتظاره ، واخذ يطوف من زقاق الى زقاق يجول بين الحارات والاسواق ، ويقف على

الاخبار ، وكان كلما نظر اليه انسان يكلمه في لغة الاعجام ، ورأى بناء عظيم البنيان ذا اربعة عمدان وفوقه قصر جميل الهندام من الرخـــــام وشبابيكه مصفحة من الذهب ، واذا به يسمع آلات الطرب ، فقال ابو زيد في نفسه هذا الملك خرمند لا محال لما عليه من الهيبة والجمـال ، ورأى شجرة من السرو واصلة اغصانها لشباك القصر ، فصعد عليها حتى وصل الى اغصانها ، ولما صار عند الشباك وجه نظره الى تلك الغرفة ، فوجدها من احسن الغرف مزينة بالفرش الفاخر ، ووجد سبعة ملوك من العجم جالسين على كراس من الذهب ومارية جالسة بينهم كانها القمر ، وكانت ملوك الاعجام تشرب المدام والمغاني تغني لهم بأنواع الانغام ، فقدم الخرمند الى ماريا كأسا وقال لها خذي واشربي يا بنت الكرام وغني حتى يزيــــد انشراحنا ويكمل سرورنا ، فامتنعت عن الشراب وزادت في البكــــاء والانتحاب ، فتأثر الملك النعمان ونهض من وسط الديوان ، وكان الملك خرمند متزوجا بابنته هند ، فقال دعوها ولا تكلموها فانها من بيت كبير وابوها قاض وأمير ، ولكن الغناء ليس فيه عيب ، ثم التمس منها ان تغني فلما سمعت هذا الكلام اشارت تغني قصيدة مطلعها :

تقول فتاة الحي مارية من المها — فنار الضنى والشوق يكوي ضميرها

(قال الراوي) فطربت ملوك الاعجام وشرب خرمند كأس المدام ، ثم اعطاه الى الساقي وقال له : املأ كأس المدام ناوله الى مارية بدر التمام حتى تفرح وتطرب ويزول عنها الحزن والكرب ، فخجلت ماريــــة وقالت للنعمان اني لا اشرب من هذا الشراب لانك تعلم ايها السيد بأن مشروبنا هو حليب النوق والغنم ولا نشرب غيره من المشروبات ، فان ذلك عندنا من اعظم العار . فاعتذر النعمان عنها الى خرمند وقال له اعفها من هذا الكأس لانها غير معتادة ، فتناول الخرمند الكأس وتذكر حسنها وجمالها وشربه حتى الثمالة ، اما الساقي فراح ينشد بدوره .

فلما فرغ من انشاده قال له الخرمند احسنت بما فعلت . فعند ذلك نهض النعمان وأراد ان يأخذ المارية الى بيته ، فاعترضه الصنصيل وقال اني كسوتها بالثياب الفاخرة والحلل الباهرة ، وانا احق بها من كل احد ، فقال له النعمان اني لا امكنك من ذلك حتى نرى كيف ينتهي الحال بيننا وبين بني هلال ، وانا من رايي ان نطلق سبيلها فتذهب الى اهلها خوفا من القيل والقال ، فقال الصنصيل هذا لا يكون وانا مرادي ان انشد الشعر وهي تجيبني عليه ولا نريد منها غير ذلك ، ثم اشار يقول :

قال الملك صنصيل يا مارية غني لي   وارفعي المنديل عن وجنتك الحمرا
يا مارية بحياتك قومي اشربي كاساتك   وبيني شاماتك وريقك زي الخمرا
قومي تعالي لقربي لاذوقك من شربي   وقربي لجنبي حتى تطيب السكرا
صنصيل قلل كلامك بنت العرب قدامك   غدا يصير هزامك من سباع القفرا
يا مارية ارتدي. برجالك لا تعتدي   بالحرب ما هم قدي غدا دمهم يجري
غدا يجيك سلامة اسمر طويل القامة   سيفه يزيل الهامة
في كل ضربة عشرا سلامي ذاك راحي   ان اتى لكفاحي اقتله فوق الصخرا
غدا يجيك الغالي امير بتخته عالي   حسن كبير هلالي قومه كموج البحر

قال الراوي وكانت جالسة اخت الملك خرمند ، وكان اسمها تاج بخت، فلما سمعت ان مارية هانت عمها الصنصيل في شعرها ، لطمتها بين عينيها فآلمتها وسال الدم من جبينها ، فلما شاهد ابو زيد تلك الحال غضب ولولا وجود الحديد بالشباك لدخل عليهم واورثهم الدمار واما الملك النعمان فانه استعظم الامر ونهض على الاقدام وسل بكفه الحسام وجعل يتوعد .

ولما فرغ النعمان من هذا الكلام وسمعته ملوك الاعجام ، خافوا من الشرور وعواقب الامور ، فقال خرمند للنعمان خذ مارية الى عندك هذه الليلة ، لانه يخشى من تواليها ، فمتى ظفرنا بهؤلاء العرب فحينئذ نبلغ منها الإرب ، فعند ذلك قال لها النعمان تعالي ايتها الاميرة الى بيتي ، فسارت معه ولم يعترض احد بكلام ، فلما شاهد ابو زيد أفعال النعمان شكره في قلبه وقال ان هذا الرجل يستحق كل جميل ، ثم نزل من اعلى الشجرة وتبع آثار النعمان حتى وصل الى منزله فسمعه يقول لابنته : خذي هذه الاميرة وافرشي لها غرفتك فانها من بيت شريف ، فترحبت بها واكرمتها ، ثم رجع النعمان ليصرف باقي ليلته عند الاعجام ، ورجع ابو زيد لبني هلال ، وعند وصوله الى الخيام سمع اصوات البكاء والنواح لانهم كانوا يظنون بانه مات ، فلما دخل على الامير حسن وسلم عليه ، فنهض وشكر الله على سلامته وكذلك فعلت باقي السادات ، وسأله القاضي بدير عن المارية ابنته فأجابه يقول :

يقول ابو زيد الهلالي سلامة   الايام والدنيا تسبب هوايل
وصلت الى حلة الاعجام بلابطا   فدرت ميامنها ودرت الشمايل
الى ان نظرت المارية في عيني   فقولي صحيح ليس فيه زلايل
في قصر خرمند يا قوم جالسة   ملوك العجم من حولها كالجمايل
والطاس داير والجنك والغنا   والنعمان بينهم وهو شهم فاضل
يمر عليها الكاس ما تذوقه   فتحسه مثل سم القواتل
فكانت تنادي الصوت يا آل عامر   وتضرب بايدها يمين وشمايل

فقام الملــك النعمان اتى بهـــا ... فخلصها منهـــم بضرب هائـــل
واخذها فـــي الحال الى دار بنته ... واوصى بها بنته وكـل الاهابـل
فان عانني الرحمن ربـــي اجيبها ... واهدم الكوفـــة ووحدي اقاتـل

(قال الراوي) فلما فرغ الامير ابو زيد من كلامه وسمع الحاضرون فحوى شعره ونظامه ، قال الامير حسن مرادي الان اكتب كتابا الى ملوك الاعجام واطلب من الخرمند ان يرسل المارية الان لانها عند الملك النعمان ، فمـــاذا تقول في ذلك ؟ فقال ابو زيد لا بأس ، فلعلهم يتأثرون من كتابك ويرسلونها، فعند ذلك كتب يقول :

قال الفتى حسن الهلالي ابو علـي ... النار في قلبي تهب وتشعـــل
يا ملك خرمند اسمـــع قصتـي ... ابعث لنـــا المارـيـــة ولا تتمهـل
انـــك ان ارسلتها لبيوتنـــا ... فترى العساكـــر ودياب ترحـل
حتـــى اذا خالفت فـــي ارسالها ... نهجم عليكم فـــي الصباح وتقتـل

فلما فرغ الامير حسن من هذا الشعر والنظام ، ارسله مع نجاب ليعطيه الى الملك ويأتيه بالجواب ، فامتثل حتى وصل الى الملك الخرمند وسلمه الكتاب ، ففتحه وقراه ولما عرف معناه مزقه في الحال وأمر العساكر ان تستعد للقتال ، وخرج بجيوش الاعجام لقتال بني هلال وكان نجاب السلطان حسن قد أوصل هذا الخبر لبني هلال ، فاستعدوا للحرب وفي اوائلهم الامير ابو زيد والامير دياب وغيرهم من الفرسان والتقوا بالاعجام ، قاتلوا اشد قتال وفعل ابو زيد افعالا تشيب الاطفال . ولله در الامير دياب ! فانه قاتل في ذلك اليوم حتى وصل الى الملك القمقام وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه ثم مال على القوم وقتل منهم عدة رجال .

فلما رأت عساكر الاعجام تلك الاحوال ارتدوا راجعين في تلك الصحراء وقطع دياب راس القمقام وسار به الى الامير حسن وباقي السادات والقاه امامهم فشكروه ثم رجع بنو هلال بالعز والانتصار ، وكان اول من برز الى القتال ابو زيد الفارس المفضال ، فبرز اليه الملك المنذر فالتقاه ابو زيـــد وانطبق عليه كسبع الآجام ، ولم تكن غير ساعة من الزمن حتى ضربه ابو زيد بالسيف على هامـــة قده نصفين فوقع على الارض يتخبط بعضه ببعض .

فبرز اخوه الامير بندر ليأخذ بثار اخيه فالتقاه ابو زيد بقلب كالحديد، ثم هجم عليه وضربه بالسيف فالحقه بأخيه ، فهجمت الاعجام فالتقتهم بنو هلال وحكمت فيهم ضرب السيوف ، وقتلت منهم عشرة آلاف من صناديد الابطال ، فانهزمت الى ورائها وفي اليوم الثاني دقت الاعجام طبولها وركبت

خيولها وبرزت الى القتال طالبة اخذ الثار فبرز الى الميدان الامير ابو زيد فبرز اليه المغل واخذا يتضاربان ويتطاعنان ، وكان المغل المذكور من افرس الفرسان قوي الجنان ، فقاتل ابو زيد اشد قتال وضربه ضربة صامدة فاستلقاها ابو زيد في الترس فقطعته نصفين ، ونزلت على رقبة الجواد فأبرتها كما يبري الكاتب القلم ، فوقع ابو زيد على الارض فأراد المغل ان يكمل عليه فبادر اليه الامير دياب وخلصه ، وفي الحال اتوه بجواد فركبه وهجم هو ودياب على صفوف الاعجام وتبعهم باقي ابطال بني هلال من اليمين والشمال ، وكانت موقعة مهولة قتل فيها خلايق كثيرة وكان من جملة المقتولين المغل وغيره من سادات العجم والمقدمين ، وانهزمت العجم اقبح هزيمة وثبت الملك الصنصيل وهو راكب على جواد فبرز اليه دياب وهو راكب على الخضرا ، فالتقاه الصنصيل واشتد بين الفارسين القتال وعظمت الاهوال ، وما زالا على تلك الحال الى وقت الظهر ، وكان الصنصيل قد اعتراه التعب فولى وطلب لنفسه الهرب ، فلما رات عساكر العجم بأن سيدها قد انهزم ، خافت من العواقب فارتدت الى الحلة فدخلت اليها واغلقت الابواب ، فجمع الملك خرمند ملوك قومه وقال لهم مرادي غدا ان اخرج الى قتال بني هلال فأريد ان تهجموا وتقاتلوا والا صرنا معيرة وفضيحة عند الملوك ، فوعدوه بأنهم سيبذلون غاية المجهود ويقاتلون قتال الاسود ، ولما اصبح الصباح ركب الملك خرمند وجيوشه وخرج يريد القتال فالتقاه في الحال جميع الفرسان والابطال وتقاتل الجمعان ، فالتقى ابو زيد بالملك الخرمند فتطاعنا بالرماح وبالسيوف ، وما زالا على تلك الحال من الصباح الى وقت الزوال ، ولم يقدر احد على خصمه فافترقا عن بعضهما البعض وبات كل فريق في ناحية من الارض . وفي الصباح برز الملك خرمند الى معركة الكفاح وطلب ان يبرز له السلطان حسن فبرز اليه السلطان حسن وقال له ايها الملك اذا اردت ان تنتهي الحرب بيننا فرد لنا المارية حتى ننهي الحرب ونرحل عن بلادكم في الحال ، فقال له كيف اسلمكم المارية وقد قتل اكثر ابطالنا من اجلها ، ولكن دونك والقتال وحمل عليه فالتقاه السلطان حسن بهمة وحمية واشتبك بينهما القتال ، وكان السلطان حسن ابرع من الخرمند ، فلاصقه وضايقه وضربه بالسيف على راسه شقه الى تكة لباسه ، فلما قتل الخرمند ولت الاعجام وطلبت الفرار ، فتبعتها بنو هلال وحكمت فيها السيوف ، فلما نظر الملك النعمان ما حل بالاعجام من الذل والهوان ، سار الى السلطان حسن وسلمه المفاتيح وطلب منه ان يكفوا عن القتال فأجابه الى طلبه ، وامر بوقف القتال فاجتمع الامراء عند

السلطان حسن ورحبوا بالملك النعمان ، فسار بهم الى الحلة وادخلهم الى قصر الخرمند فراوا به الشيء الكثير من التحف الثمينة ، فجمعها السلطان حسن ونقلها الى المضارب والخيام ، ثم دخلوا الى قصر النعمان فوجدوا فيه المارية معززة مكرمة فاخذوها باحتفال عظيم ، ثم نادى السلطان حسن بالاعجام وقال لهم لقد اقمت عليكم الملك النعمان وهو ملك عادل فاطيعوه ولا تخالفوه لانه نائبي في هذه البلاد وسيدفع لنا الجزية في كل عام ، فقالوا سمعا وطاعة ايها الملك العظيم .

قصة الملك الغضبان

(قال الراوي) كان حاكم بلاد التركمان رجل عظيم الشأن اسمه الغطريف ويلقب بالغضبان ، وله عدة وزراء واعوان ومن جملتهم الوزير النعمان ، وهو صاحب معرفة وتدبير وفي امور السياسة خبير ، وله ابن اخت وكان ولي عهده ونائبه نمر الجارح . وكان الملك الغضبان يركن اليه ، ولما وصلت جموع بني هلال وخيمت في تلك الاطلال وبلغ الغضبان هذا الخبر تطاير من عينيه الشرر ، فاجتمع بوزرائه وباقي الاعوان وعقد معهم مجلسا في هذا الشأن ، فقال له الوزير النعمان الراي عندي ان ترسل لملكهم تطلب منه المال ، فأجاب الملك ان ارسل الطلب بلغنا القصد والارب ، وان ابى وامتنع ركبنا عليه بكل فارس صميدع ، فننهب اموالهم ونسبي حريمهم وعيالهم ونقتل شبابهم ورجالهم ، فاستحسن الغضبان هذا الراي وكتب اليهم بمعناه.

ثم ختم الرسالة وسلمها الى عبده رشيد وامر ان يسير بدون امهال ويسلمها الى الامير حسن سيد بني هلال ، فامتثل امره وركب على ناقة وسار حتى أشرف الى نجع بني هلال ، فنزل من على ناقته ودخل على الامير حسن فسلم عليه وقبل يديه ثم ناوله الكتاب ووقف ينتظر الجواب . فلما فتحه وقراه واطلع على ما حواه انشغل باله وتغيرت احواله ، فقال له ابو زيد علامك يا امير حسن فاني اراك في غم وتكدير ، فناوله الكتاب فلما قرا الكتاب قال انا ارد الجواب .

ثم طوى الكتاب واعطاه الى الحاجب ، فأخذه وجد المسير حتى وصل الى مولاه واعطاه الكتاب فلما فتحه وعرف فحواه مزقه ورماه ، واغتاظ الغيظ الشديد ، وفي الحال امر ابن اخته ووزيره نمر الجارح وابن عمه

النعمان ، ان يجمعا العساكر والابطال لمحاربة بني هلال ، فدقت طبول الحرب واجتمعت العساكر من كل جهة ومكان ، وكانوا نحو مائة الف بطل فركبوا بالعجل وهم معتقلون بالسلاح وفي ايديهم الرماح ، وركب نمر الجارح في مقدمة العساكر وجدوا بالمسير قاصدين بني هلال ، فلما علمت بنو هلال بقدومهم ، استعدوا لحربهم فدقوا طبولهم بالعجل ، فاجتمع الفرسان ودخلوا على اميرهم حسن ، وهو جالس في الديوان واعلموه بما جرى فأمرهم ان يسيروا للقتال ، فركبوا وفي مقدمتهم الامير ابو زيد فالتقت العساكر ببعضها البعض ، وهجمت بنو هلال بقلوب كالصوان ، وانقضوا على عساكر الغضبان . فاشتد القتال وفعل ابو زيد في ذلك النهار فعالا تذكر على مدى الاعصار ، وكذلك فعل الامير دياب وباقي الفرسان ، فانهم ثبتوا وقاتلوا وما قصروا ، وكان الامير دياب قد التقى بالامير نمر الجارح وهو ينخي رجاله ، فتقدم دياب يريد قتاله ، فصدمه نمر في الحال بقلب اقوى من الصوان واشتد بينهما القتال ، وكان نمر قد طعن خصمه بالسنان وقال خذها من يد فارس الفرسان ، ففطس دياب تحت بطن الخضرا فأخطأته الضربة ، وهجم على خصمه هجوم القضاء المنزل وضربه بالدبوس على الخوذة فتألم وارتد راجعا الى الوراء وندم على ما جرى ، وفي الحال هجمت بنو هلال على الاعداء من اليمين والشمال واذاقوهم الاهوال وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وكان النهار قد مضى وزال واقبل الليل بالانسدال ، فانفصلت العساكر عن بعضها البعض ونزلت كل طائفة في ناحية من الارض .

ورجع الامير دياب من ساحة الميدان ودخل على الامير حسن وهو فرحان فالتقاه بالبشاشة والاكرام ، وقال له كيف وجدت خصمك نمر الجارح ، اجاب غدا اقصر عمره واكفيك شره ، فشكره على ذلك وباتوا على احسن حال ، اما عساكر الغضبان فانهم رجعوا من ساحة الميدان وهم في قلق واضطراب من قتال ابي زيد ودياب ، وكان نمر قد جمع الامراء والسادات واخذ يستشيرهم في امر الحرب عليه بطلب النجدة من عمه الملك الغضبان فاستصوب رايهم وفي الحال كتب الى خاله يعلمه بواقعة احواله ويطلب منه المعونة .

وطوى الكتاب وختمه وسلمه الى نجاب يقال له عقاب . فأخذه وجد في قطع البراري والقيعان حتى وصل الى الملك الغضبان . فدخل عليه وقبل الارض بين قدميه ، ثم ناوله الكتاب فلما فتحه وقراه ، اغتاظ وتأثر

وتطاير من عينيه الشرر ، واقسم انه لا بد ان يفني بني هلال ولا يبقي احدا منهم ، ثم امر بجمع العساكر والفرسان فركبت خيولها واعتقلت بسيوفها ونصولها ، وركب ايضا الضرغام اخو نمر ووزيره النعمان وقصدوا بني هلال بقلوب كالجبال، وجدوا في البراري وكان عدد الفرسان خمسمائة الف عنان . هذا ما كان من هؤلاء ، واما ما كان من نمر الجارح فانه بعد ايفاد لرسول لخاله ، ركب في ثاني الايام بجميع فرسانه وأبطاله ، وتقدم نحو بني هلال فتقابل الفريقان في ساحة الميدان ، وتقدم الامير نمر الى معركة الطعان فالتقاه الامير دياب ، وهجم عليه كليث الغاب واشتبك بينهما الحرب واخذا في الطعن والضرب ، فلله درهما من بطلين وفارسين عظيمين ! اما دياب فكان أشجع من نمر واقدر واعلم منه بمواقع الطعن ، واخيرا طعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره ، فوقع على الارض قتيلا وايقن قومه بالهلاك والدمار ، وطلبوا الهزيمة والفرار ، وتبعتهم بنو هلال وقتلوا منهم عددا كثيرا ، وبينما هم سائرون وفي الفلاة مشتتون ، اذا بغبار قد ظهر عليهم ومن خلفه الجيوش والعساكر ، فلما اقتربوا منهم وتأملوهم فاذا هم عساكر الغضبان ، وكانوا قد حضروا لمعونة نمر فلما رأت العساكر المنهزمة ملكها الغضبان ، تقدموا اليه وقبلوا يديه ، واعلموه بما حل فيهم من المصائب ، وكيف ان بني هلال قتلت نمر الجارح ، فلما سمع الملك الغضبان منهم هذا الكلام خرج عن دائرة الصواب فشخر ونخر وطغى وتجبر ، وقال وحق ديني ومعبودي لا بد من قتال بني هلال والتقتها بنو هلال تتقدمها السادات والاعيان ، والامير حسن بن سرحان ، واشتبك الطعان بين الفرسان والتقى الضرغام بالامير حسن وهو ينخي العساكر ، فالتقاه الامير بقلب اقوى من الصوان واخذا يتضاربان نحو ساعة من الزمان ، وكان الامير حسن قد طعن ضرغام قاصدا ان يسقيه كأس الحمام فاختفى تحت بطن الجواد فراحت خائبة ، ثم اعتلى الضرغام على ظهر حصانه وطعن الامير حسن فالتقاه بترس البولاد ، وما زالا في عراك وصدام الى ان دقت طبول الانفصال ، ورجعت العساكر من ساحة القتال ، وفي الصباح ركبت الفرسان ظهور الخيول وتقدمت الى ساحة الميدان ، فتقدم الامير ضرغام وطلب المبارزة والصدام ، فبرز اليه الامير عقل وهجم عليه بقلب شديد ، فالتقاه بقوة واخذا في الحرب فاشتد بينهما القتال مدة اربع ساعات ، وكان الامير عقل قد استظهر على خصمه وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره ، فوقع الضرغام قتيلا وفي دماه جديلا ، فلما نظر الغضبان ما جرى استعظم الامر وهجم على عقل وطعنه بالرمح ليعدمه الحياة فخلى منها

عقل فراحت خائبة ، وما زالا في قتال الى قرب الزوال ، فرجعت بنو هلال في السرور والافراح ، وعساكر الغضبان بالهم والاتراح ، واخذوا جثة الضرغام واقاموا عليها النواح ثم كفنوه ودفنوه ، ولما اصبح الصباح ركبت بنو هلال للحرب والكفاح ، فالتقتها الاعداء وصاح الغضبان اين الشجعان اين جبابرة الضرب والطعان ؟ فما اتم كلامه حتى صار الامير دياب امامه وصدمه صدمة ترتعد منها قلوب الفرسان ، فالتقاه الغضبان وضربه بالسيف فالتقاه دياب بدرعة البولاد فانكسر السيف فأعطاه قومه غيره .

واشتد بينهما الحرب والكفاح الى ان اختلف بين الاثنين ضربتـــان قاطعتان وكان السابق الملك الغضبان ، وقال له خذها من يد فارس الميدان وليث المعارك والطعان ، فغطس دياب تحت بطن الخضرا راحت الضربـــة خائبة ، وما زالوا على ذلك وهم في اشد حرب الى قرب المساء ، فدقت طبول الانفصال فرجعت الفرسان من ساحة الميدان وباتوا يتحارسون تحت مشيئة الرحمن ، وعند الصباح برز الغضبان الى ساحـــة الكفاح وطلب مبارزة الفرسان فبرز اليه ابو زيد ليث الميدان . واقتتلا طول النهار وفعلا أفعالا تذهل الابصار ، ثم افترقا على سلام الى المضارب والخيام ، واستمر القتال بين عساكر الغضبان وبني هلال ستة عشر يوما وقد قتل من عسكر الغضبان عشرون الف فارس ومن بني هلال خمسة آلاف ، ثم استعدت العساكر للقتال فدقت طبول الحرب وتقدمت الفرسان للطعن والضرب ، فبرز الى الميدان الملك الغضبان وقال هل من مبارز هل من مناجز ؟ فلا يبرز لي كسلان ولا عاجز اليوم يوم الهزاهز ، فما اتم كلامه حتى صار ابو زيد قدامه فالتقاه الغضبان بقلب شديد واخذ معه في عراك وصدام .

فلما راى ابو زيد قوة حربه تأخر عنه فعند ذلك صاح الغضبان علـى الفرسان بالهجوم على بني هلال . وكانت بنو هلال قد قصرت في القتال ، فتأخرت الى الوراء وعساكر الغضبان تتبعهم في تلك الصحراء وبعدهـــا اجتمع ابو زيد بسادات بني هلال وقال لهم قد ساءت احوالنا وفقدت ابطالنا ورجالنا فما هو رأيكم ايها الاعيان في قتل الملك الغضبان ؟ فقالوا الراي عندك يا امير فما فينا من يخالفك ، فقال الراي عندي نكون اربع فـــرق ونهجم على الاعداء من اربع جهات نسد عليهم جميع الطرقات ، وتكـــون الجازية في اول العماريات مع باقي النساء والبنات واهجم انا من جهـة الشمال والامير زيدان والامير حسن والقاضي بدير من بقية الجهات بباقي الابطال ، ونقاتلهم اشد قتال والا حل بنا الوبال ، فاستصوبوا رايه لانهم راوه عين الصواب .

ولما اصبح الصباح ركبت الفرسان للحرب والكفاح وانقسمت بنو هلال ربع فرق ، وكان السابق بفرقته الامير دياب فصاح على الفرسان وحكم سيفه بالرقاب وتبعه اخوه زيدان بكل الفرسان بقلوب اقوى من الصوان ، وجندلوا الابطال في ساحة الميدان ، ولما راى الفضبان ما حل بقومه من الهوان استعظم ذلك الشان فجعل ينخي الابطال وتقدم بنفسه وقد هانت عليه المنية وضرب فيهم بالحسام وتبعه الفرسان من خلف وقدام ، فثبت الشجاع وفر الجبان ، واذا بجيوش وعساكر الامير حسن بن سرحان راكب ببني دريد وأبو زيد ببني زحلان والقاضي بدير بباقي الرجال والشجعان، ومن حوله السادات بالبيارق والرايات ، فهجموا على عساكر الفضبان من كل جهة ومكان ، واشتد قلب دياب بقدوم القوم وامل بالنصر فقاتل اشد قتال ، وهكذا فعلت بنو هلال وكان يوما شديدا لم يسمع مثله في سالف الاجيال ، وكان الملك الفضبان قد برز الى الامير دياب وهو غائب عن الصواب ، ودياب يدور حوله مثل الدولاب وهو ثابت على الحرب والجلاد كانه طود من الاطواد ، فعند ذلك تقدم الامير حسن والامير ابو زيد وهجموا هجمة رجل واحد على الفضبان وبهذه الفعال هان على دياب القتال ، فقوم السنان وقال له خذ هذه الطعنة من يد الامير دياب وطعنه بالرمح في صدره . وتحمس دياب ومال على الابطال ففرقها على اليمين والشمال ، وتبعه بنو زغبي الشجعان وبنو زحلان وهجموا على عساكر الفضبان بقلب اقوى من الصوان ، وكانت عساكر الفضبان لما رات ملكها قد مات حلت بها الآفات وضعفت عزيمتها وايقنت بالهلاك والبوار فولوا الادبار الى الهزيمة والفرار ، فتبعتهم فرسان بني هلال وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وكسبوا غنائم ذات قدر وقيمة ، وكانوا قد تبعوهم الى البلد ونهبوا الاموال وسبوا الحريم والعيال ، وبعد ذلك رجعوا الى الخيام ثم حضر ابن الملك الفضبان ، وكان اسمه عبد المدان ، الى عند الامير حسن بن سرحان وبمعيته الاكابر والاعيان ، وطلبوا منه الامان فأجابهم الى ذلك الشأن وعاملهم باللطف والاحسان ، وبعد ذلك ولوا الامير عبد الميدان حاكما على تلك الاوطان مكان ابيه ، وقامت بنو هلال في الاوطان خمسة ايام ثم دقت طبول الحرب الى الارتحال ، حتى وصلوا الى بلاد العراق ولما وصلوا اليها وجدوا ان الحاكم على تلك البلاد رجل من الاجواد قد اتصف بالجود والكرم والفضائل ، يقال له الخفاجي عامر ، يحكم على البصرة وبغداد والموصل والعراق ، وكان عنده من الابطال والفرسان نحو مائتي الف عنان . فبينما هو جالس في الديوان وحوله الوزراء والاعيان ، اذ دخلت عليه الرعيان وقالوا له اعلم يا ملك

الزمان ان بني هلال قد دخلت ديارنا واكلت ثمار بساتيننا ، وقد هربت من امامهم الرعيان وتركت النوق والفصلان . فلما سمع الخفاجي هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام ، والتفت الى الامراء وقال لهم ما قولكم في بني هلال ؟ فعند ذلك تقدم الوزير عميرة واشار عليه مشورة .

(قال الراوي) فلما فرغ الوزير من الكلام قال الخفاجي هذا هو الصواب والامر الذي لا يعاب ، ثم كتب الى الامير حسن يطلب عشر المال والنوق والجمال والبنات الابكار ، وطوى الكتاب وختمه واعطاه لوزيره سلام ليأخذه الى حسن ، فأخذه وجد حتى وصل الى نجوع بني هلال ، فدخل على الامير حسن وناوله الكتاب ، فلما قراه وعرف فحواه اغتاظ من ذلك التهديد وخاف من عواقب الامور ثم انه امر بأخذ الوزير الى دار الضيافة ثم قال ما الرأي والشور ايها السادة ؟ قالوا الراي عندك فافعل ما تريد .

فقال مرادي ان ارسل له كتابا ينطوي على المودة وانتظر الجواب فقال الجميع هذا هو الصواب ، فعند ذلك كتب الامير حسن شعرا واعطاه الى الوزير سلام فأخذه وسار حتى اشرف على الخفاجي عامر ، فأعطاه الكتاب ففتحه وقراه وعرف فحواه ، وراح يرحب بهم اجمل ترحيب ، وكذلك شكره الامير حسن ، فلما فرغ الامير حسن من كلامه ، انشرح خاطر الخفاجي عامر وتقدم بعده الامير درغام واشار يترحب ببني هلال ، ثم ركبت بنو هلال مطاياهم والخفاجي عامر ودخلوا البلد في فرح وسرور ، وتفرقت عرب بني هلال في تلك الاراضي وأما الامير حسن والسادات فبقوا عند الخفاجي عامر على اكل طعام وشرب دام مدة ثلاثة شهور وهم على احسن حال ، فاتفق في بعض الايام ان الخفاجي أولم وليمة عظيمة دعى اليها الامير حسن وسادات بني هلال ، وحضرتها النساء والبنات فاكلوا ولذوا وطربوا ودارت كاسات المدام على من حضر في ذلك المقام ، وكانت البنات والنساء الحراير يشربن على اسم الخفاجي عامر ، وكانت الجازية بديعة الجمال فصيحة المقال تقدمت الى الخفاجي تصف له محاسن بنات بني هلال وما خصهن الله به من اللطف والكمال والظرف والجمال وأشارت تقول :

تقول فتاة الحي ام محمد	ونيران قلبي زايدات اشعال
ان الامارا يا أمير بناتهم	مثل الظبا في الحسن والاشكال
اما جمال الطعن بنت سلامة	الوجه منها مثل بدر قد مال
وبنت ابو موسى دياب الماجد	فعيونها يا امير كعين غزال
وبنت قاضينا بدير الفايد	تشبه غزالا بالفلاة جفال
وبنت سلطان البوادي ابو علي	شبيهة البدر في بهاه وكمال

انظر لحسني يا امير فانني اجمل والطف من نساء هلال

فلما فرغت الجازية من هذا الوصف شكرها الخفاجي على شعرها ونظامها ثم نهض الامير حسن وشكر الخفاجي على ذلك الاكرام وقال له : اريد من افضالك ان تشرفني غدا بجميع رجالك لاجل اكل الطعام وشرب المدام ، فأجابه الى ذلك فأولم الامير حسن وليمة عظيمة ذبح فيها الف راس من الاغنام فكانت اعظم الولايم لم يسمع مثلها في الاعارب والاعاجم ، حضر فيها الخفاجي عامر وقومه وسادات العشائر وجلسوا على مائدة الطعام ودارت بينهم كاسات المدام فطربت الامراء والسادات فعند ذلك بدا الامير حسن والخفاجي يتبادلان التحية من جديد ، ولما فرغ الخفاجي من الكلام امر حسن بالرحيل فقال الخفاجي لا بد من مسيري معكم الى تونس ، فلما سمع ابوه الضرغام منه هذا الكلام لم يهن عليه ذلك الامر ، لانه ليس له صبر على فراقه ساعة واحدة ، فلم يقبل الخفاجي وطلب من ابنته وزوجته ان يذهبا معه الى تلك الديار ويتركا الحي ، فامتنعتا عن المسير وبكتا بدمع غزير ثم تقدمت ابنته ذؤابة وأشارت تنهيه عن السفر وتقول :

تقول ذؤابة يا ابي لا تسافر فتترك الاهل في عنا ومصاب
فما لك يا امير في الغرب حاجة ولا لك بها مال ولا اسباب
ولا ثار لك عند الزناتي خليفة ولا دم لك ايضا ولا اصحاب
فكيف تشتتنا وتطلب بعادنا ونبقى ضايعين في عنا وحساب
وتبقى الهلاليين مجموع شملهم ونحن بلا أهل ولا اصحاب

وبعد ذلك حضرت سادات العشائر لوداع الخفاجي عامر ، فودعوه بالبكاء والنواح ، ودعوا له بالتوفيق والنجاح ، ثم أمر الامير حسن بدق طبل الرحيل ، فعند ذلك هدت المضارب وركب الفرسان ظهور النجايب ، واعتقلوا بالسيوف والنصول وركبت النساء والبنات في الهوادج وأمام الجميع زوجة الخفاجي وابنته والجازية ونساء الامراء والسادات وكان الخفاجي من أفرح البشر في هذا السفر .

قصة التمرلنك

(قال الراوي) لما قتلت بنو هلال ملوك العجم وكان الخرمند صهر التمرلنك يحكم على بلاد الموصل فلما قتل الخرمند ارسلت زهرة لابيها

كتابا واعلمته بقتل زوجها الخرمند فلما سمع التمرلنك ذلك الكلام طلع الى الديوان وهو غضبان واخبر وزيره اسكندر بمقتل خرمند . قال يا ملك الزمان ارسل للبلاد واجمع العساكر ودعنا نلاقي بني هلال فأمره التمرلنك ان يأخذ معه مائتي الف مقاتل وقال له سر بالعساكر وكونوا رجالا ، فسار الوزير اسكندر بالعساكر الى ان وصل الى مكان يقال له القصر فوجد فيه تجارا آتين من بلاد العجم ، فسألهم من اين اتيتم والى اين متجهون ؟ فقالوا اتينا من بلاد العجم الى هذا المكان فاستدعى كبير التجار وكان اسمه كمال الدين وقال له ماذا سمعت عن بني هلال ؟ فقال قد قتلوا الملوك وخربوا الكوفة وقتلوا الوزير وابن عمه ورفقته وكل الفوارس ، ونهبوا الاموال وسبوا النساء وهم راحلين الى الغرب .

(قال الراوي) فلما فرغ كبير التجار من كلامه والوزير يسمع نظامه قال الوزير لقومه الرأي ان نرسل مائتي فارس الى بلاد الرها يكشفون لنا الخبر، ونحن نبقى هنا حتى يأتي الملك ، واذا قال لماذا ذهبتم ، نخبره بانه اتانا علم بأن بني هلال نازلون في بلد جاكدة ، ونحن ارسلنا لهم روادا يكشفون لنا خبرهم وبقينا ننتظرهم ، فقالوا هذا هو الراي الصواب ، أما التمرلنك فانه بعث المكاتيب الى جميع البلاد فحضرت العساكر فاذا هي اربع كرات ومعهم المدافع ، واحضر ابن اخته شروان وقال له احكم موضعي حتى احضر لك وطفا بنت دياب ، فقال له على الراس والعين ، ثم انه سار بالعساكر والجيوش يقطع البراري والقفار والسهول والاوعار ، حتى وصلوا الى بلاد الفرقس التي نازل فيها الوزير اسكندر ، فلما وصل الملك لاقاه الوزير وسلم عليه ، فقال له علامك ما لحقت بقوم هلال ، فحكى له ما صار فعند ذلك غضب الملك وامر بقتله ، فتشفع به ملوك العجم من القتل فصفح عنه ، ثم انهم ساروا الى ان وصلوا لراس العين ونزلوا في ذلك المكان . اما ما جرى لبني هلال فان الامير حسن راى مناما هائلا ، فلما اصبح الصباح استدعى الامراء وراح يخبرهم بالمنام .

فلما فرغ حسن من كلامه قالوا لا حول ولا قوة الا بالله ، فأحضر ابو زيد كتاب الرمل وتفسير الاحلام وضرب تخت الرمل ورسم الاشكال على شرح الحال فراى الاهوال فبكى بكاء شديدا .

فلما فرغ ابو زيد من كلامه قال لهم كونوا على حذر من الاعادي ، وباتوا الى الصباح حتى صار وقت الضحى فما اقبل عليهم احد ، فقال ابو زيد يا امير دياب أعزل من قومك الفا ومن بني زغبة الفا ومن عرب القاضي الفا ومن قوم حسن الفا ومن بني هلال اثني عشر الفا ، وتسلمهم الظعن

وتجعلهم اربع فرق من كل فرقة اربعة آلاف فارس ، فرجع دياب ولم الظعن وفعل مثل ما قال له ابو زيد ، واجتمع الامراء عند الامير حسن فقال لهم ما هو رايكم ؟ قالوا الراي انك ترسل كتابا للتمرلنك ، واذا بالامير دياب راى رجالا آتين من ناحية بلاد التمرلنك فمسكهم وأتى بهم للامير حسن ، فقال ما هذا يا دياب ؟ قال لقيتهم في البرية فقال الامير حسن انا اكتب كتابا للتمرلنك وارسله مع واحد منهم ثم اشار يرسل الى التمرلنك .

طوى الكتاب وختمه واعطاه الى الذين جلبهم دياب ، وقال لهم اعطوه الى التمرلنك ، فأخذوه وساروا حتى دخلوا عليه وأعطوه الكتاب اخذه وقراه وعرف رموزه ومعناه ، وقال مرادي اطلب منهم عشر المال والخيل والجمال والبنات الحسان وفي الحال اشار يكتب .

ثم طوى الكتاب وختمه وكان عنده عبد اسمه الماس لكنه كان شديد البأس صعب المراس ، فقال يا الماس خذ هذا الكتاب الى حسن بن سرحان امير العربان ، وقل له يرسل لنا نصف مال بني هلال والنصف الاخر له بخشيش ، فأخذ العبد الكتاب وسار حتى وصل الى عند الامير حسن فدخل وقبل يديه وأعطاه الكتاب ، فأخذه وقراه وعرض رموزه ومعناه وقال الى قومه ما رايكم ايها الامراء ؟ فتقدم الامير ابو زيد واشار يرسل له الجواب ويقول :

يقول ابو زيد الهلالي سلامة	ولي دمع جرى فوق الخدود سكيبها
من اجل كتاب قد أفاض مدامعي	وعدت اقاسي من كلامه نحيبها
فترسل تريد المال منا غصيبة	وبنات هلال اليك نسيبها
ونحن رجال الحرب في يوم غارة	بيوم يعود الدم يجري سكيبها
فكم من ملوك كبار شتت شملهم	وراحوا من سيفي يقاسوا لهيبها
انا أعلمك عن آل قيس وعامر	وآل زغبي خلاني أجيبها
ان طعتني أرحل بقومك يا فتى	نحن سباع الفلا ثم ذيبها
من قبل ما تعلق بكم نار حربنا	مغرور ان كنت تقدر تصيبها

فلما فرغ ابو زيد من كلامه طوى الكتاب وختمه واعطاه الى العبد ، فأخذه الى التمرلنك ودخل عليه واعطاه الكتاب فأخذه وقراه ، وعرف رموزه ومعناه وغضب غضبا شديدا وزاد به الغم والتنكيد ، ثم استدعى بالوزير اسكندر وقال ان العربان لم يعطونا حسب طلبنا ، وحياة راسي لاحصدهم حصدا واشردهم بالبراري ، قال له الوزير دعني اكتب الجواب الى الامير ابي زيد فقال الملك لا يلزم الجواب وغدا نصلي عليهم نار الحرب ونسقيهم كأس الكرب ، وثاني يوم ركب الامير ابو زيد واشرف على القوم رآهم مقبلين مثل الجراد المنتشر ما لهم اول من اخر فرجع واخبر بني

هلال بهذه الابيات :

قال ابو زيـــد الهلالي سلامـــة   يا حسن جئتنا العجم تمشي سريع
يا ملك جانـــا التمرلنك قاصدا   مـــن فوق أشقر يا امير تليـع
والخيل مـــن خلفه جراد زاحـف   دوارع وسيـــوف تلمع لميـــع
عشر ملوك كبار غـــير صغارهـم   والتمرلنك فـي قومه جانا سريع
أيا دياب اركب وانهض عاجـــل   واجعل الاعاجـم ان يغدوا قطيع

(قال الراوي) وهم بالكلام واذا بالعجم اقبلت مثل الجراد ، فركب بنو هلال ولاقوا الاعاجم ، ثم انهم وقفوا مقابل بعضهم البعض فنزل وزير من وزراء التمرلنك الى الميدان اسمه دخان ، عرض وبان وطلب الفرسان وصاح على بني هلال ، هل من مبارز هل من مناجـــز ؟ لا يبرز لي كسلان ولا عاجز فما في حومة الميدان الا الوزير دخان ، فما اتم كلامه حتى صـــار القاضي بدير قدامه وصدمه صدمة هائلة ، فقال له من تكون من الفرسان حتى جئت تهاجم الوزير ؟ فقال انا قاضي العربان ثم التقى البطلان كانهما جبلان وافترقا كأنهما مركبان ، وثار الغبار حتى سد الاقطار وقدحت حوافر الخيل نار ، فزعق القاضي في وجه دخان صوتا مثل الرعد القاصف ، ثم ضربه بالرمح فأخذها بالترس البولاد . راح ضرب القاضي خائبا فارتد الوزير وضرب القاضي بالسيف فشطب على رقبة الجواد فبراها كما يبري الكاتب القلم ، فأراد ان يكمل عليه فأدركه الرياشي ، واركبوه جوادا والتقت الرجال بالرجال وجرى الدم وسال الى وقت الزوال، دقت طبول الانفصال وكل عاد الى حيه ، ولما اصبح الصباح دقوا طبول الحرب والكفاح وركب التمرلنك بقومه ، وركب بنو هلال وخرجوا الى حومة الميدان واصطفوا ، فبرز الوزير دخان الىحومة الميدان ونادى على الفرسان فبرز لهالامير دياب.

والتقى البطلان كأنهما جبلان وحان عليهما الحين وغنى على راسيهما غراب البين، وضرب دخان ديابا بالسيف اخذها بترس البولاد راحت خائبة، ثم ان ديابا انحدف على دخان وكان معلم الخضرة اذا صار فيه الفارس وكان من ورائه تضربه الخضرة بالجوز ، فلما انحدف على دخان واراد ان يضربه ، برم دخان من وراء دياب يريد ان يضربه ، واذا بالخضرا ضربته بالجوز رمته هو والجواد على الارض ، فنزل له دياب وشد كتافه واخذه اسيرا الى ان وصل لعند الامير حسن ، فقال هذا دخان الذي قتل جواد خالي القاضي بدير وقتل من بني هلال ستة عشر فارسا ، قال حسن والله هذا بطل لا اسمح فيه ان يقتل ثم امر بخلعة سنية ولبسها الى دخان وقال له عليك الامان ان رحت عند التمرلنك مع السلامة وان بقيت عندنا حلت البركة ، فقال الوزير يا ملك الزمان اذا رحت الى عند التمرلنك ما اعود

اقدر انزل اليكم وان ما نزلت اليكم يقتلني التمرلنك ، والآن انا بقيت منكم فقال حلت البركة ، فقال يا ملك الزمان لي ولد عند التمرلنك فقال دياب ابشر انا اجيب لك اياه ، فبقي دخان عند بني هلال ، ولما اصبح الصباح ركبوا وركب ابن دخان وكان اسمه سكران فنزل الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فنزل اليه دياب وقال له من انت ؟ فقال انا سكران ابن الوزير دخان وانت اسرت ابي ، قال دياب واليوم الحقك به ثم التقى البطلان كأنهما جبلان وافترقا كأنهما مركبان ، وحان عليهما الحين وغنى على راسيهما غراب البين ، ودياب لا يريد ان يقتله اكراما لابيه ، فداما على ذلك الحال الى ان امسى المساء ، دقت طبول الانفصال فافترقا عن بعضهما وكل منهما طلب اهله ، وباتا الى الصباح فنزلا للحرب والكفاح وتجاولا في الميدان من الصباح الى المساء فقال دياب والى متى وانا اطول روحي ، وسحب الدبوس وضرب به سكران أرماه ونزل اليه وشده وعاد به الى ابنه الوزير دخان ، فأخبره بما اكرمه به السلطان ففرح سكران بأبيه وبقيا عند بني هلال ، وفي الصباح دقوا طبول الحرب والكفاح ونزلوا الى الميدان فبرز وزير للتمرلنك اسمه شاهين ، فنزل له طوي بن مالك والتقى البطلان كأنهما جبلان حتى تعب منهما الزندان ، ولم يزالا على تلك الحال من الصبح الى العصر ، فعندها قام طوي في عزم الركاب وضرب شاهين بعود القنا اخذها بترس البولاد راحت خايبة ، ثم قام شاهين في عزم الركاب وضربه ومن عظم الضربة وقع شاهين من على ظهر الجواد الى الارض فضربه بالسيف على هامه القى راسه قدامه ، فلما رات الاعجام شاهين قتيل ، هجموا على العرب وهجمت العرب على الاعاجم والتحم القومان في بعضهم البعض ، ولم يزالوا على تلك الحال الى ان دقت طبول الانفصال ، فرجعوا الى استحكاماتهم وفي الصباح اصطفت العساكر وبرز ابو زيد الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فنزل اليه اسكندر وزير التمرلنك فصدمه ابو زيد صدمة هائلة فتلقاه اسكندر وانشد يقول :

قال ابو سرحان اسكندر انني قرم غضنفر راس فرساني وعسكر
دوم في الجهات عابس انني قرم غشمشم من يعاديني سيندم

فلما فرغ اسكندر من كلامه وابو زيد يسمع نظامه اشار يرد عليه :

قال ابو زيد الهلالي فارس يوم المجال عادته قتل الرجال
يوم وقعات الصدام جاك ابو زيد المسمى من لقاكم ما يهما
ضربتي والسن سما سمها يهري العظام

كما قتلت ملوك أكابر وزرا ايضا عساكر ، يا اسكندر قوم بادر

والتقيني بالصدام .

فلما فرغ الامير ابو زيد من كلامه والوزير اسكندر يسمع نظامه ، التقى البطلان كأنهما جبلان وحان عليهما الحين وغنى على رأسيهما غراب البين ، ولم يزالا على تلك الحال الى وقت العصر حتى كلت منهما الزنود ، فعندها قام الوزير في عزم الركاب وضرب ابا زيد بالسيف فأخذها بدرعه البولاد راحت خائبة ، ثم ان الامير ابو زيد هجم عليه كأنه السبع الكاسر وضربه بالقرضاب على عنقه فقتله ، عند ذلك حملت العجم على العرب والعرب على العجم ، وانحطت من الاعداء الهمم ولله در ابو زيد ودياب وباقي الشباب بما قاموا به من الجهاد والنضال ! وما فرق بينهم الا الظلام ، عندها دقت طبول الانفصال فافترقوا عن الحرب والقتال وقد قتل من العجم خلق كثير ، وفي الصباح دقوا طبول الحرب والكفاح واصطف الفريقان فبرز التمرلنك الى الميدان ، فلما رأى بنو هلال التمرلنك تعجبوا من همته وهو كأنه البرج الحصين ، فقال حسن يا ابا زيد ماذا تقول في هذا الفارس ، فقال ابو زيد العلم عند الله انه عفريت من عفاريت سليمان فقال حسن نادوا الى دخان لربما يعرفه ، فنادوا له فحضر فقال حسن يا دخان من يكون هذا الفارس الذي في الميدان ؟ فقال له هذا التمرلنك فقال حسن من ينزل اليه فقال دياب انا انزل اليه وعلى الله الاتكال ، ثم نزل الى الميدان وصدم تمرلنك فالتقاه وقال من تكون من الفرسان ؟ قال انا دياب حداف الرقاب ، فلما سمع التمرلنك هذا الكلام انطبق عليه والتقى البطلان كأنهما جبلان والتطما كأنهما بحران ، ولم يزالا على تلك الحال الى المساء . دقت طبول الانفصال ورجعا عن القتال ، وفي الصباح دقوا طبول الحرب والكفاح فنزل التمرلنك الى الميدان وطلب الفرسان ، فتقدم اليه فارس من بني زغبة فضربه التمرلنك طير راسه ، ثم نزل ثاني قتله وثالث جندله ورابع ما أمهله حتى قتل منهم عشرين فارسا ، وامسى المساء فدقت طبول الانفصال فرجع كل فريق الى حيه فقال الامير حسن ما رأيك يا ابا زيد ؟ فقال ابو زيد الذي تريده يصير فقال حسن مرادي ان ارسل الى التمرلنك كتابا لكي يترك القتال ، فقال ابو زيد اكتب فكتب حسن الى التمرلنك يقول :

يقول الفتى حسن الهلالي ابو علي	بدمع جرى فوق الخدود سكاب
نعم ايها الغادي على متن ضامر	تشابه نسيم الريح مثل شهاب
اذا جيت للتمرلنك لمغ رسالتي	ابا ريت عمره ما يشوف تكاب
وقل له قال الامير ابو علي	امير ابن امير من فروع انساب
الا يا ملك اسمع مقالي وقصتي	وافهم كلامي لا تزيد عتاب
فان طعتني اسلم بروحك وعزوتك	وفز بنفسك من ملوك اعراب

من قبل ما تعلق بكـم نار حربنـا   وتوقـــع بأوشم شومهـا وانكاب

فلما فرغ حسن من كلامه طوى التحرير وختمه واعطاه الى عبده ، فاخذه وسار الى التمرلنك واعطاه التحرير ، فقراه فغضب غضبا شديدا وسحب السيف وضرب العبد طير راسه ، وقال لقومه غدا يكون اخر ايام بني هلال ، فوصل الخبر للامير حسن فغضب غضبا شديدا ، وشاور الامير ابو زيد على هذا الامر فأجابه هاتوا لنا ثمانين الف جمل وحملوها ترابا ناعما ، ويركب مع الجمال ثمانون اميرا والعبيد تسوقها من الوراء ونركب نحن والله يعطي النصر لمن يشاء ، فاعتمدوا على هذا الراي ولما أصبـح الصباح ركب الامير ابو زيد بقومه التسعين الفا والقاضي بقومه والامير دياب بقومه ، والامير حسن بقومه ومشوا الجمال بعدما حملوها ترابا ، وقال ابو زيد للذي مع الجمال اذا انكسرتم تعالوا صوبنا ، ثم انهم دقوا النوبـات وطلبوا اللقا والثبات ، فلما سمع التمرلنك صوت الطبول دق طبله وركب بقومه ، فهجمت الاعاجم بالمدافع وكان عددها خمسمائة مدفع ، فعندها لكزت بنو هلال الجمال على المدافع فجفلت من صوت المدافع ، وكثر الصياح من وراء الجمال والعبيد تمكهم بالرماح وفزروا عدول التراب وهب الهواء وثار العجاج والغبار حتى عميت الابصار ، فركضت الجمال وداست الاعاجم وخيلها ، وحينئذ هجمت الاعراب الاسود وطعنوا الصدور والكبود ، فلما نظر التمرلنك الى ما صار في قومه اراد الهرب ، واذا بالامير صبرا ابن ابو زيد عارضه في الطريق وصاح به ، الى اين يا ابن الف قرنين فالتقاه التمرلنك بقلب مثل الصخر ، وتجاولا في الميدان وتكسرت بينهما العيدان ثم هجم التمرلنك على الامير صبرا هجمة الاسود وحمله على راحة زنده فتعلق صبرا بخصمه وسحب الخنجر وطعن به التمرلنك ، واذا بالامـير حسن أدركه وفي يده السيف ونزل وقطع رأس التمرلنك فعندها مالت العرب على العجم وما سلم منهم الا كل طويل عمر ، وفاتوا على خزائـن التمرلنك وغنموا الاموال وفرقها الامير حسن على العرب واحضر قـوم التمرلنك والوزير دخان وجعله ملكا عليهم ومن بعدها ارتاحت العساكر من الحرب والصدام واقاموا عدة ايام ورحلوا الى ارض حلب .

قصة الخزاعي والملك بدريس بحلب

وكان حاكم حلب يقال له الملك بدريس ، وكان صاحب مال وخيـل

وابطال ، فوصل له خبر بني هلال انها امحلت ارضهم وما فعلوا في الملوك الذين حاربوهم وكيف ان الخفاجي عامر اضافهم وسافر معهم ، فلما سمع هذا الكلام جمع اكابر قومه فقال وزيره الخزاعي علامك يا ملك جمعت القوم والفرسان ؟ فأجابه اريد ان اخبركم عن بني هلال وما فعلوا قبل ان يدخلوا بلادنا ويقتلوا ابطالنا ورجالنا ، واذا لم نعمل تدبيرا وقعنا في امر عسير فقال الخزاعي الراي عندي ان ترسل لهم روادا الى ارض الكبيسة ، يرودها ويعرف كم يكون معهم من العساكر والابطال ويعود بالحال ، حتى نحضر رجالنا لاجل حربهم وقتالهم ، قال هذا هو الراي الحميد ، ثم استدعى برجل يسمى سابق وقال له مرادي منك ان تذهب وترود لنا بني هلال تنظر قومهم والفرسان وترجع لنا بالخبر الشافي ، فقال سمعا وطاعة ، وركب ناقة عشارية وصار يقطع الفيافي والقفار ، حتى اشرف على نجوع بني هلال فرآهم بعدد الرمال واذا بالامير ابي زيد آتيا من الصيد فلما رآه عرف انه رواد ، فقال له انت آت الى بني هلال لتخبر مولاك بدريس عن أحوالنا ، فأجابه اصبت في ظنك وما عاد شيء مخبأ عنك ولكن قل لي عن اسمك حتى اعرفك ، فقال له انا ابو زيد ، فقال له يا امير اعطني الامان حتى احكي لك السبب ، فقال لك الامان والف مرحبا بك ، انت ضيفي ، عندها اشار سابق يقول شعرا .

فلما فرغ ابو زيد من كلامه وسابق يسمع نظامه ، اطرق الى الارض فقال ابو زيد انت اليوم ضيفي قم بنا الى المنزل ، فسار معه الى بيته واكرمه غاية الاكرام ثم قال قم بنا يا سابق الى عند الامير حسن نواجهك فيه ، فأجاب اخاف ان يقتلني ، فقال له لا تخف بكفالتي فقام واخذه معه وسار لعند الامير حسن فدخل ابو زيد وسلم فردوا عليه السلام ، وجلسا فقال له حسن من اين ضيفك يا امير ابا زيد ؟ فقال له من حلب فسأله عما تريد ، فعندها ناداه حسن فقام سابق وقبل يديه فقال له : حسن ، من اين انت آت والى اين ذاهب ؟ فحكى له قصته على التمام ثم اقام عند ابي زيد عدة ايام وبعدها طلب اذنا للسفر ، فأذن له واعطاه مائة دينار ، فسار وما هو مصدق بالنجاة الى ان وصل الى سيده ووزيره واشار يقول شعرا بدوره .

فلما فرغ سابق من كلامه والملك يسمع نظامه ، تغيرت منه الاحوال من عظم هذه الاقوال ، ثم قال ما رأيكم ايها الناس الاعيان هل نبادرهم بالحرب ام ندعهم يجوزوا بلادنا بالامان ؟ فقالوا يا ملك الزمان نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك ، والذي ترى فيه الصواب افعله ، فقال الوزير أرى

ان ننتظر حتى يصلوا الينا ونكون قد جمعنا قومنا وابطالنا حتى اذا ما وقع بيننا وبينهم القتال ، نشيلهم على اسنة الرماح وننهب مالهم ونسبي عيالهم ، فقال الملك هذا هو الراي الموافق ثم انه بعث بالامر الى جميع عماله بان يحضروا حالا بالفرسان والابطال ، وما مضى الا قليل من الايام حتى غصت حلب الشهباء بالعساكر فسر الملك بهم وامر القادة ان يكونوا دائما متيقظين لقدوم بني هلال . اما بنو هلال فانهم لم يزالوا سائرين حتى وصلوا الى مكان قريب من حلب ، فنزلوا فيه وامتدوا في نواحيه واكلوا الاثمار من الاشجار وشربوا المياه ، فهربت الاهالي والسكان واعلموا الملك بدريس بهذا الشأن فصاح الملك : عليهم ايها الابطال فقال له الوزير اطلب منهم عشر المال والنوق والجمال فان اجابوا هذا الطلب كان غاية المراد وان امتنعوا بادرهم بالقتال ، فاستصوب الملك هذا المقال وكتب .

فلما فرغ بدريس من شعره ونظامه طوى الكتاب وختمه وارسله مع نجاب الى بني هلال فدخل نجاب على الامير حسن وقبل يديه ثم سلمه الكتاب وطلب الجواب ، فلما قراه وفهم فحواه تغيرت منه الاحوال ولكنه اخفى الكمد واظهر الصبر والجلد ، وامر بأن يأخذوا الساعي الى دار الضيافة فأخذوه وبعد ذلك التفت الامير حسن الى السادات والرجال واعلمهم بما كتب بدريس .

عندئذ قال ابو زيد : يا ابن عمي ليس لبدريس غير ضرب السيف واما دياب فصار الشرر يتطاير من عينيه وعوارضه ترقص في وجهه وقال : علي في بدريس والخزاعي وحدي فعند ذلك اشار القاضي بدير يرد له الجواب ثم اعطاه للنجاب فأخذه وسار حتى وصل الى الملك بدريس فناوله اياه ، فلما قراه اسودت الدنيا في عينيه ثم امر بجمع العساكر والابطال . فامتثلوا امره وجمعوا مائتي الف بطل فركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالرماح والنصول وركب الخزاعي بهذا الجيش الكثير وساروا لاستقبال بني هلال قبل وصولهم الى الاطلال ، فلما التقى الجمعان للقتال برز الخزاعي الى ساحة الميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز اليه الامير دياب فالتقاه الخزاعي بقلب كالحديد وصدمه صدمة الفرسان الصناديد وانشد يهدده .

فلما فرغ دياب من شعره التحم البطلان في القتال ، وما زالا في كر وفر وطعن وضرب من الصباح الى وقت الظهر وكان الخزاعي قد ضاقت به الخيل فطعن خصمه بالرمح فانقلب دياب تحت الفرس ، فراحت الطعنة خايبة فعند ذلك استوى على ظهر الخضرا وضرب الخزاعي بالسيف ،

فالتقاه بدرعة البولاد فوقعت على رقبة الجواد ، فوقع الوزير على الارض ، واذا بقومه ادركوه وخلصوه ، فلما راى دياب هجوم الفرسان والابطال صاح في بني زغبة وامرهم بالهجوم والقتال ، فهجموا عليهم ومكنوا الصوارم في رقابهم وما زال دياب وراهم في الطلب حتى اوصلهم الى مدينة حلب . فدخلوا المدينة واغلقوا الابواب ورجع دياب وقصد حسن في الصيوان وسلم عليه فقبله حسن بين عينيه وشكره ، فاخبره بما جرى في ذلك اليوم وقال لا بد للملك بدريس ان يقصدنا باكرا ويخرج الى ميدان القتال فاذيقه الوبال واستخلص منه الغنائم والاموال .

هذا ما كان من بني هلال واما الخزاعي فانه رجع الى حلب وهو في حالة العناء والكرب ، ودخل على الملك بدريس واعلمه بما جرى في ذلك اليوم وكيف قتلت الرجال وفقدت الاموال وظفر بهم بنو هلال ، فلما سمع منه هذا المقال اعتراه الانذهال وخرج عن دائرة الاعتدال ، وبات بدريس على غير هدى ولما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح ، امر بخروج الابطال للحرب والنضال فاستعدت في الحال وركب بأول العسكر كأنه الاسد الغضنفر ، وخفقت على راسه الرايات وحوله الوزراء والسادات ، فلما علمت بنو هلال بقدوم الملك بدريس للقتال استعدت للنضال وركب الامير حسن في الفرسان والابطال فاصطفت الصفوف وترتبت المئات والالوف ، وبرز الملك بدريس الى ساحة الميدان بقلب اقوى من الصوان طالبا مبارزة الفرسان وقال لا يبرز لي سوى الامير حسن بن سرحان ، فما أتم كلامه حتى صار الامير حسن امامه وصدمه صدمة تزعزع الجبال فأنشد بدريس يقول :

قال الفتى بدريس الهمام الماجد ... اسمع كلامي يا حسن يا قايد
لا بد لي من قتل كل رجالكم ... في حد سيفي يا امير القلايد
واقتل ابو زيد الامير سلامة ... ودياب والقاضي بدير الفايد
قال الملك بدريس هذا يومكم ... يا من يودع قومه ويعاود
رد الفتى حسن الهلالي ابو علي ... نيران قلبي زايدات وقايد
لا بد من قتلك ونهب اموالك ... مع قتل أبطالك وكل معاند
لو ان قومك الف الف ومثلهم ... لا بد ان يبقوا الجميع فقايد
قومي انا تسعين الف ومثلهم ... تسعين في تسعين الف ماجد
فيهم ابو زيد الامير سلامة ... ودياب والقاضي بدير الفايد
هلا رايت دياب طرد جموعكم ... وكسر عساكركم بغير مساعد

(قال الراوي) فلما فرغ بدريس من كلامه وفهم الامير حسن فحوى شعره ونظامه زاد حمقه وعظم غيظه فحمل عليه كأنه قلة من القلل او قطعة فصلت من جبل فالتقاه بدريس في الحال واشتبك بينهما القتال وعظمت

الاهوال ، وكانا تارة يتقدمان وتارة يتاخران كانهما اسدان كاسران وبحران زاخران ، وما زالا يتجاولان في ساحة الميدان حتى كلت منهما الزندان وتعجب من قتالهما الفرسان ، وقد اختلف بينهما طعنتان وكان السابق بدريس فراحت خايبة بعد ان كانت صايبة فارتد اليه حسن وهجم عليـــه وضربه بالسيف فاستتر في طارقة البولاد فبرى السيف رقبة الجواد فوقع على الارض ، فادركه قومه في الحال وخطفوه من ساحة المجال واركبوه على جواد ، واشتبك القتال وتضاربوا بالسيوف والرماح وما زالوا على تلك الحال وهم في اشد قتال الى وقت الزوال فدقت طبول الانفصال فرجعت بنو هلال الى المضارب والخيام وهم منصورون ، واما بدريس فانه رجع غضبان كثير الهموم وقد خاف من العواقب وحلول المصائب ، وفي الحال كتب الرسائل وارسلها الى ولاة المدن بارسال المؤن والسلاح والعساكر لقتال بني هلال الاوغاد ، وان يحملوا عليهم من اربع اركان المجال فلما وصلت هذه الرسائل والاخبار الى ولاة الاقطار فأفشلوا امره في الحال ، وجمعوا الفرسان والابطال وقصدوا بني هلال من حدود البحر الاسود في جمع كبير العدد وكان بنو هلال بأفراح وهم يؤملون الفوز والنجاح ، واذا بالمواكب والكتائب اقبلت عليهم واحاطت بهم من اربع جهات الميدان وهم كعدد الرمل، فهجموا عليهم وسبوا النساء والبنات فعلت الضجـــات والصيحات ، وتضايقت بنو هلال وايقنوا بالهلاك والدمار وقاتلوا قتالا يذهل الابصـــار والقوا نفوسهم على الاخطار وما زال الحرب يعمل والدم يبذل والرجـــال تقتل حتى صار وقت الزوال ، فدقت طبول الانفصال فافترقت العساكر عن بعضها ، وبات بدريس في سرور على ذلك الانتصار وبات بنو هلال في اسوأ حال مما اصابهم من الذل والوبال ، ولما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح جمع بدريس اكابر دولته وارباب ديوانه وقال لهم ، اعلموا ايها الرجال ان بني هلال قد تضعضعت منهم الاحوال ، ومرادي ان اطلب منهم عشر المال فان ابوا وامتنعوا نقاتلهم ونستخلص منهم المال بالقوة ونبليهم بالويـل والدمار ، فلما سمع الخزاعي واكابر الديوان هذا الكلام قالوا افعل مـــا تريد ايها الملك الهمام فعند ذلك كتب كتابا وسلمه الى نجاب وامره ان يسلمه الى الامير حسن سيد بني هلال ، فامتثل امره وسار يجد في قطع القفار حتى وصل الى بني هلال ، فدخل على الامير حسن وسلمه الكتاب وطلب منه الجواب ، فلما فتحه وقراه انشغل باله وتضعضعت احواله ، وامر ان يأخذوا النجاب الى دار الضيافة ثم التفت الى سادات الرجال وقال لهم ما قولكم ايها الاماجد ؟

قال الراي السديد عند ابي زيد الفارس الصنديد ، فلما سمع ابو زيد هذا الكلام قال ارى ان نكتب الى بدريس نوعده بارسال المال بعد عشرة ايام بشرط ان يرفع عنا القتال ، ومتى مضى الوقت نرحل بالليل من هـذه الاطلال ، ولا يعلم بنا حتى نكون قد قطعنا مسافة طويلة ، فاذا لحقنـــا بالعسكر نبادر بالقتال ونسقيه كاس الوبال ، ونملك مدينة حلب ونبلـــغ القصد والارب ، فاستحسن الحاضرون هذا الخطاب فعند ذلك اشار حسن في كتاب بذلك وختمه وسلمه الى النجاب . فأخذه وسار حتى وصل الى حلب فدخل على الملك بدريس وناوله الكتاب فلما قراه فرح فرحا شديدا وقال لقد بلغنا المراد ونلنا مسرة الفؤاد ، ثم انه امر الرجال ان تهيىء المخازن في الحال لوضع الاموال التي ستأتيه من بني هلال ، وان تفرش القصور والحارات برسم البنات المخدرات ، فامتثلوا امره وزالت عنه الهمـــوم والاحزان وكتب الى الامير حسن يعطيه الامان ويأذن للعرب بالدخول الى حلب وذلك على سبيل البيع والشراء وهذه صورة الكتاب .

ثم انه طواه وسلمه الى النجاب ، وامره ان يسير الى بني هلال ويسلم الكتاب للامير حسن ويأتيه بالجواب ، فامتثل الامر وسار ، فدخل على الامير حسن فسلمه الكتاب . فلما قراه وفهم فحواه فرح فرحا شديدا واكرم النجاب وارسل معه الجواب وهو يتضمن على كلام لطيف ويشكـر بدريس ، ثم ابتدات العرب بالدخول الى مدينة حلب يشترون من اهلها البضائع الثمينة ويبيعونهم من المكاسب التي اكتسبوها من البلاد والمدن، وما زالوا على تلك الحال الى ان مضت تسعة ايام من المدة ، فعند ذلك اجتمع الامير حسن بالامراء والسادات وقال لهم هذا هو اليوم التاسع فما هو رايكم ايها السادات ؟ فقال ابو زيد نركب ظهور الخيل ونسير في ظلام هذا الليل ، وان لا يذهب احد منا الى حلب خوفا من بدريس ان يعلم بواقعة الحال فيقبض عليه، فاستحسنوا هذا الخطاب وراوه عين الصواب، وفي الحال ارسل الامير حسن مناديا ينادي بين جموع العربان ان لا يذهب احد منهم الى حلب . اما الملك بدريس فانه صبر الى اليوم العاشر ، ولما بلغه بأنه لم يدخل احد الى البلد من العرب ، تكدر بعد الفرح والسرور وخاف من عواقب الامور ، فأرسل بعض الجواسيس ليكشف له الاخبار وكان اسمه المحتال ، فغير زيه وتنكر حتى لا يعرفه احد ، واخذ حمارا وحمله من المنقولات والعطريات وجد في قطع الفلوات قاصدا بني هلال، ولما وصل اليهم بدأ ينادي ويقول يا معشر العرب معي ملبس وزبيب وفستق وكرابيج حلب ، فمن اكل وشرب حصل له السرور والطرب ومعي ايضا

العطر والطيب الذي يصلح لكل حبيب ، ثم حانت منه التفاتة الى الوراء فلم ير اثرا للحمار ، فقال لقد نفقت بضاعتنا مع الحمار . ولما وصل الى صيوان الامير حسن جعل يتجسس الاخبار ، فوجد عنده جماعة من الامراء وهم يتداولون في امر المسير ، فعرف ان قصدهم الرحيل تحت ستور الظلام، فرجع على الاثر واعلم بدريس بذلك الخبر فعظم عليه وتكدر فقال لقد خدعنا بنو هلال بالمكر والاحتيال ، فما رايكم الان في هذا الشأن ؟ فقال الوزير ، الراي يا ملك الزمان ان اسير بالمراكب والكتائب واكمن لبني هلال في سهل سراقب لانه لا بد لهم من العبور في ذلك المكان ثم انت تدركني بباقي الابطال والفرسان ونبادرهم بالحرب والصدام ونبلغ منهم القصد والمرام ، فاستصوب بدريس هذا الكلام فعند ذلك ركب الوزير بالعساكر وقصد سهل سراقب وكمن لبني هلال . وكان الملك بدريس قد كتب الى ولاة المدن والبلدان يطلب منهم ان ينجدوه بالابطال والفرسان ، فأرسلوا له مائتي الف بطل فدقت الطبول ونفخت الزمور وتقلدت الرجال بالرماح والنصول وعلت الفرسان ظهور الخيول وساروا بالعساكر قاصدين ذلك المكان .

وأما ما كان من بني هلال فانهم لما اظلم الظلام امر ابو زيد العرب ان تضرم النار امام المضارب والخيام حتى لا يشعر بهم احد من الانام ، وان تركب الحريم والعيال على ظهور الهوادج امام الابطال ، ففعلوا كما امر وتجهزوا للسفر وسار الخفاجي عامر بخمسة آلاف من الفرسان مع البنات والنسوان خوفا من نكبات الزمان وطوارق الحدثان ، حتى وصل بالقرب من سراقب ، وعند وصوله الى ذلك المكان ادركه الخزاعي بالابطال والشجعان وهجم عليه من كل جانب ومكان ، فخاف الخفاجي عامر على الحريم والعيال ، فهجم ومن معه على الاعداء بقلوب كالجبال ، وفي الحال انتصب القتال وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال ، وكان الخفاجي من اشد فرسان الصدام ، فبذل في الحرب غاية المجهود غير ان عساكر الاعداء كانت اكثر فانصبت عليه القوات من سائر الجهات فظفر الخزاعي بعد قتال شديد واسر عددا من البنات ، فبينما كان الخفاجي في اشد الاهوال ، اذا بفرسان بني هلال قد اقبلت وامامها الامير ابو زيد ليث الميدان وكان قد بلغه الخبر ما حصل الى الخفاجي ، فغار بالفرسان والابطال حتى ادرك بني هلال وهجم الى ساحة المجال وتبعته العساكر والجنود وقاتلوا قتال الاسود ، وبعد معركة عظيمة ومذبحة جسيمة خلصوا البنات والنسوان من الاسر والهوان واذا بغبار من خلفهم قد ظهر وانكشف للابصار وبان عن عسكر

جرار كعدد رمل البحار ، وكان عسكر بدريس ملك حلب قد حضر لقتال بني هلال ، فبادرهم للقتال من اليمين واليسار فانتشب القتال وعظمت الاهوال واستمر القتال الى وقت الزوال ، فعند ذلك دقت طبول الانفصال، فانفصلت العساكر في كل ناحية وكان في قلب بدريس لبني هلال نـــار الاشتعال لعدم اعطائهم المال وما بدا منهم من الفعال وبات في قلق عظيم وغم جسيم .

(قال الراوي) ولما اصبح الصباح ، دقت طبول الحرب والكفاح ، فركب الفرسان ظهور الخيول واعتقلت بالرماح والنصول فاصطفت الصفوف وبرز الخزاعي وقال لا يبرز لي سوى ابي زيد المحتال ، فما اتم كلامه حتى صار ابو زيد امامه وصدمه صدمة تزعزع الجبال فالتقاه الخزاعي بقلب كالصوان وانشد يقول :

قال الخزاعـــي فالحرب مـــرادي ... اما مريـــع الخيل يوم طـــرادي
اليوم يابو زيـــد انني جمعكـــم ... فانتـــم غاية مقصدي ومـــرادي
اقتـــل حسن اميركـــم بمهنـــدي ... واقتـــل عرندس والامير حمـــاد
واقتل دياب الخيل من حاز المـــلا ... وآخذ الخضرا بضرب جـــلادي
واليض آخذها واقتل كل مـــن ... يوم الوغى عنـــد البنـــات ينادي
وآخذ الحمرا رغما يـــا فتـــى ... مـــن بعد طعـــن يشيب الاولاد
واجعل نساكم خادمات نسائنـــا ... طول الزمان وما لهن مـــن عـــاد

فلما انتهى الخزاعي من شعره ونظامه اجابه ابو زيد يقول :

قد قال ابو زيد الهلالي سلامـــي ... اليوم تبصر يـــا خزاعي طـــرادي
اليـــوم تبصر فارسا ذا همـــة ... وعزيمة اقـــوى مـــن البـــولاد
شهدت لنا بحروبنـــا كـــل الورى ... يا اخبث الـــوزراء والاوغـــاد
اليـــوم تبصر فارسا ذو همـــة ... وعزيمـــة اقـــوى من البـــولاد
انـــي سأملك ارضكـــم وبلادكـــم ... ويطيب فـــي هذا النهار فـــؤادي
ومدينة الشهباء تخت جلوسنـــا ... مـــن بعد حرب خاطف الاكبـــاد

(قال الراوي) فلما فرغ ابو زيد من هذا الشعر والنظام اغتاظ الخزاعي من هذا الكلام وصدمه صدمة الاسد الضرغام فالتقاه ابو زيد وانطبق عليه الى ان سبق منهما ضربتان كأنهما صاعقتان وكان السابق الخزاعي فالتقاه ابو زيد بدرقة البولاد فسقط السيف على رقبة الجواد فبراها كما يبري الكاتب القلم ، فوقع ابو زيد على الارض وتحطم ، فأراد ان يعجل فناه واذا بفارس قد اقبل من وسط المجال وصاح صيحة تزعـــزع الجبال ، وانقض على الخزاعي مثل العقاب وقال ارجع يا كلب الرجال فسوف يحل بك الوبال ، وكان صراخ الامير دياب فالتقاه الخزاعي بقلب كالجبال واشتد

بينهما القتال الى وقت الزوال وهما في ضرب وطعان وقد اختلف بينهمـــا طعنتان قاتلتان وكان السابق الامير دياب ، فطعن الامير الخزاعي بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره ، فوقع على الارض يختبط بدمه ، فلما رات العساكر ما حل بوزيرها ، حملت في الحال على بني هـــلال من اليمين والشمال بقلوب كالجبال وهم يصيحون يا لثارات الوزير ! وقاتلوا قتال الابطال ، فالتقتهم بنو هلال واشتبك بينهم القتال وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال وتمددت الرجال على وجه الرمال وما زالوا على تلك الحال الى وقت الزوال ، فدقت طبول الانفصال وافترقوا عن القتال ورجع بنو هلال في فرح واستبشار ، واما دياب فانه رجع من ساحة الميدان وهو مسرور فرحان ، فالتقته النساء بالفرح والسرور والغبطة والحبور وشكرته على ما فعل وقلن لله درك من بطل ، لقد قهرت الغريم ودافعت عن الحريم فـــلا عدمناك يا فارس الخضراء وليث الصحراء ، وبعد ذلك دخل على الامير حسن ، فقام له على الاقدام والتقاه بالترحاب والاكرام ، وقال له مثلك تكون الفوارس يا زينة المجالس ولما استقر به الجلوس وطابت من القوم النفوس التفت الامير دياب الى ابي زيد واشار يخاطبه بشعره .

قال الراوي فلما فرغ دياب من شعره ونظامه شكرته الامراء والسادات على حسن اهتمامه ثم اشار ابو زيد يرد عليه بشعر جديد .

(قال الراوي) فلما فرغ ابو زيد من شعره ونظامه وفهم الحاضرون فحوى كلامه ، شكره حسن على هذا المقال وقال له مثلك فلتكن الرجال ، وباتوا تلك الليلة في سرور وانشراح وانبساط وافراح على الانتصـــــار والنجاح ، ولما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح ، استعدت الفرســـان للحرب والكفاح فدقت الطبول وركبت الابطال ظهور الخيول واصطف الجنود والعساكر وركب بدريس ظهر الحصان وقلبه يقدح بالنيران على ما جرى له وكان من الانكيس والخذلان وقد برز الى ساحة الميدان وطلب مبـــارزة الفرسان وقال من عرفني فقد اكتفى ومن لم يعرفني فما بي خفى ، انـــا بدريس ملك حلب فابرزوا لي يا امراء العرب ، فما اتم كلامه حتى صار دياب امامه ، فأشار بدريس يتهدده بالكلام فأجابه الامير دياب بكلام مماثل.

(قال الراوي) فلما فرغ دياب من هذا الشعر والنظام هجم على الملك بدريس بضربات قاطعات تهد الجبال الراسيات ، وكان قد اختلف بينهما طعنتان قاتلتان ، وكان السابق دياب ليث الميدان ، فطعنه في صدره خرجت تلمع من ظهره ، فوقع بدريس على الارض قتيلا وفي دمه جديلا ، فلما رات العساكر ما حل بملكها ايقنت بهلاكها ، فصممت على القتال وهي تصيح

الثار ! الثار ! وحملت من اليمين الى اليسار بقوة واقتدار ، فالتقتها بنو هلال في الحال واشتبك بين الفريقين القتال وعظمت الاهوال وجرى الدم وسال وتقطعت الاوصال وتزلزلت الارض من ضجيج الابطال وقعقعة النصال وما زالوا في عراك وقتال يشيب الاطفال الى وقت الزوال ، فعند ذلك تأخرت عساكر بدريس وقصدت مدينة حلب خوفا من الهلاك والعطب ، فتبعها ابو زيد بالابطال والفرسان ، فلما رات ما حل بها من الهوان طلبت لنفسها الامان ، وعندما بلغ اهل المدينة بما جرى وكان خرجت الاكابر والاعيان ، فالتمست من ابي زيدان ان يصفو عنهم ويعاملهم بالفضل والاحسان ، فأجابهم الى ذلك الشأن بعد ان استشار الامير حسن ثم بموت بدريس ملك حلب ، زال عن بني هلال العناء والكرب وطابت لهم الاوقات . وكان لبدريس ولد حميد الخصال ، ممدوح بين الرجال ، اسمه جمال ، خرج مع جماعة من الابطال ووقع على يد حسن سيد بني هلال، فاقامه ملكا مكان ابيه وامر اهل المدينة ان تطيع اوامره ، وقامت بنو هلال في تلك الاطلال عشرة ايام وهم بين طعام ومدام تجهزت للرحيل والسفر ، فدق طبل الرجوع وفي الحال هدت الخيام وركبت الفرسان وصارت النساء والبنات في الهوادج وركب الامير حسن وباقي السادات ورفعت على رؤوسهم الاعلام والرايات وجدوا في قطع البراري والفلوات كأنهم ليوث الغابات ، وما زالوا يقطعون الروابي والآكام مدة ستة ايام حتى وصلوا الى مدينة حماه ، فنزلوا على نهر العاصي ولم يعترضهم احد ، لان اهل البلد بلغهم ما جرى على اهل حلب ، فخافوا عواقب الامور واثارة الفتن والشرور، فاستقبلهم الملك بالاكرام والاحترام وصار لهم من جملة الاعوان والخلان .

(قال الراوي) ومن الامور الغريبة والحوادث العجيبة انه كان بمدينة حلب تاجر اسمه كساب وكان من اشهر الناس ومن اتباع صاحب جزيرة قبرص الملك هراس ، قد حضر الى تلك المدينة وكان يتاجر بالبضائع الثمينة ، فاتفق انه لما قدمت بنو هلال الى تلك الديار نهبت امواله مع جملة الاموال ، فشكى امره للامير دياب وطلب رد امواله التي كسبتها بنو هلال، فلم يحصل على ما يريد ، فترك حلب وقصد الملك هراس فدخل عليه وشكا امره اليه واعلمه بواقعة الحال وما فعلت بنو هلال ، فاغتاظ الملك غيظا شديدا ووعده باحضار دياب وكان عنده ثلاثة من الاتباع ، اصحاب حيل وخداع ، فأحضرهم اليه واعلمهم بواقعة الحال وفقدان الاموال وطلب منهم ان يسيروا مع كساب ويأتوا بالامير دياب فقالوا سمعا وطاعة ، وغيروا ثيابهم وساروا بالمراكب من تلك الساعة وصحبتهم الهدايا ، وعند وصولهم

اللاذقية نزلوا الى المدينة وجعلوا يتجسسون أخبار بني هلال حتى علموا انهم في حماه ، فعند ذلك ركبوا وساروا الى ان وصلوا الى البلد ودخلوا منزل دياب ومعهم هدايا ثمينة . فسلموا عليه وقدموا له الهدايا فترحب بهم غاية الترحيب وسألهم عن حالهم فقالوا له نحن تجار واخوة ثلاثة جئنا في تجرة عظيمة وتركناها في اللاذقية فقد خفنا من الطريق ومرادنا ان تعدينا من هذا الطريق ، وعند ذلك شالوا ثلاث بدلات مزينة بالجواهـــر الثمينة التي تدهش الابصار وتحير الافكار وقالوا هذه الى الامير حسن وهذه الى الامير ابي زيد وهذه الى القاضي بدير ، فقال دياب ومن هؤلاء الذين تقولون عنهم وكلهم تحت يدي ، فقالوا الذي تريده اعطه والذي لا تريده لا تعطه ، فقال لهم نحن لا نقول لاحد عنكم لئلا يلحقوكم ، قالوا نحن تجار ولا احد يجلب متاجر مثلنا ومعنا مركب موسوق خلاف ما معنا الان وكل سنة نبيع ونشتري ونكسب النصف في بضاعتنا ولا نجيء الا الى حلب ، وكان اللعين بدريس يشتري منا ما يلزم من البضائع كل سنة وقد اتينا هذا العام على حسب عادتنا فلم نجده وقد وجدناكم ناصبين على حلب ، فسألنا بعض المسافرين .

قصة أسر دياب

فأخبرونا انك قتلته وملكت بلاده ففرحنا لانك قتلت هذا الملعـــون الخيبري ، ونحن اتينا اليك ومالنا ونوالنا وكل ما تحت يدنا فهو لك وهذه البدل منا هدية اليك . ففرح بهم فرحا شديدا ثم التفت الى التاجر الثاني وسأله ما اسمك ؟ قال منذر ثم التفت الى التاجر الثالث فسأله ما اسمك؟ فأجابه نطرون العقيلي ، فقال لهم ان كان متاجركم تعوز مائة جمل اعطيها لكم ولكن ان كان مرادكم اكون لكم حمى من المضرين اخفركم الى ارض تونس الغرب ، فاحلفوا لي بالله العظيم لا تخونوني ، فحلفوا له انهم لا يخونونه ابدا فقال لهم سيروا بنا الى المركب حتى انظر متاجركم وارى الحمولة الى كم جمل تحتاج حتى ارسلهم لكم مع عبيدي ، فدخلوا معه بالخداع قالوا انت تريد ان يشعر الناس بنا ونحن نريد ان لا يضطلع على سرنا الا الله وانت لان العرب متى رأوا متاجرنا يطمعون بنا ، فيقع الخلاف بيننا وبينهـــم وينشب القتال ، فنكون نحن السبب في هذا الشر والكدر ، فلما سمع منهم

هذا الكلام قال سيروا وانا اسير معكم وحدي حتى انظر ما ذكرتموه لي ، فركبوا خيولهم وساروا ليلا خوفا من ان ينظرهم احد فتظهر حيلهم ، وبينما هم سائرون واذا بالامير عمار اخو الامير حسن التقى بهم فلم يعرف منهم سوى الامير دياب فقال يا ابن غانم الى اين سائر مع هؤلاء القوم ؟ فأجابه هؤلاء ضيوفي ومرادي أوصلهم خوفا عليهم من السفهاء ، فقال اتريد ان أذهب معك ؟ فأجابه اذهب في حالك . فسار الامير عمار الى منزله واما الامير دياب فانه سار مع اصحابه من العشاء الى ثاني يوم الظهر حتى اشرفوا على البحر المالح ، فسمع دياب صوت دوي الماء فدخل عليه الوهم وقال في باله والله أعلم ان هؤلاء الثلاثة خائنون ، لان اعينهم ملأى بالغدر، فأراد ان يرجع من وقته ولكن المقدر لا بد من نفاذه ، ولما راوه قد تغير وفي سيره تأخر قالوا اما تنزل معنا في البحر ؟ فأجابهم ان نزولي معكم في البحر ليس ضروريا وان كان كلامكم صحيحا انزلوا وهاتوا ما قلتم لي عليه ، ثم نزل عن الشهبا ومسك مقودها بيده اليسار والسيف بيـــده اليمين ، ووقف ينتظر فتركوه ونزلوا الى البحر ، حتى اتوا الى الغلبون وجابوا له خيمة من الحرير مكللة بالدرر والجواهر والياقوت والمرجـــان والزمرد فلما رأى دياب تلك الخيمة وفرشها الذي يدهش البصر ، تعجب غاية العجب وظن كلامهم صحيح ودخل معهم الى الخيمة وجلسوا يتحادثون واتوا بالمأكل والمشرب فبنجوه ، وفي الحال جابوا السلاسل ، قيدوه ونزلوا الى المركب ورفعوا المراسي واقلعوا ، ثم اعطوه ضد البنج ، ففاق فوجد حاله مقيدا بالسلاسل ، والتفت يمينا وشمالا فرأى الجماعة وقد كانوا في ملابس بيض صاروا في برانيط سود ، فعرف ان الحيلة تمت عليه ، فتنهد وانشد يقول :

يقول الفتى الزغبي دياب بن غانم	بكيت على حالي وانـــا مأسـور
بكيت على جاهي وعزي وهيبتـي	وانـــا فوق تختي جالسا مسرور
ومن بعد عزي وارتفاعي وشمختي	بقيت مقيـــد بينكم مأســور
وخنتموني لا عمـــر الله دياركم	وبقتـــون فيّ واصبحت مقهـــور
يا رب يا رحمن يـــا سامع الدعاء	يا مـــن تسبح له شجر وطيـــور
يجيني ابو زيـــد الهلالي سلامة	يخلصني مـــن كـــل هلاك وشرور
مقال الفتى الزغبي ديـــاب الغانم	دهتنـــي الليالي والزمـــان غـــدور

فلما فرغ دياب من كلامه ، ندم على ما فعله ، ثم قالوا لا بد من قتلك. فلما وصلوا الى جزيرة قبرص ادخلوه على الملك هراس ، ففرح الملك الفرح العظيم والقاه تحت العذاب الاليم . هذا ما كان من دياب وما جرى له من الاحوال والعذاب ، واما ما كان من بني هلال فانهم كانوا في فرح ومسرات

والهدايا تأتيهم من جميع الجهات . فبينما هم في بسط وانشراح الا والخضرا قادمة مثل هبوب الرياح وهي كئيبة حزينة على فقد خيالها الامير دياب ، فأول ما نظرتها بنته وطفا ، طار الشرر من عينيها فصاحت وولولت، فتراكض جميع الفرسان والابطال على صياحها وصار ضجة عظيمة ما صار مثلها في سالف الزمان . اما الامير حسن فانه قال لابي زيد ان دياب صار له مدة ما حضر معنا واظن انه مغتاظ منا لاننا ما خليناه ينهب حلب ، فقال له ابو زيد قم نزوره لان دياب لو ما حصل له شيء ما كان طول علينا هذه الغيبة ، فمن ساعتهم ركبوا على ظهور خيولهم ومعهم القاضي بدير وساروا نحو منازل دياب ، فسمعوا البكاء والنواح ، ولما راوهم تقدم غانم ابو دياب باكي العين زائد الانتحاب .

فلما سمع الحاضرون فحوى كلامه حزنوا على فقد دياب واستعظموا ذلك المصاب ، ثم التفت الامير حسن الى ابي زيد وقال له حطت عندك الحكاية وما احد يقضيها غيرك ، فالتفت ابو زيد الى عبده ابي القمصان وقال له هات لنا الرمل فأحضر الرمل واعطاه الى ابي زيد فأخذه ورسم الاشكال ، فبان له اشكال النحوس على دياب وعرف الغريم ، فبكى ابو زيد وبكى كل من كان حاضرا ، فقال له حسن لماذا يا ابا زيد بكيت وبكيتنا معك؟ فأخبرهم ان دياب في قبرص عند الملك هراس ، يقاسي انواع العذاب . فلما سمعوا هذا الكلام صاح الجميع عن فرد لسان ، مالنا سواك يا ابا شيبان ، لانك مفرج الهم فقال لهم سمعا وطاعة ، وتجهز للسفر وودع الامراء والسادات وركب الحصان وصار يقطع البراري والفلوات وما زال سائرا الى قبرص الى ان وصل الى باب المدينة، فراى الهراس طالعا بجماعته الى الصيد والقنص ، فعرف ابو زيد انه الملك ، فتقدم اليه بقلب اقوى من الصوان وسلم عليه بأفصح لسان ، وسحب المبخرة وحط بخورا فمقعد الدخان وقال له هذا البخور من دير الجيروان ، واخرج ثلاث شمعات وقال له خذ هذه الشمعات فهي من دير البنات ودير الحميرة المباركات . فقال الهراس وقعت يا ابا زيد وكيف وصلت وانا مربط عليك الطرق ؟ فقال سلامة لا تقل هذا الكلام يا ملك الزمان ، انا خدام الملك مثقال ولي مائتا يوم سائح ، ما تركت ديرا ولا صومعة وانك انتصرت على دياب واسرته لانه قتل بدريس .

فقال الهراس يا راهب اما دياب فقد مسكناه وفي الحديد رميناه ، ولكن بحياتي عليك انت بعثك مثقال ، فقال ابو زيد اي وحق الاله المتعال ، فعندها اخبره الهراس كيف عمل في دياب فقال ابو زيد بخ بخ لك على هذه

الحيلة التي يعجز عنها اعظم الرجال . ثم انهم دخلوا الى الديوان وامر لابي زيد بالجلوس وبالطعام ثم بدأ ابو زيد حديثا للملك ما سمع مثله في طول عمره حتى ولا من العلماء والفلاسفة ، فسر منه ونادى في اكابر ديوانه بأن يكون ابو زيد الكبير فيهم وقال لهم الذي يريد منكم ان يسأله شيئا فليتقدم فعندها تقدم كبير الرهبان ويسمى ابو برناس .

وتكلم فتعجبوا من فصاحة لسانه ، فما بقي عند الهراس اكبر منه وقال تمنى علي ما تريد يا سلامة ، قال له اريد ان تريني دياب حتى اشفي قلبي منه بالعذاب ، فأمرهم بما طلب ، فأخذوه الى السجن ، ولما رآه في هذا البلاء والعذاب ، غاب عن الصواب ، وتقدم اليه وضربه بكفه طير الشرر من عينيه فتألم دياب وصاح الله يقطع يمينك ، فقال له وانت الله يقطع عمرك من هذا السجن ، ثم خرج من عنده وعاد الى الهراس وقال يا ملك الزمان هذا دياب ما بقى ينفع ، فكه من الحديد ولبسه شيئا جديدا وطلعه الى القصر ، واطعمه دجاجا وخبزا حتى يسمن ويعود يصلح للعذاب . فقال الهراس اطلعه فطالعوه وعمل فيه مثل ما قال الراهب سلامة وكان مراده ان يرد دياب الى عافيته ، لانه قد انسل من شدة الجوع ولا عاد عنده قوة ولا حيل . قال واستقام ابو زيد عند الهراس فلا يغلبه احد من الناس ، فسمع به راهب من الرهبان وكان يسمى مغلوب ابن توما ، فركب وأتى الى عند الهراس ، فلما وصل الى المدينة ، قامت الضجة وقالوا يا ملك اتى مغلوب بن توما . فركب الهراس ولاقاه وسلم عليه ، فما رد سلامه . قال له : لماذا يا سيدي ما ترد السلام ؟ قال كيف أرد سلامك وعدوك ابو زيد عندك واتى لاجل خلاص دياب ؟ فقال الهراس انا لا آخذ احدا ظلما وعدوانا. فقال مغلوب هذا يتكلم بالسبع لغات ويصبغ حاله سبع صبغات لانه غضبة من الغضبات ، واخاف ان يقتلك ويخرب بلادك . فقال الهراس اذهب معي الى الديوان شوفه ، فساروا الى الديوان ولما دخلوا التفت الهراس الى الراهب سلامة وقال له انت ابو زيد صاحب المكر والكيد واتيت تفك دياب من البلاء والعذاب وحضر من يعرفك وقد سحرتنا بمكرك ، فقال سلامة من الذي حضر يعرفني ؟ فقال الهراس : هو مغلوب عالم بلادنا وخطيب ديارنا. فبكى الراهب سلامة بكاء شديدا وقال : ما دام كل من اتى اليك تسمع كلامه ، انا ما بقي لي عندك قعود واشار اليه يقول :

قال الراهب سلامة يا ملك ... اسمع كلامي وانت فاهم هالسؤال
من عند مثقال اتيت لعندكم ... ودرب قبرص والسهول مع الجبال
وجيت الى عندك وقد اكرمتني ... واعطيتني كل المواهب والاموال
وعلى الجميع قد رقيتني ... وجعلتني يا ملك احكم بالرجال

وكل من يسمع بفضلي يـا ملـك — يبقى بنيران الحسد في اشتعـال
هات لي مغلوب يأتـي بالعجـل — ينظر لفعلي وناظره بين الرجـال
وانا ورائي الف عابـد سائحين — مأكولهم عشب الفلا ثـم الزلال
وصائمين الدهر عن أكـل الخبز — ما يعرفون الخيل ايضا والجمـال

(قال الراوي) وهما في الكلام الا والراهب مغلوب داخـل عليهم ، فقاموا له وسلم عليهم ، فردوا عليه ثم التفت الى من حوله وقال : هذا الراهب سلامة ؟ قالوا نعم . قال له من اين يا راهب ؟ قال : من بيت المقدس . قال : هذه اول كذبة وانا لي اربعين عاما في بيت المقدس مـا سمعت في راهب اسمه سلامة . قال ابو زيد انا كنت سايح في رؤوس الجبال . قال له قطعت يدك يا محتال ولكن اقرأ لنا الانجيل فقراه فقال له اقرأ لنا المزامير فقراها ، فتعجبوا غاية العجب قالوا المسلم لا يعرف كل ذلك ، قال لهم مغلوب هذا يعرف السبع السن يقرأ فيها .

وتكلم ايضا فتعجبوا من فصاحة لسانه وعلمه وبيانه ، واما مغلوب فقال له الملك : لماذا لا ترد جوابه وقد ارميت عليه مسائل ردها ؟ قال يا ملك هذا ابو زيد ان اردت اقتله وان اردت ابقه . فقال الهراس : ما تقول يا راهب سلامة ؟ فقال يا ملك قد امسى المساء وانا الليلة أجتمع بساداتي الذيـن ربوني من صغر سني ، وما اظن انهم ينسوني ومن هذا المشكل يخلصوني، وغدا اخبرك ، وانفض الديوان ، وتوجه ابو زيد واختلى بنفسه ثم أحضر الدهن والشمندل ودهن به جسمه حتى اذا لمس النار لا تؤذيه ، وبات الى الصباح وطلع الهراس وقال : كيف انت يا سلامة ؟ فبكى ابو زيد وقال : وحق الغمامة اتاني اربعون عابدا وكل واحد طول اربعة رجال وعمرهم ما تركوا الصلاة وهم في أقطار الارض طائرين ، ينظرون حال المساكين ، فحكيت لهم عن مغلوب ، فحلفوا انهم لا بد ان يحرقوه ، وحكيت لهم عن فضلك ، باركوا لك في طول عمرك وكل واحد أوهبك من عمره عاما ، فقال الهراس : جزاك الله عني خيرا لانه زاد عمري اربعين عاما وكيف قالوا لك ان تفعل ؟ فأجاب قالوا لي خلي الملك يوقـد النار في الفرن ، وتدخل الفرن انت ومغلوب والذي يكون غلطان تحرقه النار . قال الملك : ماذا تقول يا مغلوب ؟ قال دعه يدخل النار قبلي . فقال سلامة : نعـم ادخل قبلك . وامره ان يوقد الفرن . فأوقدوه حتى صار جمرا ودخل ابو زيد الفرن من بعد ما تلا اسم الله الاعظم ، فعادت النار باردة باذن الله، فنظر الهراس بعد ساعة ، وجده جالسا كأنه في روضة خضرة ، فقال ادخلوا مغلوبا ، فقدموه فصرخ صوتا من صميم فؤاده ، فمد يده ابو زيد

وشده حتى صار داخل الفرن ، فاحترق ، اما ابو زيد فقد خرج سالما فصاروا يتباركون به واعتقدوا فيه العبادة والولاية ، وصارت تحبه النذورة ثم طلب من الملك ان يجمعوا الاسرى من جميع البلاد في مكان واحد . فجمع الاسارى من جميع البلاد واذا هم اثنا عشر الف اسير ، فوضعوهم في مكان حصين ، فأخذ ابو زيد شمعة ودخل عليهم وكان بينهم رجل اسمه عمر ، فلما شاف سلامة ، قال آه يا ملعون على ما اكون مطلوق السواعد، فتقدم اليه وأطلقه ، وقال له : دونك وما انت طالب . فاستعد وانطبق على ابي زيد فالتقاه كالاسد ومد يده من وسطه ورفعه الى راسه وخبطه بالارض ، وقال كيف رايت نفسك ؟ فقال : ارجو عفوك ايها السيد . فقال عليك الامان انت ودياب وجميع المسجونين . ففرحوا جميعا ودعوا له بالتوفيق ثم اخذهم الى محل السلاح ، فأخذوا ما يحتاجون ثم أرسل عمر مع الفين من الشباب وربطوا الطريق والابواب وفرق الباقي في جميع انحاء البلدة ، واخذ معه ديابا والف فارس وسار بهم نحو السرايا ، ودق الباب فرد عليه الحارس فقال ابو زيد : انا الراهب سلامة . ففتح ودخل الامير ابو زيد وضربه بالسيف ، قطعه نصفين ، ثم دخلوا على الهراس وجدوه نائما ، فرفسه ابو زيد برجله ، ففاق وفتح عينيه فقال : من انتم ؟ قال ابو زيد انا الراهب سلامة . فتقدم دياب وضربه على هامه رمى راسه قدامه ثم تفرقوا في الاسواق والازقة ، فقتلوا اثني عشر الفا وباقي الناس طلبوا الامان ، فعفوا عنهم ، فطلع المنادي ينادي في الامان وجلس ابو زيد في الديوان وأتى عنده الاكابر والاعيان وكان بين ابي زيد ونوفل اشارة كانت مراكبه دائما في البحر ، فرفع ابو زيد الاشارة فتقدم نوفل بمراكبه حالا ، وصعد الى البر ، فأخذه ابو زيد الى الديوان وقال لهم : قد وليت ارقل حاكما عليكم ، ولا احد منكم يخالف له امرا . ودخلوا الى دار الهراس وجدوا المال الذي فيه لا يعد ولا يحصى فأخذوه الى المراكب وودعوا نوفل وسافروا ، فلما وصلوا الى دير اللاذقية أرسل ابو زيد يبشر الامير حسن وبني هلال بقدومهم فقامت عندهم الفرحات وعلت الصيحات وركبت الاربع كرات والامراء والسادات وساروا حتى التقوا فسلموا على بعضهم سلام الاحباب ، فهنؤوهم بالسلامة ثم حملوا الاحمال وساروا في عراضة ، قدام الامير ابي زيد . فلما وصلوا الى الخيام ، استقبلتهم النساء والبنات والنوبات وهنؤوا الامير دياب بخلاصه من الاسر، وشكروا الامير ابا زيد على حميد أفعاله وصرفوا ذلك النهار بالفرح والسرور وعمل الامير حسن وليمة عظيمة لها قدر وقيمة ، وما زالوا على تلك الحال

وهم في ارغد عيش وانعم بال مدة عشرة ايام ، ثم ركب السادات ظهور الخيول واعتقلوا بالرماح والنصول ، وركبت النساء والبنات في الهوادج والعماريات وجدوا في قطع البراري والفلوات طالبين ارض عنتاب ، فوصلوا اليها بعد ايام فنصبوا المضارب والخيام ورفعوا الرايات والاعلام .

قصة أبي بشارة العطار

(قال الراوي) لما رجع بنو هلال من قبرص واجتازوا في طريقهم ماردين أحبوا ان يذهبوا الى الصيد فسار حسن والامير دياب وبدير مع جماعة صيادين ، فصاروا يصطادون الارانب والغزلان حتى وصلوا الى ارض يقال لها قلعة سواكن ، واذ لاقاهم رجل عطار قدامه حمار ، واضع عليه العطارة ، فلما اقبلوا سلموا عليه فما رد عليهم السلام بل قال لهم : وقعتم يا أوباش لا بد ما أقتلكم وأريح الدنيا منكم . ثم تقدم الى حسن وقال له : الى اين سائر في هذه الاطلال انت ودياب وبدير ؟ قال حسن اخرس قطع الله لسانك . وصاح القاضي بدير وارتمى على ابي بشارة ليفتك به فارتخت اعضاؤه وكذلك حسن ، فلما نظر دياب هذه الاحوال صاح فيه اليوم يومك يا ابن اللئام ، ثم انه قوم الرمح وقال له خذها من دياب الاسد الرئبال ، فأراد ان يطعنه فما نظر نفسه الا مكتفا ، فعند ذلك صاح فيهم ومشى امامهم ، فتبعوه مثل الغنم ، حتى وصل الى قلعة صهيون، فأدخلهم الى السجن ووضع لهم الحديد والاغلال ، وقال لهم : ما بقي لكم خلاص من ضيق الاقفاص . اما الذين كانوا مع الامراء فأسرعوا عائدين فسألهم ابو زيد عن حسن وباقي الامراء فأعلموه بما جرى لهم . فلما سمع ابو زيد هذا الكلام ، غاب عن الصواب ، وأقامت نساء هلال الصياح والبكاء ، واجتمعت بنو هلال عند ابي زيد وقالوا ما هذا المصاب وما يكون الجواب ؟ قال لهم قوموا بنا ندور عليهم في البراري ، ونفحص عن هذه الاحوال . فبينما هم كذلك واذا برجل في الطريق ، فسلموا عليه فرد عليهم السلام . فقال له ابو زيد : ما عندك من الاخبار ؟ فقال له كنت امس سائرا في تلك الناحية اذ رأيت ابا بشارة العطار ومعه ثلاثة أمراء من بني هلال وهم في أوشم حال ، وقد اخذهم الى قلعة صهيون ووضعهم في الحديد والاغلال واذ كنتم ذاهبين الى خلاصهم فارجعوا لئلا يصير فيكم

مثلهم من ابي بشارة ، لانه سحار مكار ، ثم تركهم وسار الى حال سبيله . اما ابو زيد فقال لفرسانه والابطال : ارجعوا الى الاطلال ، وانا وزيدان ، نكفي لهذه الاحوال ، فعندها رجعت العرب ، واما ابو زيد وزيدان فسارا في تلك البراري والقفار طالبين قلعة صهيون ، واذ رايا ابا بشارة العطار وقدامه الحمار ، فلما رآهم وقف حتى وصلوا اليه فصاح فيهم ويلكم ايها الانذال ، وقعتم في اوشم الاحوال ، وقعت يا ابا زيد انت وزيدان والله يا ابا زيد لا بد ان اقتلك واريح الناس منك . فقال له من عرفك فينا حتى تعادينا ؟ فقال عرفتكم قبل ان تخرجوا من أوطانكم ولا بد ان اذيقكم الاهوال . فقال ابو زيد : سد فمك لعن الله اباك ارجعوا الى الاطلال ، وأنا وزيدان نكفي لهذه الاحوال ، فعندها رجعت وامك وما انت الا ملعون يا بايع الفلفل والكمون واشار يهدده :

قال ابو زيد تخسا يا ردي تخسا ... انا ابو زيد حاوي جميع أوصاف
لا بد ما اقتلك واقتل الى حنا ... وكان عندك ثلاثين الف سياف
زيدان اسحب سيفك واقطع راسه ... واحدف الى رقبته عن الاكتاف
عطار عمرك خلص ما عاد لك نجا ... يا ناقص العقل يا عديم الانصاف
انا ابو زيد وكل الناس تشهد لي ... قرم صميدع من نسل اشراف

فلما فرغ ابو زيد من كلامه سحب زيدان حسامه وغار عليه يريد اعدامه ، فما راى حاله الا وهو مكتوف وراسه مكشوف ، فلما راى ابو زيد ما صار في زيدان ، خرج عن دائرة الاعتدال وسحب سيفه وهجم عليه هجمة الاسد الرئبال وقال له ويلك يا ابن الانذال دع عنك هذه الاحوال ، فلما نظر ابو بشارة من ابي زيد تلك الفعال قبض كمشة من التراب وعزم عليها ثم حدفها على ابي زيد واذ برجليه قد يبست وكذلك يده ثم زعق في ابي زيد صوتا هائلا كأنه الرعد ورفعه في يد فاذا هو طائر بين الارض والسماء واما زيدان فجره ذلك الملعون ووضعه في حصن صهيون مع حسن ودياب وبدير .

فقال الامراء هذا ملعون يأسرنا واحدا بعد واحد وصاروا في حساب وأمور صعاب ، هذا ما كان منهم ، وأما ابو زيد فانه ما وعى على ذاته الا بين بني هلال ، يبكي ويضرب بيده اليمنى والشمال ، فلما راته بنو هلال بهذا الحال قالوا ابو زيد جن ، ثم تقدموا اليه وحطوا القيد في رجليه وبقي على هذا الحال ثلاثة ايام لا يعرف ذاته في اي مكان ، فصاروا يواسونه بالكلام ثم قالوا الى متى هذا الحال يا ابا زيد ومن الذي عمل فيك هذا ؟ فقال لهم اين انا ومن انتم ؟ فقالوا نحن اهلك واحبابك بنو هلال ، فعند

ذلك صحا وانشد شعرا .

فلما فرغ ابو زيد من كلامه تقدم الامير غانم ابو دياب يسأله عن ولديه دياب وزيدان .

ثم قال القوم : يا ابا زيد الى متى هذا الحال وانت قاعد يا مفضال؟ قم وسر بلا امهال وانظر حال الامراء والابطال وخلصهم وارنا عوايـــدك وفعالك ، فقال لهم يا قوم هذا ابو بشارة كهين من الكهان وما يقدر عليه احد ، لا من انس ولا من جان ، ولكني استعين عليه بالواحد الديان وان شاء الله ما اموت الا وانا مخلص السادات من الاسر والشدات ، ثم انه قام من ساعته وقلع ما كان عليه من الثياب ولبس صفة درويش واخذ في يده عكازا وابريقا وكولك ، وسار يقطع البراري والقفار والسهول والاوعار، وما زال سائرا حتى اتى الى ضيعة من حكم تلك البلاد ، فبينما هو ينظر في تلك الوهاد اذ به يسمع صوت ابي بشارة ابن الاوغاد وهو ينادي على العطارة ، فقال ابو زيد الله يخفي لك هذا الصوت يا ستار استرني من هذا الجبار ، ثم انه دخل خرابة وتخبى فيها من ذلك الملعون الى ان طلع ابو بشارة من تلك الضيعة وابو زيد يراه عند ذلك ، لحقه من خلف الى خلف حتى يقتله ، فالتفت اليه وقال له ادن مني حتى اريك نفسي يا كلب يا مكار يا مخرب الديار . فلما سمع ابو زيد هذا الكلام اراد ان يهرب في الآكام واذا برجليه قد يبستا ولصقتا في الارض ، فقال له العطار مت كمدا ولا يدري بك احد ، ثم سار وتركه فعند ذلك رفع ابو زيد راسه الى قبلة الدعاء وباسط الارض على وجه الماء وقال الهي ومولاي ورجائي يا مـــن نجيت كل الانبياء والمرسلين نجني من هذا اللعين بجاه سيدنا الخضر عليه السلام . فما أتم كلامه الا وقائل يقول لا تخف يا ابا زيد ولا عليك من بأس اقبل شيخك الخضر ابو العباس عليه السلام ، فعند ذلك انطلق ابو زيد من مكانه وسار قليلا واذا ابو بشارة العطار مقبل عليه وقال له من فكك يا غدار يا مكار ؟ فقال له يا عطار انا عمري ما تدخلت على احد فأرجو يا فتى ان تطلقني من وثاقي وانت اذهب واقتل المحابيس الذين عندك وأنـــا بدمهم قد سامحتك ، فقال له اذا اطلقتك وسرت الى عند المحابيس وقتلتهم فأكون قطعت ذنب الحية وابقيت راسها ، ولكن انا لا بد لي عن قتلك يا ابن الانذال وقتل محابيسك بني هلال ، فلما سمع ابو زيد هذا الكلام ، صار الضياء في عينيه ظلاما واشار يقول :

يقول ابو زيـد الهلالي سلامـــة	ونـيران قلبـه زايـدات شعـال
سألتك يا رحمن يا سامع الدعـا	بجاه من على الجبال قد جـال

ابو بشارة ما تخاف الله يا كاهـن ... يا حيف تنقتل امراؤنـــا وبطال
لو كنت مأسور كان الاسر أهون لي ... وكنت اشوف رفقتـــي ورجـال
الهي بحق الحرم وكعبة الغــراء ... وبجاه الانبياء وكــل مفضـال
بانك تجيرني من الكهين السـاحـر ... ابـــو بشارة الفاجـــر المحتـال

(قال الراوي) فلما فرغ ابو زيد من كلامه والحق متجلي على دعائـــه استجاب نداءه فأراد ابو بشارة ان يسير الا وصوت يقول الحقه يا ابا زيد يا مفضال واسقه كاس الوبال ، انا استاذك الخضر ابو العباس . فلما سمع ابو زيد هذا الكلام ، لحق ابا بشارة وصاح عليه وقال له : اين عدت تسير يا ابن اللئام ؟ اليوم اسقيك كأس الحمام ، وما عاد لك خلاص من ضيق الانفاس . فأراد ابو بشارة ان يلتفت اليه ويسحره واذا بكف صفعه على وجهه فعقد لسانه وجمدت عيونه وما بقي له كلام ، فسحب ابو زيـد النمشة من العكاز وطسه على هامه حط راسه قدامه ، فوقع قتيلا يتخبط في دمه ، عند ذلك فرح ابو زيد وحمد الله الذي خلصه من هذا الساحر وقرأ الفاتحة وأهداها الى الخضر ابي العباس ، ثم انه اخذ حماره ونزل عنه بضاعته ففردها ونظر ما فيها ، وبعد ذلك حزمها ووضعها على الحمار ثم خلع ما كان عليه من الثياب وتزيا بزي ابي بشارة العطار وساق قدامـــه الحمار وقال له الله يحرق عظام صاحبك ابن الاوغاد وسار في تلك البراري والوهاد الى قلعة صهيون وصاح انا الحنون ساقي الضد كأس المنون ومعي فلفل وكمون وحنة واساور وابر وحلق ودهون ، وحمرة وسبيداج وخطوط، ارخص لكم البضائع في هذه السفرة يا بنات ! فتواردت عليه النساء من كل مكان ، فصار يكمش ويعطيهن بدون ثمن وهو يقول لهن : لقد ربحت في هذه السفرة ربحا كثيرا . ولم يزل ابو زيد سائرا حتى وصل الى قلعة صهيون فاستقبله شخص بالترحيب والاكرام واجلسه على مرتبة وامر له بالخمر والشراب .

فقال ابو زيد في سره : انا عمري ما شربته وكيف أشرب الان ؟ فقال له صاحب القلعة ، وكان اسمه حنا ، لماذا لا تشرب وتطرب كعادتك ؟

فقال ابو زيد : لقد اقسمت يمينا ان لا اتناول الشراب اسبوعا كاملا، فقد عن على بالي قتل هؤلاء الاسارى . فقال له ونحن في انتظارك حتـى تحضر وتفعل فيهم مرادك . فقال لهم هاتوا زيدان لاسقيه كأس الهوان . فلما احضروه صاح به يا جبان انا اسألك عن ابي زيد اين هو الان ؟ فقال له غدا يأتي ويقتلك ، فقال له سأقتلك واقتله واقتل حسن ودياب وآخذ منكم الثأر واكشف عني العار .

فقال له زيدان : يا ابا بشارة ليست الشجاعة والبطولة في السحر

انما الشجاعة تظهر في ركوب الخيل . هات جوادا وعدة جلاد ودع قومك كلهم يقابلوني في الميدان يا كلب يا جبان .

فقال ابو بشارة له : يا نذل من قتل ابن عمي انت ام ابو زيد ام دياب؟ فقال زيدان : تقول انك عارف وشاطر وتعلم السحر اتاريك كذاب ! فقال له : كيف لا اعرف ذلك وانا ياما لي وقائع ومهالك . قال له زيدان اعلم ان كل الذين قتلوا ما قتلهم غير دياب ، وأما انا وابو زيد ما قتلنا احدا. فقال ابو بشارة : هاتوا دياب ومن معه حتى ننظر ، فساروا في الحال واحضروا دياب وبقية الابطال ، فحينئذ التفت ابو زيد الى دياب وقال له من قتل اولاد عمي ؟ فان زيدان يقول انت قتلتهم ، أفدني بالجواب قبل ان اعلي راسك بهذا الحسام ! فأجابه اعلم يا ابا بشارة ان المكتوب يقرا من عنوانه ، انظر الى كلام زيدان تحاكيه بالدرهم وهو يجاوبك بالقنطار هذا كلامه في هذه الامصار فكيف يكون في البراري والقفار ، والله مـــا انحبس منه الا ابو زيد الفارس العنيد وهؤلاء الذين عليهم الكلام ، فقال ابو بشارة والله ما فيكم واحد مقصر وكلكم انجس من بعضكم البعض ، انت مثل الحية تلسع وتخبي راسها .

ثم قال ارموا ديابا فرموه حالا فأخذ العصا وقام ليضربه فقال لـــه زيدان مكن يدك يا ابا بشارة ، فقال دياب ويلك يا زيدان كيف يهون عليك هذا الامر وأبوك غانم وأخوك دياب ؟ فقال ابو بشارة لزيدان هل هو اخوك؟ فأجابه نعم من فرد أم واب ولكن اقتله لانه هو الذي قتل رجالك والقانا بين يديك . فقال دياب والله يا ابا بشارة صاحب اللســـان غلب صاحب الاحسان والله ما يستاهل القتل غير زيدان وأبي زيد لانهما قتلا اولاد عمك ، وهذا زيدان تربابة ذلك الشيطان . فقال ابو بشارة انت تربية ابي زيد وتجعل نفسك مسكينا ، فأجاب زيدان نعم انا تربية ابي زيد ولا بد ما يعدمك روحك فقال الامير حنا لابي بشارة اقتل هؤلاء الاسارى فقال له طول بالك يا ملك ولا تعرف قتلهم الا مني ولكن لا تقتلهم حتى اجيب ابا زيـد ونذبحهم سوا . فلما سمع حنا كلامه قال افعل مرادك ، عندها التفت ابو زيد الى القاضي وقال : انت قاضي العرب ؟ قال نعم قال انت قلت لقومك ان يقتلوا عباد النار لابي حتى قتلوا أمراءنا وفرساننا فقال له قتلهم حلال في كل المذاهب لانه لا يعبد الا الله تعالى . فقال مرادي ارمي عليك مسائل ، فقال اسأل عما شئت . فقال اخبرني عن شجرة فيها اثنا عشر غصنا في كل غصن ثلاثون ورقة وفي كل ورقة خمس ثمرات ، اثنتان

لونهما ابيض وثلاث لونهما اسود ، فقال هي السنة والاشهر والايام والصلوات الخمس فقال له اخبرني كم بين السماء والارض ، فقال خمسمائة عام فقال زيدان بقي عليك ان تسأل ديابا وان ما عرف يجاوبك اقطع راسه فقال دياب ويلك يا زيدان اما انا اخوك لا شك انك ابن لئام انت وأبو زيد قتلتم بدريس فان قتلوكم يكونوا اخذوا ثارهم وأشار يقول :

دياب غنى قصيدا من ضمائره — ودمع العين عالخدين طوفان
يا اهل المروءة اعفو اليوم عن قتلي — ان كنت تقتل قوم اقتل زيدان
هذا وأبو زيد قتلوا أعمامك — وخلوا الفوارس في بلا واحزان
ونحن يا ابو بشارة قوم اقتلنا — انا وبدير مع ابن سرحان
وان كان زيدا ما يعرف سؤالك — ما يعرف اللغز الا اخي زيدان
واقتل ابو زيد الهلالي سلامة — اقتله يا امير بحد يمان
انت صاحب العزة والمجد والعلا — واجمع عليهم يا امير فرسان
ترمى علينا مسائل لا نعرفها — انت صاحب الصيوان والعمدان

فلما انتهى دياب قال ابو بشارة انت تقول ما قتلته وحسن والقاضي وزيدان يقولون ما قتلوا احدا ، ومرادي اعلم من الذي قتلهم اخبروني والا قتلتكم في الحال . فقال له دياب ما احد قتل أعمامك سوى ابي زيد والامير زيدان وانا أعلمك بصدق اللسان وما بقي علي ملام ، فقال زيدان ويلك يا دياب من قتل بدريس والخزاعي غيرك! فأنت تعمل عمايلك وتتهمنا، ثم انشد يقول :

قال زيدان قصيدة من ضمايره — ابيات كالدر موزونة بميزان
وحق عيسى وموسى والنبي محمد — قولي صحيح ما فيه بهتان
دياب هو الذي قتل ابن عمك — قتل بدريس بسيفه وسنان
ايضا قتل الخزاعي ما اختشى منه — اكيد يا ابو بشارة ما انا وهمان
حنا يا ملك صهيون قوم اذبحه — واجعل دمه فوق الثرى غدران
بحياة راسك تشفي خاطرك منه — هذا يقيم الفتن كأنه شيطان
وهذه المسائل يحلها دياب بسرعة — وان ما عرفها اجعله اليوم قربان

فلما فرغ زيدان من كلامه والجميع يسمعون نظامه ، فقال حنا كيف يا ابا بشارة دياب يقتل اهلنا ورجالنا وأنت ساكت عنه بحياتي عليك تشفي خاطري منه ، فقال ارموه تحت المضرب ، فرموه وقام ابو بشارة والعكاز في يده ومال عليه حتى كسر اجنابه ، والتفت الى القاضي وقال له : مرادي ارمي عليك مسائل ان ما اجبت عنها ضربتك مثل رفيقك . فقال له سل عما تريد . فقال اخبرني كم طيرا نزل بالكتاب ؟ فقال له تسعة : الذباب والنمل وطير الابابيل والجراد وطير عيسى وهو الخفاش والغراب والهدهد

والصفا واللهو وهو السمك . قال اخبرني عن طير يمني ويحيض وعن شيء اذا حبس عاش واذا شم الهوى مات . فقال له أما الطير فانـــــه الوطواط واما الثاني فهو السمك ثم ان القاضي التفت نحو ابي بشارة وقال مرادي اسالك سؤالا قال سل عما شئت فقال اخبرني عن شيء كان حلالا ثم صار حراما ؟ فقال له البيضة حلال واذا وضعت تحت الفرخة صارت حراما . فقال القاضي اخبرني يا ابا بشارة عن رجل قام الى الصلاة سلم عن يمينه وجب عليه مائة دينار وسلم عن شماله طاقت زوجته ونظر الى موضع سجوده بطلت صلاته .

(قال الراوي) فلما فرغ من كلامه والقاضي بدير يسمع نظامه ، فقال له عفاك الله يا امير على هذا العلم ، لكن يا حيف كيف تكون عابد النـــار ويكون عندك هذا العلم ؟! فضحك وقال يا قاضي خلص روحك والا أقتلك انت ورفقاءك . فقال القاضي اريد ان اسألك سؤالا فقال قل ما شئت قال اخبرني عن خمسة ارواح اكلوا وشربوا وليس لهم ام ولا اب ، فقال له انا ما عرفت سؤالك ثم التفت ابو بشارة الى رفاقه وقال اجيبوا سؤال هذا المسلم ، فقالوا لم نعرف سؤاله فقال يا قاضي ما عرفنا سؤالك فاشرحه لنا وخذ لك خمس دجاجات محشيات رز وصنوبر ، وكان ابو زيد مراده يطعمهم لحما حتى ترد روحهم اليهم ، فقال له بدير يا امير هؤلاء هم آدم وحواء وكبش اسماعيل وعصا موسى وناقة صالح فقال ابو زيد اخبرني عن موضع لا يجوز فيه الصلاة ، فقال له ظهر الكعبة ، فأمر ابو زيد بأخذهم الى موضعهم فأجابوه بالسمع والطاعة وأما ابو زيد رتب لهم كل يوم خمس دجاجات وما زالوا على هذا عدة ايام .

وفي ذات يوم من الايام قال ابو زيد يا امير حنا مرادي اسير الى بني هلال واقتل ابطالهم ورجالهم وادعهم بأوشم حال واقتل ابا زيد ونبقى ندبر امرا في هلاك الجميع ثم اشار يعلمه في هذا القصيد يقول :

هذه المحابيس يوم العيد نذبحهـم	واجعل دماهم في الارض طوفان
وجيب ابو زيد الماكـر واشنقـــه	ويشوفوا العذاب اشكال والـوان
وحياة ديني لاجعل قتلـــه شهرة	واجلي صدى القلب واكشف الاحزان

فلما فرغ ابو زيد من كلامه والملك حنا يسمع نظامه قال افعل ما تريد ، فقال ابو زيد مرادنا في هذه الليلة ان نعمل كيفية فقالوا حبا وكرامة وما كان الا برهة من الزمان حتى حضر الخمر فقالوا لا احد يسقينا غير ابـي بشارة ، لان يده مباركة فقام المذكور وصار يسكب الخمر ويسقيهم حتى سكروا فتركهم ابو زيد وسكر عليهم الباب وسار حتى وصل الى امراء بني

هلال وفتح باب السجن ودخل عليهم وقال : قوموا ! ولما راوه ارتعدوا منه وقالوا نحن في جيرتك يا ابا بشارة فقال لا تخافوا انا لست ابا بشارة انا ابو زيد وعليكم الامان فقالوا لله درك يا ابا شيبان ولولاك متنا في هذا المكان ولكن احذر من ابي بشارة لربما يعرفك ! فقال لهم كونوا براحة بال من هذا الامر ولازم اذيقه كأس الحمام فطيب خاطرهم ورفع عن وجهه اللثام وحدثهم بما جرى بينه وبين ابي بشارة وبما فعل بهم ، فلما سمعوا منه هذا الكلام ، شكروه فعند ذلك تقدم اليهم وفكهم من وثاقهم واخذوا يقطعون البراري والآكام ، حتى وصلوا لقومهم ففرحوا بهم فرحا شديدا ما عليه من مزيد وطلعوا لاقوهم بالطبول والزمور وشكروا الامير ابا زيد على تلـــك الفعال التي تعجز عنها صناديد الابطال وسلموا عليهم وقدموا لهم الطعام.

(قال الراوي) هذا ما كان من امر بني هلال واما ما كان من امر حنا والابطال فظلوا سكارى الى الصباح تفقدوا الاسارى ، فما وجدوهم وفتشوا على ابي بشارة فما وجدوه فحينئذ علموا القضية ثم صاح حنا فـــي الفرسان وامرهم ان يركبوا الخيل فركبوا ظهور المهارة وجدوا في قطع الصحاري طالبين بني هلال وما زالوا مجدين في سيرهم حتى قاربوا الارض التي فيها بنو هلال ، فقال لهم الوزير واخوه مرقص : خذوا أهبتكـــم للقتال واستعدوا للحرب والنزال ، فقال حنا واين هم بنو هلال ؟ فقال جرجس اذا اقمنا هنا الى وقت السحر وسرنا بلا مهل نصف النهار ، نصل الى بني هلال ، وفيما هم على ذلك واذا بخيل بني هــــلال طلعت ولمعت رماحها في شعاع الشمس وفي أوائلها ابو زيد ومن وراه دياب وحسن والقاضي وزيدان وفرسان الحرب والطعان ، فتبادرت اليهم عساكر جرجس وحنا وصاحوا بهم فارتجت لصياحهم الوديان فحمل عليهم دياب بـــدون جواب فتلقاه فارس يقال له الدهقان وتجاول هو واياه ساعة من الزمان، فحكم دياب عليه السنان وطعنه في صدره خرج يلمع من ظهره وكان معه عشرة من الفرسان ، فلما نظروا ما حل به ، حملوا على دياب فتلقاهم كأنه الاسد وفي أقل من ساعة قتل سبعة فرسان وانهزم الباقون وهم ينادون انقذونا من الجن ، فقد حل بنا العطب وانت قم يا حنا وقاتل الجان فقد برز الينا من هؤلاء القادمين شيطان بصورة انسان ، فقتل مقدمنا دهقان وسبعة من الفرسان . فلما سمع حنا هذا الكلام ، صعب عليه وكبر لديه وقال لهم كأن هؤلاء القوم ما عرفوكم ولو عرفوكم ما كانوا حاربوكـــم وان صدقني حزري فما هذا الجيش الا مع ابي زيد واظن انه لما خلص الاسارى سار الى العرب واتانا للطلب والآن يحل بهم العطب ثم انه غار عليهم ولـمـا

وقعت العين على العين علا الصياح من الفريقين ووقع السيف بين الطائفتين ونادى حنا تظنون اني اترك لكم مالي وما قتلتم من رجالي اليوم ابلغ منكم ماربي وآمالي فلما سمع ابا زيد كلامه قال له ويلك يا فاجر لمثلي تفزع هؤلاء الانذال وانا ابو زيد مقدم الافيال ! ثم امر رجاله بالحملة فحملوا من غير امهال ووقع بينهم القتال ساعة من الزمن فوقع بقوم حنا الفناء والدمار وخاب منهم الامل وايقنوا بحلول الاجل ، وخاضت بنو هلال الضبا وابروا الرقاب وطعنوا الصدور وقاتلوا قتال الجبابرة فلله در ابو زيد وما فعل ودياب وقد استقتل وسطا زيدان سطوة البطل ونزل الامير حسن بين تلك الامم حتى التقى في الوزير مرقص اخو جرجس فرآه ينخي الفرسان ، فاقبل عليه وطعنه بصدره بالرمح ، خرج يلمع من ظهره . فما نظرت قوم حنا الى مرقص وهو قتيل ، تصايحوا على حسن واسعروا نار الحرب وسالت الدماء وتطايرت الجماجم وخلت السروج من ركابها وكحلت الاجفان بموارد العما وثبتت عسار الملك حنا واجتهدت برد اعدائها فما قدرت ، بل هالها ما رات وانحلت عزائمها وتفرقت ، ولم يزل السيف يعمل والدم يجري الى ان امسى المساء ، فعند ذلك دقت طبول الافتراق وكفوا عن الحرب وكل فريق ذهب الى مكانه ، اما عساكر حنا فصاروا يقولون ان كان الامر على هذا الشأن فهذه مصيبة لا ترد الا بكثرة الفرسان واما بنو هلال فانهم هنأوا بعضهم بعضا بهذا النصر وباتوا تلك الليلة مسرورين ولما اصبح الصباح نهضوا للحرب والكفاح واذا بالوزير جرجس برز الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فنزل الامير دياب فالتقاه جرجس بقلب لا يهاب وقال له لو لم تكن جاهلا لما دخلت هذه الاوطان وطلبت قتالنا في شرذمة من الفرسان فسلم نفسك قبل الفوات. فضربه دياب على هامه. فلما نظر ملكهم حنا الى وزيره وهو قتيل ، صاح في قومه ائتوني بهذه العصابة القليلة حتى اشفي غليلي فحملوا عليهم من كل جانب ، فالتقتهم بنو هلال كالاسود وانطبقوا على بعضهم البعض وغطت الدماء وجه الارض وابو زيد ينثر الرؤوس ويبلي الفرسان بعد وجودها بالعدم فوقع في معسكر حنا التقصير ولما نظر الى عساكره قد انكسرت وبنو هلال قد انتصرت ، نادى في العساكر يشجعهم على الثبات ، فانطبقوا على بني هلال انطباق الليالي على الايام وحمل حنا بأوائلهم واخذ ينخي الفرسان فألقي به ابو زيد فحمل عليه وضربه بالحسام بين عينيه ، خرج من بين فخذيه واما دياب وبقية الفرسان فانهم فرقوا الكتائب واظهروا العجائب ولما رات عساكر الاعداء ما حل بملكها من الدمار ولت الادبار وركنت الى الفرار والتجأت

الى القلعة ، فتبعهم ابو زيد والفرسان فطلبوا الامان فاعطاهم الامان ورتبوا عليهم الجزية في كل عام ورجعوا الى مضاربهم كاسبين غانمين وفرق الامير حسن ما غنموه على الجميع واقاموا على شراب قهوة واكل طعام مدة ثلاثة ايام ، وبعد ذلك صمموا على الارتحال فهدمت الخيام وانتشرت الرايات والاعلام وركبت الفرسان ظهور الخيل والنساء والبنات في الهوادج ، وجدوا في قطع البراري والآكام حتى وصلوا الى حمص ، فاقاموا فيها خمسة ايام وكانت تأتيهم الهدايا من جميع الولاة والحكام ، ثم ارتحلوا الى بعلبك ومنها الى زحلة ، فطابت ايامهم لانهم كانوا يصرفون الاوقات في السرور والطرب، ثم ساروا قاصدين مدينة الشام فوصلوا اليها عند الظلام ونصبوا بقربها المضارب والخيام .

قصة شبيب التبعي

(قال الراوي) ان بني هلال بعدما قتلوا ابا بشارة العطار حاكم بلاد صهيون ، جدوا في قطع الفلوات حتى اقبلوا على مدينة الشام وكان الحاكم عليها شبيب التبعي ابن مالك ، وكان راى حلما في المنام ارعبه ، فجمع اكابر الديوان والاعيان وقال لهم رايت في منامي انه اتى الى هذه البلاد سباع مثل الجراد ، وكان كل سبع يأتي الى شجرة يقلعها بأنيابه ولا يبالي بالاخطار . وكان لهذا الملك وزير اسمه عميرة .

فلما فرغ الوزير من تفسير حلمه استعظم شبيب هذه الامور وكان قد بلغه قدوم بني هلال الى قرب الشام فزاد اهتماما على اهتمام ، لان ابا زيد كان عند رجوعه من تونس ومروره الى الشام قد استخلص من دار شبيب سرية عربية واسمها قنوع العامرية لما مر به وسار بها نحو بني هلال، فتاثر شبيب من هذه الافعال فاستدعى بنجاب وامره ان يسير في الحال ويكشف له اخبار بني هلال . فسار ودخل على بني هلال ، فأضافوه ثلاثة ايام ، ورجع لعند سيده وصار يخبر بما جرى له، شعرا .

فلما سمع شبيب الشعر والنظام صار الضيا في عينيه كالظلام فقال لمن حضر في الديوان : ما رايكم في هذا الشأن لان بني هلال حضروا الى هذه الاطلال بعساكر الرمال . فقالوا الراي قبل المبادرة بالقتال ان تطلب منهم عشر المال . فان اجابوك الى هذا الطلب بلغت القصد والارب ، والا

تحاربهم ونشتتهم في البر فاستصوب شبيب راي القوم وارسل يطلب منهم عشر المال .

وسطر بذلك كتابا وختمه وارسله مع نجاب الى الامير حسن ، فاخذ الكتاب وسار الى ان وصل الى الامير حسن ، اعطاه الكتاب ، فلما فتحه وقراه ، قال : لا حول ولا قوة الا بالله ، ثم جمع بني هلال وقال ما هو رايكم ؟ فقال الامير ابو زيد والامير دياب ليس عندنا جواب الا الحرب . فحينئذ قال الامير حسن للرسول اذهب الى مولاك شبيب وقل له انــي سارسل له الجواب في وقت قريب وبعد ذهاب النجاب ، نهض ابو زيد وقال اعلم ايها الملك الهمام ان شبيب ملك دمشق الشام استعد لمحاربتنا والراي الصواب ان اسير مع بعض الفرسان الى تلك الديار لكشف الاخبار والوقوف على عدد العساكر والابطال التي تجهزت للحرب والقتال وذلـك بصفة شعراء ، لعلنا نبلغ المقصود . فاستصوب الامير حسن هذا الكلام واستقر الراي على مسير ابي زيد ودياب وعرندس والرياشي مفرج وابي الليث الكندي الى تلك الديار ، ليجسوا الاخبار ، وفي ثاني يوم استعدوا للمسير وجدوا في قطع البراري حتى وصلوا الى دمشق الشام ، فدخلوا بسلام وقصدوا الامير شبيب حتى دخلوا عليه وسلموا عليه ، وكان جالسا على كرسي مرصع بالجواهر يدهش العقل ويذهل البصائر ، وحوله الاتباع والخدم ، فرد عليهم السلام وقال من تكونون من العرب ايها الاجواد ؟ فقالوا نحن شعراء نقصد الملوك والامراء، فنمدحهم بالقصائد الحسان ونرجع بالخلع والاحسان ، وقد سمعنا بجودك ومكارم اخلاقك وحسن مزاياك ، فاتينا اليك لنمدحك وننقل ثناك ونرجع مجبورين الخاطر للديار ، ثم ان ابا زيد عدل الرباب وصار يمدحه :

يقول الفتى المدعو الامير سلامـــة ... بدمع جرى فــوق الخدود سكيب
ركبنا وجينا يا امير على نقـــا ... من فوق نوق شبه ريـح هبيب
نقلنا لها يا نوق اين مسيركـــم ... فقالت الى نحـــو الامير شبيب
شبيب بن شيبان بـن مالـــك ... امـير البوادي والبـــلاد شبيب
شبيب الـذي كـل البلاد عيالـه ... ونحن يقينا مـــن عيال شبيب
شبيب فتى لا يوجد في الترك مثله ... ولا ربت العربـــان مثـل شبيب
يا امير اعطنا ولـك منا الثنـــا ... فنثني عليك عند الضحى ومغيب

فلما فرغ ابو زيد من كلامه شكره شبيب على حسن نظامه ثم انــه صرف معهم هذا النهار في الحديث والاخبار ، ولما اصبح الصباح ، استعد شبيب الى الصيد مع الفرسان وابنه صقر ، فالتفت شبيب الى الشعراء

وقال لهم : لماذا لا تركبون معنا ؟ فقالوا هو عدم وجود الخيل ، لان مطايانا لا تصلح للركوب في الوعر والسهول . فامر لهم شبيب بخمسة افراس من الخيل فذهبوامع السايس الى الاصطبل وجعل ابو زيد ينظر في الخيول فلم يعجبه سوى جواد شبيب وهو غطاس وكان ابو زيد قصد بهذا العمل ، اكتشاف خيول شبيب ، فعاد السايس واعلم شبيب بذلك الخبر ، فقال له اعطه اياه ان كان يقدر يركبه ، فعاد السايس الى ابي زيد وقال له اعلم يا شاعر العرب ان هذا الحصان هو جواد الامير شبيب الغطاس فلا يقدر احد منا ان يقرب منه فخذه ان كنت تقدر عليه . فتقدم ابو زيد اليه ، فصهل الحصان حتى زعزع المكان ، فلطمه ابو زيد بالكف بين عينيه وسرجه، وركب عليه وسار الى عند شبيب ، فتعجب منه كل العجب وقال في نفسه وحق ذمة العرب ان هذه الافعال لا يقدر عليها الشعراء ، بل صناديد الإبطال وقد تأثر من ذلك الامر ثم انهم ساروا في جوانب البر وصاروا يصطادون حتى صار وقت العصر ، فارتدوا راجعين قبل دخول الليل . .

في اثناء طريقهم ، جعل شبيب ميدانا لسباق الخيل ، فامتثلت لامره الفرسان وجعلوا يتسابقون في الميدان ، فعلم ابو زيد على الجميع بالسيف والسنان ، حتى حير العقول وأذهل الابصار ، فرجعوا الى البلد ونزل ابو زيد في دار الضيافة مع جماعته ، وكان للتبعي رمال اسمه عكرمة ، فاجتمع به على انفراد وقال له اريد ان تعلمني عن هؤلاء الشعراء ، هل هم جواسيس ؟ فقال السمع والطاعة . ثم أحضر الرمل وولد البنات مع الامهات وجعل يعلمه ببعض الابيات .

فلما فرغ الرمال من الشعر ، عرف شبيب فحوى الحديث والكلام ، فغضب غضبا شديدا ما عليه من مزيد ، وفي الحال أحضر ابو زيد ومن معه من الرجال وصاح فيهم اتيتم ايها الاشرار الى هذه الديار لتجسس الاخبار ونسبتم انفسكم بأنكم شعراء تمدحون الملوك والامراء فلا بد من قتلكم !

ثم ان الامير شبيب أمر العبيد ان يأخذوهم الى المشنقة ، فامتثلوا امره واخذوهم ودوروهم في المنازل والاطلال وبعد ذلك رجعوا الى المشنقة وارادوا ان يشنقوهم واذا بصقر ابن الامير شبيب اتى ونزل عن ظهر الجواد وقطع المرس من رقابهم ، فوصل الخبر الى شبيب ، فأحضرهم عنده في الديوان ، ووبخ ولده على هذا الشان وقال هؤلاء من بني هلال اعدائنا ، اتوا الى منازلنا ليقتلوا الرجال ويدعونا بأوشم الاحوال ، قال له صقر ليس عندي خبر هذا الامر وقد جرى وصار فشفعني في هؤلاء الشعراء ولا تبطل

كلامي وتنقص بين الشباب مقامي ، واذا قتلتهم من دون سبب ، فتبقى معيرة بين العرب . فقال شبيب نلقي عليهم مسائل واذا لم يعرفوها نقتلهم، ثم انه التفت الى ابي زيد فقال له مرادي احضر شعراءنا ليرموا عليك رموزا، فان لم تعرفها فاني اقتلك واعجل من الدنيا مرتحلك ، قال ابو زيد افعل ما تريد يا ابن الاماجد . فعند ذلك احضر الامير شبيب شعراء بلاده وكانوا اربعة وعشرين شاعرا وكبيرهم يدعى صولجان بن ماهر ، فلما حضروا امرهم ان يرموا رموزا على ابي زيد ورفاقه فأجابوه بالسمع والطاعة ، فالتفت ابو زيد الى صولجان وقال له يا سيد الفرسان مرادي قبل ان تبدي شعرك وقصيدك ان تأتي لنا بطعام حتى يصير بيننا خبز وملح ، فأجابه بما قال وسار الى بيته وأحضر الى ابي زيد قصعة ملانة عصيدة وفيها ملعقة وقال كل يا ابن الكرام وادع لنا بدوام العز ، فأخذ ابو زيد شقفة براس الملعقة وذاقها فوجدها مرة مثل الحنظل قال هذا زادك لا رحم الله شبابك يـا ذليل يا مهان هات ما عندك من الاوزان ، فعند ذلك تقدم الصولجان وأخذ الرباب وبدأ يلعب حتى أطرب ذوي العقول والالباب اما ابو زيد فكان يرقب الكواكب ، فرأى نجمه سعيدا ففرح بذلك فرحا شديدا ما عليه من مزيد، فلما رآه الصولجان ينظر في الكواكب ظن انه ينظر الى بنات نعش فقـــال شعرا ، فرد عليه ابو زيد بشعر فهم فحواه .

فلما فرغ ابو زيد من كلامه وشاعر طي يسمع نظامه تعجبوا من ذكاء ابي زيد وما عاد الشاعر يعرف يجاوبه فاغتاظ شبيب غيظا شديدا ما عليه من مزيد وحلق ذقن الشاعر وطرده من عنده والتفت الى ابي زيد وقال له بقي عليك ان تغلب ستة أبطال ان غلبوك قتلت انت ورفاقك ، فأجابه ومن هم ؟ فقال المصارعون والمشابكون والمدافعون ورمايو النشاب وحمالوا العلم وطباخو الكيميا . فقال ابو زيد ان لم اغلبهم فاننا لا شك هالكون ، ثم انهم باتوا تلك الليلة الى الصباح ، فقام شبيب واحضر كبير المصارعين وهو بطل رزين ليس له قرين ، فلما رآه ابو زيد قال له يا اخا العرب دونك والطلب فلا بد ان اجعلك في التراب ، فقال له المصارع دع عنك شقشقة اللسان يا ذليل يا مهان والآن يظهر الشجاع من الجبان ، فقال ابو زيد : اليوم عندي عيد بقتلك يا مهان ، ثم نهض واثبت الاقدام واسرع اليه مثل الاسد الضرغام، والتقى البطلان كأنهما جبلان وحان عليهما الحين وزعق فوق راسيهما غراب البين ، قال وكان المصارع مخبئا حربة مثل الثعبان وهي شغل بلاد الروم مدخرها لمثل هذا اليوم فرآها دياب وقال : خذ بالك يا امير من هـــذا الشيطان وانظر هذه الحربة التي كأنها نقمة . فقال ابو زيد رأيتها قبلك

يا دياب وهذا اليوم ادعيه ملقى على التراب ، ثم اصطدما وافترقا وابتعدا، وما زالا على هذا الحال مقدار ساعة من الزمان حتى هجم ابو زيد على المصارع وعرقله برجله رماه الى الارض واتكأ على عنقه وظل كامشا عليه حتى خرجت روحه من بين جنبيه ، ثم تقدم المدافق ودافق ابو زيد ساعة من الزمان ، فالتقاه بهمة وعلو شأن ، وضربه بالعصا على دماغه فطرش بزر مخه ومات فتقدم المشابك وشابك ابو زيد ففرك انامله ولقطه من يده ملخها من الباط فتقدم رامي النشاب ، فذهب ابو زيد ووقف في تلـــك الهضاب ، واما ذلك الرجل ، فرشق ابو زيد اربعين رشقة فما اصابه شيء ، ثم ضربه ابو زيد بنشاب فرماه على الارض قتيلا وبدمائه جديلا ، فعند ذلك تقدم حمالوا العلم فغلبهم وكذلك طباخو الكيميا طلعت طبخته احسن من طبختهم ، ثم التفت الى شبيب وقال له يا امير لك عندنا شيء بعد هذا الانتصار ، فاتركنا نذهب الى اهلنا ، فقال له لا شك انك عفريت من عفاريت سيدنا سليمان ، ثم أمر الخدم ان يأخذوهم الى السجن ، فأخذهم في الحال ، ووضعوا في أرجلهم القيود والاغلال ووكلوا بهـــم جماعة من صناديد الرجال ، وكان الامير دياب ومن معه من الاصحاب في خوف واحتساب من القتل والعذاب ، وقد قطعوا الامل من السلامة ، فجعل ابو زيد يشجعهم ويقول لهم ان الفرج قريب بعون الله السميع المجيب واننا في هذه الليلة نذهب الى اهلنا ونناك المأمول ، فاطمأنوا وجعلـــوا يتحدثون حتى اظلم الظلام ونامت الحراس ، فعند ذلك اخرج ابو زيد من الكيس حجر المغناطيس وألقاه على القيود والاغلال ، فتساقطت في الحال، وقال هلموا بنا للذهاب فقد تخلصنا باذن الله ، فنهضوا في الحال وجدوا في قطع الروابي والتلال حتى وصلوا الى بني هلال وكان وصولهم عنـد الصباح ، فدخلوا على الامير حسن ، فالتقاهم بالسرور والافراح وقـــال الحمد لله على سلامتكم لاني كنت مضطرب الافكار عليكم فاخبروني بأحوالكم وما جرى لكم مع شبيب في سفرتكم ، فأخبروه بحديثهم ، فشكروا الله على خلاصهم من الاعتقال واثنى على ابي زيد نظرا لما ابداه من حســـن الفعال ، وبينما هم في هذا الحال الا وقد اتى اليهم مرسال من عند الامير شكيب بكتاب يطلب فيه عشر المال وذلك بعدما تفقد المحابيس فلم يجدهم، فأجاب السلطان حسن بعد ان عرف حقيقة الاحوال وعرف ما عند شبيب من الفرسان يقول :

يقول الفتى حسن الهلالي ابو علي	فلـــي حربة كالمشعل الموقـــود
ولـــي همة تعلو على كـــل ماجـــد	اخلي الاعادي على الجبـــال شرود

تهيا غدا ابا شبيب لحربنا ... مع كل ابطالك وكل جنود
فكم حاكم مثلك ملكنا بلاده ... من بعد حرب يشيب المولود
تريد منا اليوم عشر اموالنا ... فسوف ترى منا رجال اسود

فلما فرغ حسن من هذا الخطاب ، طوى الكتاب وسلمه للنجاب وامره ان يسير الى سيده بالعجل ، فاجاب وامتثل ، ولما دخل على سيده سلمه الكتاب ، فلما قراه غاب عن الصواب وفي الحال امر العساكر والابطال للاستعداد الى الحرب والقتال ، فلما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح ، دقت طبول الحرب واستعدت العساكر للطعن والضرب وركب شبيب في اول الفرسان وحوله الوزراء والاعيان وساروا الى قتال بني هلال وكانت بنو هلال قد استعدت في ذلك النهار . ولما تقابل الجيشان برز شبيب الى ساحة الميدان وطلب مبارزة الشجعان ، فبرز اليه ابو زيد ، فلما رآه شبيب حمل عليه وانشد يقول :

يقول شبيب التبعي ابن مالك ... صرفت كل الليل بالتفكير
ابو زيد يابو زيد يا ولد الخنا ... فأنت ردي الاصل يا طنجير
ذهبت لارض القيروان وقابس ... ترود الارض مثل لص حقير
رجعت الى اهلك اتيت بجمعهم ... اخذت قنوع والظلام عكير
وبسوء فعلك قد حبست رفاقتك ... وخبثك بين الانام كثير
فوالله انبي قاتلك بمهند ... واهرق دماك مثل نهر كبير
واقتل دياب الخيل صبحا او مسا ... واجعل حسن من ضرب سيفي يطير
اجاب ابو زيد الهلالي سلامة ... ونيران قلبي زايدات سعير
انا ابو شيبان قهار العدا ... افك رموز العلم بالتفسير
ولا فخر للمرء الا فعاله ... وفرط السخا وكل فضل شهير
انا الرجل الذي يبرد حربته ... يوم الوغا في صدر كل امير
اليوم تنظر حربنا وقتالنا ... وفعالنا حقا بلا تنكير

فلما فرغ ابو زيد من هذا الشعر والنظام ، انطبق الفارسان على بعضهما واخذا في الحرب والصدام ، وكان شبيب من الجبابرة ، فقاتل قتال الاسود وفعل فعالا تشيب المولود ، فثبت ابو زيد امامه كالجبل الراسي والتقاه بقلب اقوى من الصوان ، فكانا تارة يتقدمان وتارة يتأخران كأنهما اسدان كاسران ، وقد تعجبت من قتالهما جميع الفرسان وتعلمت منهما حقيقة الضرب والطعان ، وما زالا على تلك الحال الى قرب الزوال وكان ابو زيد قد انحل عزمه وقصر ، فرجع الى الوراء ، فعند ذلك دقت طبول الانفصال ، فافترقت العساكر من الميدان ورجع ابو زيد في اسوأ حال مما شاهده من الاهوال ، فسأله الامير حسن عن خصمه ، فقال انه فارس

شديد وبطل صنديد ، واني قد بارزت الابطال في معارك النزال ، فما وجدت أفرس منه في القتال ولما اصبح الصباح وشرق بنوره ولاح ، ركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلوا بالرماح والنصول ، واصطفت الصفوف وترتبت المئات والالوف فكان اول من برز الى ساحة الميدان وطلب مبارزة الفرسان الامير شبيب ، فبرز اليه الامير دياب وهجم عليه كليث الغاب ، فالتقاه شبيب في الحال والتحم بين الفارسين القتال ، الى ان اقبل الظلام وكان الامير دياب قد ابصر في ذلك النهار من قتال شبيب ما يذهل الابصار ويحير العقول والافكار فلم يقدر ان ينال منه المرام ، فارتد راجعا الى الوراء ثم نزل الى الميدان القاضي بدير وتصادم مع شبيب نحو ثلاث ساعات ، وكان القاضي قد كل ومل وضعف عزمه وانحل ، فرجع وتأخر خوفا من وقوع الخطر ، فبرز اليه الامير زيدان وتقاتل معه في ساحة الميدان ، وبعد قتال شديد وحرب ما عليه من مزيد ، ولى الامير زيدان من امامه خوفا من حربه وصدامه ، ثم تقدم غانم ابو دياب وتقاتل معه القتال الشديد وثبت ثبوت الجبابرة الصناديد ، الا انه لم يكن من رجاله ولا يعد من اقرانه ، فما مضى ثلاث ساعات حتى طلب الهزيمة والفرار ، فبرز اليه الامير عرندس فجال معه وصال وتقاتلا في ساحة المجال الى وقت الزوال ، وكان عرندس قد ضعف عزمه ، فولى هاربا ، وبعد ذلك دقت طبول الانفصال فرجعت عن بعضها الفرسان والابطال وكانت بنو هلال قد اعتراها الانذهال وخافت من عواقب الاحوال ، فلما رجعت الى الخيام جمع الامير حسن الامراء الكرام واستشارهم في امر شبيب فقالوا انه فارس جبار وبطل مغوار لا يصطلى له بنار هجماته هجمات الاسود وقلبه اقوى من الجلمود ومن الصواب ان نحاربه غدا بالعسكر ونترك مبارزته الى يوم اخر ، بينما يكون تعب من القتال ، فحينئذ تبرز اليه الابطال ، فاستصوب الامير حسن مشورتهم وباتوا تلك الليلة على هذه النية وفي قلوبهم نار الحمية ، ولما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح ، استعدت بنو هلال للحرب والقتال فدقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول واعتقلت بالرماح والنصول ، وركب الامير حسن وتبعته جميع أبطاله وفرسانه ، وكان شبيب قد التقاهم بالعسكر ، فعند ذلك حمل وصاح وحملت معه فرسان الكفاح ، وفي الحال التحم القتال وكانت بينهم وقعة عظيمة ، قتل فيها خلق كثير ، ولله در الامير ابو زيد والامير دياب ، فانهما هجما على الرجال وحكما السيوف والحراب في الصدور والرقاب ونكسا البيارق بطعن اشد من نزول الصواعق ، وفعل شبيب ايضا في ذلك النهار العجب والقى نفسه في العطب ، وداموا على

تلك الحال الى وقت الزوال ، فعند ذلك دقت طبول الانفصال ، فرجعت الفرسان والابطال ، وفي اليوم الثاني ، اصطفت الصفوف وترتبت المئات والالوف والتقت الرجال بالرجال والابطال بالابطال وكان يوم شديد الاهوال، انتصرت فيه عساكر الشام واسْرت فيه عدة من البنات والنسوان ولما اقبل الظلام رجعوا وباتوا في الخيام وفي الصباح برز الامير حسن الى الميدان فبرز له شبيب .

فانطبق عليه الامير حسن كليث الآجام فالتقاه التبعي بالحسام وتجاول معه في معركة الصدام حتى حجبهما الغبار عن العيون والابصار ، وما زال الامير حسن يحارب شبيب حتى ابصر منه الاهوال فقال له دعنا الان من القتال وفي الصباح نعود الى المبارزة ، فتبسم شبيب وقال انا امهلك ثلاثة ايام ، ثم رجع عن القتال ، وعند رجوع حسن قالت له الجازية لم رجعت والعرب ليس لها رجعات في الوقائع والغارات ، فتحمس الامير حسن ورجع الى خصمه وطعنه طعنة نهمة وحمية فأصابته في رقبته ووقع عن ظهـــر الجواد فأدركه قومه في الحال ونشلوه من ساحة المجال وهو يقاسي الالم والاوجاع ، هذا وقد ارتدت العساكر على بعضها البعض ، واقتتلوا قتالا شديدا كثرت فيه الاهوال وجرى الدم وزاد الخوف وعظم البلا وتمددت القتلى على وجه الفلا ، واستمر القتال على هذا المنوال الى وقت الزوال ، وكانت بنو هلال قد حلت أسراها من الاسر والاعتقال بضرب السيف وطعن النصال ، فعندها دقت طبول الانفصال فارتدت عن بعضها الفرســـــان ورجعت بنو هلال في فرح واستبشار على ذلك النجاح والانتصار ، وأما الملك شبيب لما راى حاله طريح الفراش ، زاد عليه الخوف والارتعاش ، واسودت الدنيا في عينيه ولاسيما عندما رأى الاهل والاصحاب في عويل وانتحاب ، فتنهد من فؤاد متبول .

ثم غاب عن الدنيا لكثرة آلامه فوقع في قومه البكا والنحيب . هذا ما كان من امر شبيب ، وأما ما كان من بني هلال فان الامير حسن جمع سادات الرجال وقال لهم مرادي هذا الصباح أبادر الاعادي بالقتال والكفاح ، فقال ابو زيد تمهل فسوف تبلغ القصد والامل وأنا مرادي عند طلوع النهار ان ادخل المدينة وانا بصفة طبيب لعلي أجتمع بشبيب فيفرح قلبي ويطيب ، فقال حسن افعل ما تريد ايها الفارس الصنديد . فعند ذلك سار ابو زيد الى مضربه ولبس افخر الحلل وتعمم بعمامة كبيرة ولبس جبة قصيرة وغسل وجهه ببعض العقاقير ، فصار ابيض مثل الثلج حتى لم يعد يعرفه احد من الانام ، ثم ركب ظهر فرس اصيلة ودخل مدينة الشام وجعل يجول في

الاسواق وهو ينادي انا الطبيب انا الحكيم ، فمن فيه علة ازلتها عنه باذن الله ؛ وما زال يطوف ويجول وينادي ويقول انا الحكيم انا الطبيب ، حتى وصل الى قصر شبيب ، وكان لشبيب ولد مثل البدر يقال له صقر ، فاتفق انه كان هناك وسمعه فقال في نفسه ان هذا الطبيب رجل غريب ولو لم يكن من الشطار والحذاق ما كان يطوف في الاسواق ، فمرادي ان يداويه لعله يشفيه ، ثم طلبه فحضر وسلم عليه ، فسأله : هل انت حكيم ؟ قال نعم. قال اذا شفيت ابي وأزلت عنه المرض ، اغنيتك الى الابد ، وقدمتك على جميع اطباء البلد . فقال سأبذل الجهد واداويه ولا اخرج من هذا القصر حتى اشفيه ، ففرح كل من حضر هناك بهذا الخبر وزال عن قلوبهم الغم والكدر ، ولم يعلموا بأن الطبيب هو عدوهم الاكبر ، ثم تقدم ابو زيد الى شبيب في صفة حكيم وطبيب وهو يترقب الفرصة ليقتله ، وكان راس شبيب معصوبا بمنديل وهو يتنهد من قلب عليل ، ففك العصبة ومسح الدم ووضع لـه المراهم وقال : زالت الاضرار باذن الواحد القهار . فاتفق ان شبيب فتح عينيه فراى ابا زيد حوله ، فخاف وايقن بالموت الاحمر ، فصاح من حلاوة الروح بصوت خفيف : هذا ابو زيد ! هذا ابو زيد ! فقال الحاضرون ما يقول شبيب ايها الطبيب ؟ قال يريد ان تملأوا السراج زيتا وتخرجوا جميعا من البيت حتى يستريح ويزول عنه اليأس ، لان العليل تضيق اخلاقـه بكثرة الناس . ففرحوا وخرجوا من القاعة ، ولما خلي المكان ، اخرج ابو زيد من جنبه السكين ، وذبح شبيب من الوريد الى الوريد ، ثم غطاه لفوق راسه وخرج ، فسألوه عن حال شبيب فقال : انه بخير ، فلا تدخلوا عليه الا بعد ساعة لبينما يكون قد صحى من النوم ولا بد ان يشفى من علته في هذا اليوم لاني عالجته بأحسن علاج ، فلا تكونوا في قلق وانزعاج ، فشكروه على ذلك الاهتمام ووعدوه بالخلع والانعام ، ثم ودعهم وسار ، وأما زوجة شبيب وباقي الجماعة ، فانهم بعد ذهاب ابي زيد بساعة ، دخلوا على شبيب فوجدوه على تلك الحال ، فخرجوا عن دائرة الاعتدال وعلموا ان الطبيب كان ابو زيد المحتال ، فاستعظموا الامر واقاموا العزاء والنحيب على وفاة شبيب وهم يلعنون ذلك الطبيب ، وكان لشبيب اخ اسمـه الصحصاح ، وكان من الابطال ، فاسودت الدنيا في عينيه وقال لا بد لي ان اتبع هذا الغدار وأسقيه كأس الدمار ، ثم سار وراءه وهو يهدر كالاسد الى ان التقى به قرب طاحون ، فلما نظره ابو زيد عرف انه الصحصاح وانه يريد قتله ، فدخل على الطاحون وغيّر لونه بالاعشاب ونزع عنه تلك الثياب، ثم خرج ووقف على الباب ، فلما وصل الصحصاح اليه سألـه في قلب

محزون اعلمني اين صاحب هذه الفرس ؟ فقال له في الطاحون فنزل عن الحصان وسلمه الى ابي زيد ثم سل سيفه ودخل الى الطاحون فلم يجد سوى الطحان هناك فضربه اورثه الهلاك وخرج في الحال وهو يظن انه قتل ابا زيد فوجد ابا زيد على ظهر الحصان وقال له من تكون فطعنه ابو زيد بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره ومات ، فسار ابو زيد وهو مسرور على ما فعل حتى دخل على الامير حسن في الصيوان وحوله الامراء والاعيان فاعلمه بما جرى وكيف قتل شبيب والصحصاح ورجع بالفوز والنجاح ، فشكروه على ذلك الاهتمام وقالوا لا عدمناك يا فارس الصدام ، فقد هان علينا الحال وبلغنا المرام ، وسوف نبادر الاعداء بالحرب والصدام .

هذا ما كان من بني هلال ، وأما ما كان من اهل شبيب ، فانهم لما علموا بقتل الصحصاح ، زاد عندهم النواح ، واحضروه لجانب اخيه ، واقاموا عليهما النحيب ، فتقدمت جنوب زوجة شبيب ترثيه بهذه الابيات :

تقول جنوب الحميرية بما جــرى	بدمع جرى فوق الخـدود سكيب
الايام والدنيا كفـــى الله شرهـا	ومن عاش فيها ينظـــر التنكيب
فما اضحكت الا ابكت بعد ضحكها	فيا لها من حسرة بعـــد شبيب
شبيب الذي فرقع لهالرعد بالسما	وصاحت ديوك العرش مات شبيب
شبيب الذي ما ربت الترك مثلـه	وما ربت الدايات مثـل شبيب
شبيب الذي يلقى الضيوف بفرحة	ومسرة ولـو كان الزمـان جديب
فيا ليت من كان السبب بفراقنا	يقتـــل بحد الماضيـــات قريب
الا يا حمام النوح نوحوا واندبـوا	وابكوا على فقـــد الامير شبيب
يا هل ترى الايـام عادت تلمنـــا	وتجمعنـــــا بـــــه بوقت قريب

فلما فرغت من هذه المرثية ، جعلت تبكي وتنوح وتلطم على خدودها من شدة الاسف وتقول : والله لقد انهدم بعد شبيب العز والشرف ، فبكت الناس لبكاها وعزوها على ما دهاها ، ثم اجلسوا شبيب على كرسي من الذهب الاصفر مرصع بالدر والجوهر ، والبسوه عدة الحـــرب وتقدمت البنات والنساء والامراء والسادات ، وبكوا عليه حتى كثر الصياح وارتفع البكاء والنواح ، وتقدمت جنوب وقبلته بين عينيه وقالت باطل يا ابـــا الخنساء ، لماذا انت نايم يا مقري الضيوف ؟ قم وانظر الى هؤلاء الامراء الذين جاءوا لضيافتك ، فمالك لا تقوم بواجبهم ؟ ثم سحبت خنجـــرا وصارت ترقص وتقول انا من بعدك لا اريد الحياة وبسرعة جنونية اغمدت الخنجر في بطنها ، فحينئذ ضج الجميع في العويل وكثرت الولاويل ثم دفنوا الثلاثة باحتفال عظيم ، واقاموا مناحة طويلة ، هذا ما كان من هؤلاء وأما ما كان من بني هلال ، فانهم استعدوا للحرب والقتال ، فاعتقلـــوا

بالسيوف والنصال وهجموا على المدينة بقلوب كالجبال ومكنوا الضرب على الرجال من اليمين والشمال ، ونهبوا ما فيها من الامتعة والاموال ، فعند ذلك خرجت الامراء والاعيان وابنه في جماعة من النسوان ، وطلبوا من الامير حسن العفو والامان ، فأجابهم الى ذلك الشأن ، وارسل مناديا ينادي في الاسواق بالامان ، فتوقف القتال وخرجت بنو هلال واقامت في الخيام وبلغت المرام وزالت عنها الاوهام ، وبعد ذلك بعشرة ايام ولى الامير حسن الامير صقر مكان ابيه ، ثم أمر بدق طبل الارتحال ، فهدموا الخيام والمضارب وركبت الفرسان ظهور النجائب ، وجدوا في قطع الروابي والآكام حتى وصلوا الى القدس الشريف بعد ستة ايام ، فنزلوا خارج المدينة في المضارب والخيام ، وزاروا الاماكن المقدسة بكل احترام وتصدقوا على الارامل والايتام ، ثم رحلوا منها بعد عشرة ايام قاصدين غزة بقلوب معتزة .

قصة السركسي بن نازب

(قال الراوي) فلما وصلوا اليها وجدوها محصنة ، فنصبوا حولها الخيام والاعلام ، وفرقوا مواشيهم في جوانب أقطارها ، واكلوا من محصولها واثمارها ، فلما رات الرعيان تلك الفرسان قد ملأت البراري ، ذهبوا الى ملكهم واعلموه بذلك الشأن ، وكان ملكهم قوي الجنان ، صاحب جيوش ومواكب ، يقال له السركسي بن نازب ، وكان عدد عساكره خمسمائة الف من الابطال يعتمد عليهم في الحرب والقتال ، فلما بلغه الخبر من الرعيان بقدوم بني هلال ، جمع الوزراء والاعيان واكابر الديوان واستشارهم في ذلك الشأن وكان عنده وزير ذو راي وتدبير يقال له الامير راشد ، فقال اعلم ايها الملك الهمام انني أخبر الناس ببني هلال وأعرف ما عندهم من الغنم والجمال والخيل والاموال لانني ذهبت الى نجد وأقمت فيها جملة ايام فعندهم اربع تسعينات الوف وبناتهم مثل البدور ، وبما انهم اقبلوا الينا فمن الصواب ان نبادرهم بالحرب والقتال وننهب ما عندهم من الاموال ، لاننا اشد منهم بأسا واقوى مراسا ، ثم اشار يصف له بني هلال وبناتهم .

ولما فرغ السركسي طوى الكتاب وسلمه الى النجاب وامره ان يأخذه الى الامير حسن ويأتيه بالجواب فأخذه وسار وما زال يقطع الروابي والتلال

يطلب منهم عشر المال .

فاستصوبه السركسي وقد طمع في مال بني هلال وفي الحال كتب لهم حتى وصل الى بني هلال فدخل على الامير حسن وسلم عليه واعطاه الكتاب . وكان حسن جالساً وسط الديوان وحوله الامراء والاعيان منهم الامير ابو زيد والامير دياب وغيرهم من السادات والانجاب ، فلما فتح الكتاب وقراه وعرف حقيقة ما حواه ، عرضه على الامراء ، وقال لهم ما رايكم ايها السادات ؟ فقالوا ما عندنا سوى الطعن ، فعند ذلك اشار الامير حسن يجاوب السركسي على كتابه ، ثم سلمه الى النجاب فأخذه وسار الى السركسي بن نازب ، فسلم عليه ثم ناوله الكتاب فلما قراه وعرف ما تضمنه ، طار الشرر من عينيه وأمر بجمع ثلاث مائة الف بطل بالاسلحة الكاملة والعدد الشاملة وركب في اول العسكر مع الامير راشد الوزير وحوله الاعلام والرايات والفرسان والسادات وجد في قطع البراري والقفار لقتال بني هلال ونهب الامتعة والاموال . ولما عرفت بنو هلال بقدومه استعدت للقتال والنزال وركب الامير حسن وتبعته بنو هلال ، وكان الامير ابو زيد راكبا عن يمينه والامير دياب راكبا عن شماله ، ولما التقت العساكر ببعضها البعض ، وقف كل فريق في ناحية من الارض وكان اول من برز الى ساحة الميدان وطلب مبارزة الفرسان السركسي وهو كالليث ، فبرز اليه ابو زيد في الحال فالتقاه السركسي وتناشدا شعرا .

ثم انطبق ابو زيد على السركسي انطباق الرعد في الغمام فالتقاه السركسي كأنه ليث الآجام واخذ معه في الطعن وضرب الحسام ، وكان السركسي افرس زمانه ولا احد يعادله في ميدانه وكانت تضرب به الامثال وتهابه الفرسان والابطال ، فقاتل خصمه أشد قتال وضربه بحد الحسام ، فاستتر ابو زيد بالدرقة نزات الضربة على رقبة الحصان ، فبرتها كما يبري الكاتب القلم . فوقع ابو زيد على الارض ، فهجم السركسي عليه وأراد ان يكمل عليه ، فلما راى ابو زيد تلك الحال ، خاف الهلاك والوبال فطلب منه ان يعفو عنه فأجابه الى ذلك الشان وقال له إذهب من الميدان وارسل لي الامير دياب حتى أعلمه حقيقة الضرب والطعن او تحضروا لي عشر المال حتى اوقف عنكم القتال ، فرجع ابو زيد بغاية الكدر ورجع معه باقي الجيش والعسكر حيث كان اظلم الظلام واعتكر ، ولما وصل الى المضارب التفت به النساء والبنات وسالوه عن حاله وما جرى في قتاله .

ثم ذهب ابو زيد بنفسه الى الامير حسن واعلمه بما جرى وكان ، فتعجب الامير حسن وباقي الامراء ، وقالوا ما دام الامر على هذا الحال ، فما بقي

غير الامير دياب أن يبرز الى السركسي ، لعله يبلغ منه الآمال والا تضعضعت منا الاحوال ، فاستصوب الامير حسن هذا الكلام وصار يحمس الامير دياب والامير يرد عليه .

فلما فرغ الامير دياب من كلامه ، شكره الامير حسن على حسن اهتمامه ، ولما اصبح الصباح ، برز السركسي الى ساحة المجال فصال وجال وطلب مبارزة الابطال فبرز اليه دياب كأنه ليث الغاب وهو راكب على الخضرا ، فالتقاه السركسي بقلب كالصوان وقال له من تكون من الفرسان؟ فقال انا الامير دياب بن غانم . فضحك السركسي والتقاه في ساحة المجال واقتتلا بالرماح والنصال اقوى قتال وهجما على بعضهما هجوم الاسود وما زالا على تلك الحال الى وقت الزوال ، وكان السركسي من اقوى الفرسان في تلك الايام ، فانه استطال على الامير دياب بعد ان لعب عليه اثنين وسبعين بابا ، فهرب من امامه مع عسكره ، ولم يثبت لحربه وصدامه حتى دخل المضارب والخيام وهو مقهور ، فرجع السركسي الى قومه بغاية الفرح والسرور ، وبات تلك الليلة مشروح الفؤاد على نيل المراد ، واما دياب فرجع غائبا عن الصواب حتى اقبل على الامير حسن ، فصار يخبره بهذه الابيات :

قال المدعو الامير دياب	النار في قلبي تزيد لهاب
يا حسن اسمع كلامي وافتهم	واصغي الى قولي ورد جواب
السركسي ما رايت مثله فارس	يفتح علي بالحروب ابواب
وقد هالني لما يروح ويرتجع	ينزل علي مثل سبع الغاب
ما له مثيل في هلال وعامر	أيضا ولا في ساير الاعراب
قوموا بنا بالليل حتى نرحل	يا ابو علي الراس مني شاب

فلما فرغ الامير دياب من كلامه وامراء بني هلال تسمع نظامه ، خافوا من الشرور وعواقب الامور ، وجعلوا يتشاورون في قتال ذلك البطل ، فقرروا على مفاجأته بهجوم خاطف ، وباتوا تلك الليلة ، وفي الصباح جمع الامير حسن ، الابطال والفرسان ، ونزلوا الى ساحة الميدان ، فالتقتهم عساكر السركسي في ساحة المجال ، واقتتلوا اشد قتال ، وهجموا على بعضهم البعض ، واشتبك بين العسكرين القتال ، وجرى الدم وسال ، فما كنت ترى الا رؤوسا طائرة ودماء فائرة وفرسانا غائرة ، حتى دارت على قوم السركسي الدائرة وكانت بنو هلال محيطة بهم من اليمين والشمال ، فبينما هم في ضربات قاطعات تهد الجبال الراسيات واذا بغبار قد ثار حتى سد منافس الاقطار وبان عن عسكر جرار ، ليس له قرار ، وفي

مقدمتهم الوزير راشد الاسد المعاند ، وكان السبب في قدومهم ان السركسي ارسل يطلب منهم الامداد للحرب والطراد ، فحضر الوزير بمائتي الف عنان، فلما وصل الى ساحة الميدان ووجد قومه بالذل والهوان ، هجم على بني هلال واحاط بهم من اليمين والشمال ، وخلص السركسي من بين أيدي بني هلال واقتحم هو والعساكر الى ساحة المجال ، وما زالت الحرب على قدم وساق الى ان انكسرت بنو هلال اشد انكسار وانهزم الامير دياب ببني زغبي وابو زيد ببني زحلان والامير حسن والقاضي بدير ببقية الفرسان ، وتبعهم الوزير راشد بكل بطل مغوار وأسد كرار ، وشتتهم في جوانب القفار وكسب غنائم كثيرة وأموالا غزيرة ، ولما اظلم الظلام رجع الوزير والملك منصور ، وقد كسبوا من بني هلال المال والبنات والنوق والجمال ، وصارت بنو هلال مشتتين في البراري والتلال ، ثم اجتمع الامير حسن والامير دياب والامير ابو زيد وأكابر الديوان ، واخذوا يتشاورون في خلاص ما اخذه منهم قوم السركسي وكيف يقتلون الوزير الذي كان سبب هذا البلاء، وكان للامير حسن ابن اخت شديد البأس قوي المراس يسمى الامير عقل عمره اربعة عشر عاما ، فلما انهزم الابطال والفرسان من قتال السركسي في ساحة الميدان استعظم ذلك الشأن فجاء الى خاله الامير حسن وتعهد له بقتل السركسي بشرط ان تذهب معه النساء والبنات يشجعنه في الحرب والثبات ثم انه انشد شعرا شكره عليه الامير حسن ، وباقي الامراء على حسن اهتمامه ، وقد تعجبوا من ذلك وقالوا لعل الله ان يأتي على يده بالفرج والنصر ، ثم ان الامير حسن امر إخته الجازية ان تنتخب في الحال مائة بنت من خيار البنات الابكار اللواتي يشبهن الاقمار ، فحضرت بهن عند اخيها وقالت له ماذا تريد ان تفعل ؟ قال تذهبين مع البنات ومع الامير عقل الى ساحة الميدان وتشجعنه بالاشعار الحسان حتى يتحمس على قتل السركسي بن نازب ، لعله ينال المقاصد ، فلما سمعت الجازية فحوى كلامه، استعظمت الحال وقالت كيف نذهب مع عقل وهو ولد صغير السن وليس من رجال الحرب والقتال ؟ فاذا كان ابو زيد ودياب لم يقدرا على السركسي فكيف يقدر هذا الصبي وربما يأسرنا السركسي ونبقى معيرة بين الاعارب . فلما انتهت من هذا الخطاب تقدمت وطفا بنت الامير دياب وتكلمت بهذا المعنى . فقال الامير حسن هذا الكلام لا يفيد ، ثم أمر بالركوب مع الامير عقل ، وفي الحال ركبت العماريات امام الفرسان والابطال ، واعتقلوا بالرماح والنصال وقصدوا ساحة القتال ، فلما وصلوا اصطفت الصفوف وترتبت المئات والالوف وكان الامير عقل راكبا على ظهر جواد يسابق الرياح،

فبرز الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فبرز اليه السركسي كانه قلة من القلل او قطعة فصلت من جبل ، فقال له عقل من تكون من الابطال فاني ارى نفسك شامخة معتزة ؟ قال انا السركسي امير غزة ، وانت من تكون؟ قال انا الامير عقل بن الامير بدر .

وبعد ان تساجل البطلان التقيا في ساحة الميدان كانما جبلان او اسدان كاسران ، وعلا عليهما الغبار حتى حجبهما عن الابصار وقدحت حوافر خيلهما النار ، وما زالا على تلك الحال وهما في اشد قتال الى قرب الزوال ، وكان السركسي قد تعجب من حرب الامير عقل واستعظم قتاله لانه رأى منه في مواضع الطعن والضرب ما ادهشه واهاله ، ثم ضربه في الدبوس قاصداً ان يعدمه الحياة ، فخلا عنها ، فراحت الضربة خائبة بعد ان كانت صائبة ، ثم ان الامير عقل ارتد على خصمه مثل الاسد وضربه بالسيف المهند ، فجاءت الضربة على رقبة الجواد فبرتها كما يبري الكاتب القلم ، فوقع السركسي على الارض ، فادركه قومه ونشلوه من ساحة القتال ، فهجم عليهم الامير عقل بالحسام فولوا وطلبوا الانهزام حتى وصلوا الى غزة. فرجع الامير عقل والفرسان من المعركة والصدام وهم في فرح واستبشار، ورجعت معه البنات الابكار وقد تعجبن من امره نظرا لصغر سنه ، فدخل على الامير حسن وسلم عليه وعلى جميع الامراء الذين حواليه واعلمه بما جرى وكان ، وكيف ان خصمه ولى من ساحة الميدان ، بعد ان حاربه طوال النهار ، فشكره الامير حسن على فعاله وقد تعجب من قتاله وثباته، واجلسه بقربه في صدر الديوان ووعده بالجميل والاحسان ، ورفعه الى درجة الامراء والاعيان . هذا ما كان من بني هلال . واما ما كان من السركسي ، فانه رجع من ساحة القتال وهو مشغول البال ، فاجتمع بوزيره واعلمه بقتال الامير عقل ذلك الولد الجبار والبطل المغوار ، فقال له الوزير لا تخف يا ملك الزمان غدا انزل الى الميدان وابارز هذا الولد واذيقه الاهوال . وباتوا تلك الليلة يتحادثون وفي الصباح اصطف الجيشان وتقابل العسكران وبرز الوزير راشد الى ساحة الميدان ، وطلب مبارزة الفرسان، فبرز اليه الامير عقل ، فالتقاه راشد بقلب كالجبال ، والتحم بينهما القتال وتضاربا بالسيوف وتطاعنا بالرماح وفعلا افعالا تعجز عنها صناديد الابطال وما زالا على تلك الحال مدة خمسة ايام ، وفي اليوم السادس التقيا في ساحة الميدان وتقاتلا امام الفرسان الى ان اختلف بينهما ضربتان قاطعتان وكان السابق الامير عقل ، فجاءت الضربة على راس الوزير راشد ، فوقع

قتيلا وفي دمه جديلا ، فلما راى قومه ما حل به من الوبال ، نشلوه من ساحة القتال واما السركسي لما علم ان الوزير قتل ، غاب عن دائـــرة الصواب وهجم على الامير عقل مثل ليث الغاب فالتقاه عقل بقلب اقسى من الصوان ، وتقاتلا معا في ساحة الميدان حتى تحيرت من قتالهما الفرسان وما زالا على تلك الحال الى وقت الزوال فعند ذلك دقت طبول الانفصال فرجعا عن الحرب والقتال ورجع السركسي وهو غضبان مما قاسى مـــن الحرب والقتال ورجع السركسي وهو غضبان مما قاسى من الحرب والطعان وصمم النية انه في ثاني الايام يهجم بالفرسان والابطال على بني هـــلال ويذيقهم الاهوال . اما الامير حسن فانه احضر الامراء والسادات وقال لهم اعلموا ايها الرجال ان قصدنا الوصول الى تونس الغرب لنخلص رجالنا من اسر الزناتي خليفة ، والرأي عندي الان ان نهجم في الصباح بالابطـــال والفرسان ونحارب اعداءنا بقوة الجنان حتى نبلغ الامال ونسير بالعجل من هذه الاطلال ، فيركب الامير دياب في بني زغبي الشجعان والقاضي بدير والخفاجي عامر مع الامير زيدان والرياشي مفرج وعرندس الزغبي والامير عقل يقصدون الميدان والامير ابو زيد يركب في بني زحلان ويقصدون ابواب غزة بعد حضور السركسي الى الميدان وهكذا تم الاتفاق .

وفي الصباح ، دقت طبول الحرب وركب الفرسان للطعن والضرب ، واندفعت الشجعان الى ساحة الميدان من كل جهة ومكان ، وقصـــد السركسي معركة القتال وطلب مبارزة الابطال ، فبرز اليه الامير دياب وجال معه ساعة من الزمان ، ثم هجمت العساكر على بعضها البعض كأنها كواسر السباع وجعلوا يتضاربون بالسيوف ويتطاعنون حتى جرى الدم وســاح وزهقت الارواح ، وما زالوا على تلك الحال الى قرب الزوال ، فعند ذلك، هجم الامير عقل وزيدان واقتلعا السركسي من ظهر الحصان واوثقـــاه بالسلاسل والقيود واخذاه الى الخيام وبلغا المقصود ، ولما بلغ ابو زيد هذا الخبر ، فرح واستبشر وهجم بالفرسان والابطال على عساكر السركســي الذين انهزموا من ساحة المجال ، وحكم فيهم ضرب السيـــف الفصال ، وبعد ان دخلت بنو هلال غزة بقلوب معتزة ، غنموا الاموال وبلغوا الآمال وخلصوا سباياهم من الاعتقال وكان اظلم الظلام ، فخرجوا وباتوا فـــي الخيام وفي اليوم الثاني اقبلت اهالي البلد وطلبوا مـــن حسن الامان ، فأجابهم الى ذلك الشأن وأرسل مناديا ينادي بالامان ، فاستتبت الاحوال واستبشرت بنو هلال بالعز والاقبال ، ثم حضرت الفرسان والامراء عند الامير حسن ، فشكرهم على ذلك الاهتمام وغمرهم بالعطايا والانعام ، ثم

احضروا عقل واكرموه غاية الاكرام على ما ابداه من الحرب والصدام وقلده الامير حسن مقام الامراء العظام والبسه سيفا مرصعا بنفيس الجواهر ، ثم اشار يمدحه ويعرض عليه ما يريد من بنات النساء والسادات .

فلما فرغ الامير حسن قال له الامير : يا خال ارجو ان احوز الكمال بنظرك السعيد مدى الايام . والآن ما حل وقت زواجي ، فتقدم الامير زيدان شيخ الشباب والتمس من الامير حسن ان يأمر بعمل عرس لاولاد الامارة الذين حان وقت زواجهم ، فقال له حسن لا بأس وركبت اولاد الامراء فوق ظهور الخيل وعملوا عراضة عظيمة لها قدر وقيمة ، وبعده عملوا عرسا طافحا بالمسرات ورقصت امامهم النساء والبنات المخدرات ، ومكثوا على هذا الحال ثلاثة ايام بالفرح والسرور ، احضروا السركسي مقيدا وادخلوه عند الامير حسن ، فترامى على اقدامه وكان الامير ابو زيد جالسا عن يمينه والامير دياب عن شماله ، فحينئذ طلب منه العفو والامان وقال يا امير ان الوزير هو الذي كان السبب في الاذية والضرر وكان سببا لسبي النساء الحسان ، فارجوك ان تعفو عني ، فأمر السلطان حسن بفكه وقال يا سركسي اعفو عنك اذا حفظت الشرائع الملوكية وهي اوصيك بمحبة الله وحفظ شرائعه ووصاياه ما دمت في قيد الحياة ، ولا تكن لجوجا في الكلام ولا مدمنا لشراب المدام بل حافظا زمام الاحتشام متخلقا بأخلاق الكرام مع الخاص والعام ، متجنبا كلام الهزء والهذيان ، واقيا نفسك من عثار اللسان ، لان صدور الاحرار قبورها ، فمن صان سره ملك امره ، ومن باح لم ينجح وزاد ندمه ، واحذر يا سركسي من النساء الشريرات فان مكرهن عظيم وهن اصل الاذى والضرر وسلاح ابليس عدو البشر ، يتظاهرن بين الرجال بالحشمة والكمال ، وهن أغدر من الحيات ومن اعظم المصائب والبليات ، وبالجملة فانهن مفاتيح الشرور ، لانه ليس لهن عهد ولا امانة .

فقال السركسي : انا طوع يديك وجميع امور راجعة اليك فشنف اذني بأقوالك اللطيفة فاني لامرك سامع . فقال له السلطان حسن متى توليت احكام البلاد وتحكمت على رقاب العباد اياك ان تغفل عن احوال الرعية وتتعدى القواعد الهلالية وتخالف القوانين والشرائع الملوكية ، بل كن سالكا الطريق المرضية ، معاملا الكبير والصغير بالسوية ، رافعا عن شكوى المظلوم حجابك ، فاتحا في وجهه بابك ، واضعا الاشياء في محلها والمناصب في يد اهلها ، ولاسيما ولاة الاقطار وارباب الوظائف الكبار ، فينبغي ان يكون هؤلاء الرجال من اهل الفضل والكمال موصوفين بالاستقامة والامانة ومشهود لهم بالحلم وبصدق الديانة ، لا يميزون بين الحقير والشريف ولا

يظاهرون القوي على الضعيف ، فيهابهم جميع المأمورين ويقتدي بهم باقي المستخدمين ، لانهم اصحاب الكلام وولاة الاحكام وبيدهم ازمة الامـــور وتدبير مصالح الجمهور ومحافظة الحدود والثغور ، فاذا كانوا على هذه الحالة ، تستقيم احوال الرعايا وينتشر العدل في كل مكان ، فترعـــى الذئاب مع الغنم وتبات العصافير مع الرخم . اما اذا كانوا خلاف هـذه الاوصاف ، مائلين الى الاعوجاج والانحراف ، لا يبالون بمنافع الخلق ولا يعلمون بما يقتضيه الحق ، بل يصرفون الاوقات بالملاهـــي والملذات ، فتضطرب الاحوال ويقع الاختلاف ويكون سببا لضرر البلاد بدل الاصطلاح، فيضيع الحق والانصاف ويكثر الجور والاعتساف ، فتسقط المملكة الهلالية ويصير وجودها كالعدم بين ملوك الامم .

فاياك ايها الامير ان تسمي وزير الا بعد الفحص والامتحان ولو كان ابن رفعة وشان ، حتى تستقيم أمور دولتك وتسعد به أحوال رعيتك ، فهذا الذي يقتضيه مقامك ويحسن به في الدارين ختامك ، واياك أن تغتر في الدنيا ولذتها وتلتهي بأفراحها ومسرتها ، فانها مختالة غدارة ، جميع أمورها مستعارة ، فلا تركن اليها ولا تثق بها وتعتمد عليها ، فكم افنت من الملوك وفتكت بالانبياء وما هي الا كظل زائل ، واعلم ان المراتب العليا انما هي مواهب وعناية من رب البرايا لاناس خصهم الله بأبواب الخير ، وذلك لغايات لا تدركها العقول . ثم قال له واياك ان تهمل الجزية بل ارسلها لي في كل عام ، فحينئذ نهض السركسي فقبل يديه وقال انا طوع يديك وجميع أموري متجهة اليك ، ولن انسى جميلك واحسانك ما دمت في قيد الحياة، فحينئذ أمر له السلطان بخلعة سنية وحلة ملوكية ونهض ابو زيد ودياب والبـــاه اياها امام الوزراء والقواد وأرسلوه الى محكمته في احتفال عظيم واجلسوه على تخت المملكة وودعوا بعضهم ، ثم اخذوا في أهبتهم للمسير الى بلاد الغرب ، لكي يخلصوا اولادهـــم من الاسر والكرب ، فانتشرت البيارق والصفوف وضربت الطبول في الصحاري والسهول ، واخـــذوا يجدون في المسير ويسابقون في مسيرهم الطير الى ان اقبلوا الى مواشيهم في تلك البراري والآكام .

قصة البردويل بن راشد

قال الراوي انه كان في العريش ملك من الملوك العظام ، صاحب بطش

واقدام ، يقال له البردويل بن راشد وكان فارسا شديدا وبطلا عنيدا ، له قصر مشيد الاركان عالي البنيان وحوله العساكر والفرسان ، وكان مجوسيا يعبد النار دون الجبار ويسجد للشمس كل نهار ويلبس طاقية الاخفاء ويقرأ الطلاسم ولم يعد احد يراه ، وبهذا الشأن يقهر الابطال والفرسان . ففي بعض الايام اخذ خبر بنت ملك سنبس مرصاد حاكم هاتيك البلاد وعنده ثلاثة آلاف فارس ، ما بين مدرع ولابس ، والبنت اسمها عليا وكانت ذات حسن وجمال وبهاء وكمال ، فلما سمع البردويل بوصفها ما بقي يملك من العقل ولا درهم ، فكتب كتابا الى ابيها الملك مرصاد ، يطلب ابنته عليا الى الزواج ، فابى الملك مرصاد ذلك ، فحاربه البردويل وقتله وقتل وزيره واخذ بنته عليا زوجة له . هذا ما كان من امر البردويل والملك مرصاد ، ولنرجع بالكلام الى بني هلال ، فانهم لما انتهوا من حرب السركسي في غزة، قصدوا وادي العريش فنصبوا فيها المضارب والخيام وسرحوا مواشيهم في تلك البراري والآكام التي يحكم عليها البردويل . فلما سمع بقدوم بني هلال ونزولهم في وادي العريش يأكلون الاثمار ويتلفون الاشجار ، اغتاظ وتكدر وشخر ونخر وأقسم ان لا يبقي احدا من بني هلال الاعداء الاشرار .

فقال له الوزير اكتب الى الامير حسن في طلب عشر المال والنوق والجمال ، فان اعطى كان قتالهم حراما وان لم يعط يكون قتالهم حلالا ، فطلب البردويل قلما وقرطاسا ودواية من الذهب الخاص واخذ يكتب الى الامير حسن في طلب عشر المال والخيل والجمال .

ثم طوى الكتاب واعطاه لعبده سعيد ، فأخذه وسار الى ان وصل الى بني هلال وسلم الكتاب للسلطان حسن ، فقرأه وفهم معناه ، فاسودت الدنيا في وجهه ، فكان ابو زيد موجودا ، فأخذ الجواب وقرأه وقال انا والله علي في قتل البردويل وستشهد لي جميع العربان بذلك ، فأشار دياب ان يأخذوا العبد لدار الضيافة لئلا يفهم ما يتكلمون ، فمضوا به الى دار الضيافة ، حينئذ قال الامير دياب لا تحسب الاكلات كلها زلابية يا ابا زيد.

وراح دياب يهدد ويتوعد ، فقال ابو زيد أصحيح ما تقول يا دياب ، فقال دياب كلا يا ابا زيد وانما انا أمزح حتى انظر ما يكون عندك من التدبير ، فحينئذ قال ابو زيد للعبد سعيد : قل لسيدك ليس لك عندهم غير الحرب ورمي الرقاب ، فسار سعيد واخبر مولاه البردويل بذلك ، فغضب غضبا شديدا وفي الحال أمر وزير المنصور ان يركب في مائة الف فارس وينزل الى الحرب وأن لا يترك من بني هلال صغيرا ولا كبيرا الا قتله، فسار المنصور بمائة الف فارس حتى وصل الى الميدان فأسرع اليه الامير

دياب وجالا وصالا ، وطعن منصور الامير دياب بالرمح تخلى عنها وضربه دياب بالحربة ، خرجت تلمع من ظهره ، فحين ما نظرت عساكر البردويل ما حل بالوزير انطبقوا على الامير دياب مثل سباع الغاب ، فتلقتهم بنو زغبي مثل الاسود الكواسر بالسيوف والرماح ، ولله در الامير دياب فانه برى الرؤوس وجز الرقاب فولت رجال البردويل وهي مكسورة مدحورة ، واخبرته بما جرى فلبس البردويل ثلاثة دروع ووضع في جيبه طاقيــــة الاخفاء ونزل الى الميدان بأربعمائة الف فارس وهجم على بني هلال وقد أوقع في قلوبهم الرعب ، ولكن لله در أبطالهم ، فانهم اظهروا الجلد واخفوا الكمد ومع كل ما جاهدوا وعانوا ، استظهرت عليهم العساكر وكسروهم في اخر النهار ، فرجعوا على أعقابهم مشتتين ثم اجتمعوا واخــــذوا يتشاورون في دفع الجزية للبردويل ، فقال ابو زيد والله يا حسن قد اعتراكم الوهن وانا لا أطاوعكم ابدا ولا ادفع الجزية ما دمت قادرا على ركوب الجواد وأتقلد في آلة الحرب والجلاد ، وراح يفتخر بقتل البردويل وهو يقول :

قال ابو زيد الهلالي يــــا حسن	اسمع كلامي انت مع مــــن حضر
لا تخافوا مــــن طعان البردويــــل	انني أطفي لكــــم منــــه الخبر
وغدا باكــــر انا انــــزل اليــــه	فوق مهــــر مثل طير او صقــــر
سوف أسقيه المنيــــة عاجــــلا	ثم أتركــــه حديثــــا يتذكــــر
وكفى التسليم فــــي كل الامــــور	وهنيئا للــــذي بلــــغ الوطــــر

فلما فرغ ابو زيد من كلامه ، توجهوا للصيوان وبقي عند السلطــــان حسن دياب والقاضي بدير وطي ابن مالك وأبو العوف وعامر وحماد وعرندس فتشاوروا مع بعضهم وقالوا غدا يذهب ابو زيد الى البردويل فيقتله ونبقى بعده في حزن طويل ، ثم نهض الامير حسن ودخل الى خزانة الســــلاح فأخرج قيد المملكة وهو اربعة أرطال فضة ووضعه في منديل وأعطاه الى دياب وقال اذهب الى ابي زيد انت وخالك القاضي بدير والامير طي بن مالك وأبو العوف وعامر وحماد وعمك عرندس ، وقل له ان كنت تطيع الله والامير ضع رجليك هذا القيد الى الغد ونحن نجيء غدا ونفتحه لك ، فان حسن خايف عليك ان تذهب الى البردويل ويقتلك فأخذوا القيد وساروا الى ابي زيد رحب بهم وأجلسهم ثم قال لهم ما سبب مجيئكم ؟ فقام ديــــاب ووضع المنديل قدام ابي زيد وقال له قد ارسله لك ابن عمك حسن ففتحه ابو زيد فوجد فيه القيد ، فقال ما هذا ؟ قالوا لاجل ان تضعه في رجليك الى الغد واخبروه بما قال حسن ، قال صبر جميل ثم قال بنفسه ان

خالفت حسن فمن يطيعه ومن يقدر ان يسفه كلام الاجاويد ثم انه اخذ القيد ووضعه في رجليه وقال سمعا وطاعة لله والامير ولكن لي عليكم واحدة ان تجيئوا وتحلوا لي القيد غدا من صلاة الصبح ، فقالوا سمعا وطاعة ، وذهبوا واعلموا حسن فخاف حسن ان يعوقوا على ابي زيد فبعث وراء ام مخيمر وقال لها يا ام مخيمر خذي مفتاح هذا القيد حطيه معك ولما تشوفي الفجر لاح افتحي القيد من أقدام ابي زيد واياك ان تخبريه عن المفتاح . فقالت سمعا وطاعة ثم ذهبت الى ابي زيد وقعدت قباله ، اما البردويل الهمام فانه في الصباح دق طبول الحرب والكفاح وبرز الى ساحة الميدان ، فانحدر اليه الامير حسن وانطبق عليه وتقاتلا من الصباح الى وقت الظلام ، فافترقا على سلام ورجع كل منهم الى الخيام ، ولما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح ، برز البردويل الى ساحة الميدان ، فبرز اليه قاضي العربان ، فلما نظره البردويل ، قال انت قاضي العربان تريد ان تحارب الفرسان ، فقال له اليوم اريك أفعالي وحربي ونزالي ، وهجم عليه وتقاربا وتصادما ولم يمض عليهما ساعتان حتى برم البردويل الدبوس في يده وضرب القاضي بين كتفيه ظن ان روحه خرجت من بين جنبيه ، فدار راس جواده وولى هاربا والى النجاة طالبا ، فانحدر اليه الامير زيدان وانطبق عليه انطباق الغمام ، فما طال عليه المطال حتى كل في الحال فولى هاربا فبرز اليه مخيبر وبعده عكرمة ثم مفلح وايضا عقل حتى برز اليه خمسة وعشرون اميرا من الفرسان ولم يمكث الواحد منهم اكثر من ساعة الا ويولي هاربا والى النجاة طالبا وما زالوا هكذا حتى امسى المساء ودقت طبول الانفصال ، اخذ كل منهم يشكو ما اصابه وفي ثاني الايام برز الامير دياب وطلب مبارزة الفرسان ، فبرز اليه البردويل ، فالتقى البطلان كأنهما جبلان، وكان عليهما الحين وغنى فوق رأسيهما غراب البين واخذا في كر وفر واقتراب وابتعاد ، فلما شاهد الامير دياب ان خصمه شديد وقرم عنيد، اشار الى بني زغبة فطبقوا على قوم البردويل فتلقوهم اولئك في ضرب مثل النار حتى ما عدت تنظر في ذلك النهار الا رؤوسا طائرة ودماء فائرة وفرسانا غائرة والرؤوس تتساقط مثل ورق الشجر ، فيا لها من وقعة مهولة تشيب رؤوس الاطفال وتحير عقول الابطال ، وكان ذلك اليوم على بني هلال أشد الايام ، فقد كسرتهم عساكر البردويل وارجعوهم الى الخيام ينوحون على مصائب الايام ، ورجع البردويل الى قصره فرحان ، هذا كله والامير ابو زيد مقيد ، فلما عرف ابو زيد ما جرى على بني هلال ، اغتاظ وتكدر وصارت عيناه تقدحان الشرر وصار يتقلب على الفراش مثل الثعبان،

فقالت له ام مخيبر لماذا انت حامل كل هذا الهم وانت عندك مال اكثر من غيرك وان الامراء لا يدفعون عفارة ، فلاي شيء ترمي روحك في المهالك ولكن من غيظي من حسن ودياب لازم اروح للبردويل اقتله واني بعون الله اسرع بقتله بكل ما يمكن ، فقالت البردويل قد طلب مالا وخيلا وجمـــالا وعبيدا وجوارا وسلاحا وبنات ، ، واول ما طلب بنتك جمال الظعن ، فقال كيف نعطيه اياها ؟ قالت لا قدر الله ، ولكن كيف تقدر عليه وعلى طلاسمه وسحره ؟ فقال لها ان شاء الله تعالى اقتله وانت تعرفين بعلك يا أم خيبر والامير حسن كل يوم عند الصباح يعطيك المفتاح ومرادي الان في هذا الليل ان تسيري اليه وتسرقي المفتاح من جيبه وتجيئي تفتحي القيد وأتوجه الى البردويل واقتله وافوز على بني هلال .

فقالت ماذا تعطي الذي يعطيك المفتاح ؟ فقال لها اما تريدين ان انام عندك اربعين ليلة ؟ فاذا كنت تريدين ان تفرجي كربتي افتحي القيد واطلقي الباز للصيد ، فقالت ان الامير حسن أقسم على ان لا أفتح لك في هـذا الليل ، فاني اخاف عليك من البردويل ان يقتلك ، فقال لها ان قتلنـــي تزوجي غيري وان قتلوك بعدي فما انت احسن مني ، فقالت له يا ذلنا من بعدك يا ابو شيبان وأخرجت المفتاح وفتحت له القيد ، فوثب في الحال وشد على ابن الحيصا ولبس الدرع المصفح واعتلى على ظهر الجواد كأنه كتلة من الكتل او قطعة فصلت من جبل وحفظ نفسه وحصانه بهياكل الطلاســـم والاقسام وتحوط بآيات الله العظام وجد السير الى ان وصل قصر البردويل ودار حوله فوجده عالي البنيان رفيع الاركان ، وكان وصوله عند طلـوع الشمس ، فكان البردويل نائما على ركبة عليا ، فعند وصول ابي زيد الى الباب ، وجده مصفحا في الواح من البولاد ، كأنه من بنيان ثمود وعاد فرفع يده وضرب الباب في دبوس الحديد ، فما احد رد عليه ، فدق الباب ثانيا وثالثا فأتاه سعيد عبد البردويل وطل من الشباك فراى ابا زيد راكبا على ظهر الجواد ، فقال ما تريد ايها الفارس العنيد ؟ فقال له ابو زيد أريد مولاك البردويل ايها العبد الذليل ، فاذهب اليه وقل له على الباب فارس طالبك للحرب والكفاح ، فاندهش العبد من هذه الجسارة ورجع واخبر سيدته عليا بأن فارسا بالباب اسمر اللون قال لي قل لمولاك البردويل ان يبرز الى الحرب والكفاح ، فقالت له ما قال اسمه ؟ اجابها لا ، ولكن هيئته تدل على انه اعرابي ، وبينما العبد يخبرها بذلك ، سمعت صوتا يقول قم يا بردويل من نومك الان واني سأدعك تنام الى الابد ، فلما سمعت عليا

هذا الصوت رفعت رأس البردويل عن ركبتها ووضعته على مخدة واشرفت من فوق الباب فرات الامير ابو زيد فاذا هو مثل الصقر وقلبه اشد من الصخر فلما رآها ابو زيد وهي كأنها البدر المنير حول نظره عنها لئلا يفتنه حسنها وجمالها ، فقالت له ما مرادك ومن انت ؟ فقال لها انا ابو زيد من بني هلال ومرادي أحارب البردويل فدعيه ينزل الى حربي ، فلما سمعت هذا الكلام اخذت تخبره عن حالها .

فلما رد عليها ابو زيد ، استبشرت عليا بالخير والفرج ولكنها قالت له انا خايفة عليك من البردويل ان يذيقك الحرب الوبيل لانه فارس ما لـــه مثيل ؛ قال ابو زيد : نبهيه ان يأتيني من دون اطالة كلام واليوم تنظرين فعالي والسلام ، فعند ذلك توجهت عليا الى البردويل ، فراته غارقا في المنام فنبهته ، فلما افاق قصت عليه ما سمعت من الكلام واخبرته عـــن قدوم البطل ابي زيد الصنديد وانه عن قتله لا يحيد ، فلما سمع كلامها من الاول الى الاخر ، فقام وقعد وارغى وأزبد وقال لها بغضب : كيف اقلقتني وفي هذا الكلام ازعجتني ؟!

وقال لها او كان غيرك ضربته بالحسام فكيف تخيفينني من فارس او من مئة فارس او من الف فارس ؟ فقالت له ما كل الرجال رجال ولا الثعالب مثل أسد الدحال ، فما زالت النساء تحبل وتلد فما على وجه الارض شاطر ، فلما سمع من عليا هذا الكلام ، صار الضيا في عينيه ظلاما ، وصرخ صوتا دوت له الجبال واهتزت من حوله التلال وقال لها : كفاك هذيان يا بنت اللئام والا قطعت راسك بهذا الحسام فلما سمعه ابو زيد من خارج الدار صاح عليه بصوت مرعب قائلا له اسكت يا حمار وانزل الـــى قتالي والا اهدم عليك القصر قبل ان يأتي وقت العصر ، فلما سمع البردويل هذا الكلام ، صار الضياء في وجهه ظلاما فقام لساعته ولبس آلة حربه وعدته وفرد على بدنه درعا داووديا وتقلد سيفا كأنه البرق اللامع او الموت الماحق ، ووضع على جنبه طاقية الاخفاء ونادى على عبده مسعود وقال شد لي جوادي ، فشد عليه واحضره اليه فوثب راكبا عليه وقال للعبد افتح لي الباب ففتح العبد الباب وكان مصفحا بالحديد وحصل ابو زيد على فرح ما عليه من مزيد واخذ يقرأ آيات الله العظام ويقول عونك يا رب الانام ، وحينئذ خرج البردويل مثل سبع كاسر او اسد ظافر واخذ يلاعب حصانه وكأنه فرخ جان او من عفاريت سليمان ، وناداه قائلا : تعال يا اعرابي حتى انظر ما مرادك ومن الذي الينا قادك ، فأخذت ابا زيد الحمية الجاهلية والنخوة العربية وهجم عليه هجمة الاسود ، فالتقى البطلان وكأنهما جبلان

او اسدان ضرغامان وعلت منهما الصيحات حتى ملات الفلوات ، فعندما راى البردويل انه تعبان من صدمات ابي زيد طلب سعفه من ملوك الجان وكان ابو زيد اثناء كلامه ، رافعا عينيه الى السماء غير مكترث بل كان يقرأ الفاتحة ويذكر كلام الله ، ثم التفت الى البردويل فوجده لابسا الطاقية فقال له اراك مضيعا عقلك .

فاستشاط البردويل غضبا وغيظا ، فما عدت تسمع الا صياحا وهديرا ودمدمة في السن مختلفة، وكنت تسمع الصوت ولا ترى الزول، والبردويل لما وجد حاله مغلوبا ولم يقدر ان يختفي من قدام ابي زيد حيث ان الملائكة العلوية طردت ملوك الجان السفلية الى سابع ارض وابطلت عزيمتهم ، ندم على ما فرط منه في حرب ابي زيد وكانت عليا زوجة البردويل تتفرج من الشباك ، فلما نظرت زوجها انقطع امله وابو زيد غلبه ، فرحت وصارت تزغرد وتغني ، فظن البردويل ان هذا الغناء لاجله ولم يعلم انه لاجل عجزه وفشله ، فأخذته الحماسة والنخوة وهجم على ابي زيد مثل النمر اذا خطر فتلقاه ابو زيد كما تتلقى الارض العطشانة وابـــل المطر وعلا منهمـــا الصياح حتى ملأ الروابي والبطاح ، وصار الامير ابو زيد يدور حـــول البردويل وهو مشرع بسيفه الثقيل ورمحه الطويل ، فحينئذ تيقن البردويل في ذهاب روحه وزوال سعادته ، فرفع ابو زيد يده وقال اللهم استر عبدك يا من رفعت السماء وبسطت الارض ، وضرب البردويل بالسيف علـــى هامه ، القى راسه قدامه ووقع البردويل على الارض يختلط طوله بالعرض، وحالا نزل ابو زيد عن ظهر الجواد وسحب لسانه وازال اسنانه واخذ الطاقية والدرع والسيف والخوذة والرمح ، والتفت الى عليا وقال لها الوداع ، فقالت له خذ هذه بدلة البردويل فانت احق بها من غيرك ، لانك قتلت هذا الشيطان ، فاخذها ابو زيد وعلق الجميع في قربوس ابن الحيصان واتى نحو باب القصر وختمه بختمه وركب على ظهر الجواد وقال خاطرك يا ست عليا يا بنت الكرام ، فأرجوك عندما تطلبين للشهادة تظهرين واقعة الحال وتتكلمي كما نظرت . فقالت ارجوك ان تدخل القصر لترتاح ثم تتنـــاول الطعام ايها البردويل في الصندوق وقيد نفسه بالقيد الذهبي وتظاهر بأن لا له ولا عليه ، هذا ما كان منه ، واما ما كان من الامير حسن وهو في الديوان وحوله الامراء والاعيان فقال البارحة قد التهينا بالضيوف وتركنا ابا زيد وما عرفنا كيف حاله والبردويل ما عاد طلبنا للحرب فقوموا واذهبوا ودعوه يأتي حتى ننظر ما هو رايه ، فراح الامير فايد وأخذ معه مفتاحـــا ودخل على ابي زيد وقال له قد امر السلطان برفع القيد من رجليك وأن

تذهب اليه ، فقال ابو زيد صار لي ثلاثة ايام ما رايت احدا منكم ، نسيتم ابا زيد فقال الامير فايد : والله يابو زيد ما نسيناك ولكن كان المانع من زيارتك وجود ضيوف عند الامير البطل الدرغام فانك تعبت من الحرب والكفاح ، فقال الامير ابو زيد انا لا ادخل الدار خوفا عليك من العار ، لان كلام الناس امر من ضرب السلاح ، واما انت فاعطيني المفتاح لكي اقفل عليك القصر ، حينئذ حققت عليا شهامته وعرفت نخوته فأعطته المفتاح ، فأخذه وقفل باب القصر وعاد الى بني هلال فوصل في نصف الليل ثم دخل الى صيوان ام مخيمر فرآها تبكي ، فقال لها لماذا تبكين ؟ الحمد لله على اجتماع شملنا ، وقام ووضع ما اتى به من امتعة حسن ثم فك القيد من رجليه فقام ابو زيد وركب من دون سلاح وما حمل معه سوى عصاه وتوجه نحو الامير حسن ، فحين وصل الى الخيام قاموا له وحيوه بأحسن تحية ، ثم قال له الامير لا تؤاخذني يا ابن عمي فقد غفلنا عنك بمقابلة الضيوف ، فقال ابو زيد لا بأس ولكن ماذا عملتم من المصالح في حرب البردويل ؟ فقال نحن ارسلنا وراءك لنأخذ رايك ، فقال ابو زيد والله ان البردويل فارس من الفرسان ولا احد يقدر يحاربه فما ارى الا ان ترسل له عشر المال والنوق والجمال والنساء والعيال ونذهب اليه والمحارم في رقابنا ، فقال حسن : في هذا الوقت قد قلت الصواب وبارك الله فيك . (قال الراوي) في صباح اليوم الثاني بعد قتل البردويل ، اخذت الرعيان في تسريح المواشي حسب العادة ، فسار منهم ثلاثة رعيان وسرحوا بقرب قصر البردويل ، وكان لهم عادة ينامون في ظل القصر ، فقبل ان يبلغوا المكان المقصود راوا شخص البردويل على الثرى ممدودا ، وكان منهم عبد اسمه مسعود ، قال لهم مرادي اذهب اليه واقول له انا اتيت بهذا الطرش من عند العرب ، واريد ان اعيش في ظلك . فقالوا رايك مناسب ، فتوجه مسعود الى ان وصل الى قرب القصر ، فرأى البردويل مقتولا وعلى الثرى مغلولا ، فأخذه الرعب وصار يلتفت يمينا وشمالا ، فلم يجد احدا ، فقوى قلبه . وكانت عليا تنظر من الشباك ، فصاح مسعود يا اصحاب القصر علام سيذكم قتل وانتم نيام ؟ فطلت عليا من الشباك فسألها عن زوجها البردويل فأشارت تقول :

تقول فتاة الحي عليا بما جرى ... والنار جوا الحشا زادت اضرام
اسمع كلامي أيا مسعود وافتهم ... ما اتى راع ولا قد جاء غلام
هذا بعلي البردويل بلا خفا ... من اين اتاه السهم هل من الغمام
بان لي بانك انت غريمه ... باين عليك انت من فوارس عظام
افتخر بقتله بين الملوك ... يبقى لك هيبة كما سبع اجام

فلما فرغت الست عليا من نظامها ومسعود العبد يسمع نظامها ، ظن انه يخدعها وقال انا الذي قتلته ومرادي آخذ راسه الى اميرنا حسن الهلالي وافتخر في قتله على جميع العربان . فقالت افعل ما تريد . فأخذ مسعود الراس فربطه في مرسة وعلقه في كتفه وهو مسرور ، وراح يترنم بقوله ما كل العبيد عبيد ولا كل الموالي موالي ، فلما رآه العبيد قالوا ماذا عملت يا ابن الخالة ؟ فأجاب لقد قتلت البردويل وسأصير سيدكم ومولاكم ، وها انا آخذ راسه الى الامير حسن وانتم اشهدوا لي بذلك . فمشوا معه الى النجع وشاعت الاخبار بأن مسعود العبد قتل البردويل ، فعندها اجتمعت الناس ولاقوه بالاغاني والافراح واخذوا يثنون عليه والعبيد حوله يغنون له الاغاني وينشدون النشائد ، وهو حامل راس البردويل على كتفه، حتى وصل الى صيوان الامير حسن ورمى الراس قدام الصيوان ، فخرج الامير حسن والامارة يتفرجون ، وقد تعجب الجميع من مسعود البطل المعدود ، فقال حسن والله ان الذي اتى براس البردويل هو بطل ما له مثيل وله مني الانعام الجزيل ، فوثب مسعود وقال لعينيك يا سيدي عبدك مسعود اتى بالراس واخمد من ذلك الشقي الانفاس ، فقال الامير حسن من كان يقول ان منية البردويل على يد عبدنا مسعود ، وقد كان هذا يخطف الارواح ويتركها كالاشباح ، وذقنا من حربه البلا والكرب وانواع الذل والتعب ، ثم سأله قائلا وكيف عملت في قتل البردويل ؟ فقال كنا في البر والجمال سارحة ، فأخذتنا هجعة من النوم فنمنا ثم استيقظنا فلم نجد الحلال حولنا ، ففتشنا عليه فوجدناه قد بلغ قصر البردويل ، فتوجهت بنفسي لارده فرآني البردويل ونهرني ، فلم ارد عليه وتقدمت الى الجمال لاردها فأتاني وهو كالسبع الكاسر ورفع يده بالدبوس ورماني به ، فراحت الضربة خائبة غير صائبة ، فوضعت حجرا في مقلاعي وفعلت فعل داود في جالوت واذقت البردويل الحسرات لانه بالقضاء والقدر اتت الضربة بين عينيه ، فخرج الدم يتدفق منه ، وحالا تقدمت اليه وطرحته على الارض وسحبت السكين وقطعت راسه واخمدت انفاسه ، وجميع العبيد يشهدون لي بذلك ، فقالت العبيد نعم انه قطع راس ابن راشد امامنا . فقال مسعود اريد منك يا سيدي ان تجعلني سيدا على كافة العبيد وان تزوجني ابنة بيضاء واربع جواري سود وان تعطيني جوادا من خواص الخيل وعدة حرب كاملة والف دينار ومواشي وعبيد ، وغلمان ، فقال القاضي تستاهل يا مسعود أزود من ذلك ، فقال ابو زيد كفاك يا عبد السوء هذيان اما

تستحي انك تقول قتلت البردويل ايها الهبيل ؟ قال العبد نعم وحياة راسك وراس الامير حسن ، فقال له يا عبد السوء هل انت افرس مني ومن دياب ؟ فقال مسعود ان لكل انسان منية ، ومنية البردويل على يدي ، فقال ابو زيد في اي شيء قتله ؟ فقال حسن كيف ما كان قتله اما اراحنا منه ؟ وبما كان يلعب في الميدان وقنطر فيه الحصان ومسعود جز راسه، فقام ابو زيد وفتح فم البردويل وقال اظنه كان اخرس ، لان ليس له لسان ، فقام الجميع ونظروا ذلك وتعجبوا ، فقال حسن يا مسعود لما طلع البردويل ما كلمك ، فقال نعم كلمني وكان صوته مثل الرعد القاصف ، فقال ابو زيد اين طاقيته وسيفه ورمحه وبدلته وحصانه ؟ وقد اخذت من ابي زيد الحدة وانشد شعرا:

يقول ابو زيد الهلالي سلامة . وعزمي امضى من سيوف ورماح
يا امارا اسمعوا شرح قصتي واصغوا لقولي واتركوا الهزل ومزاح
وهذا العبد مسعود يضحك عليكم فاين عقولكم والفكر قد راح
اين لسان البردويل يا جماعة طوله شبرين يشبه الالواح
اين درع البردويل اين عدته اين رمحه ثم سيفه والسلاح
اين طاقية الاخفا واين الحصان يطوي بسرعته برها وبطاح
ابن راشد كان خيالا عظيم ما احد يلقاه في وقت الكفاح
تحته ادهم مضمر يا حسن عندما يركض يسبق الرياح
كيف عبدك جاب راس البردويل وما معه يا امير سيف ولا رماح
انما سيفي الذي قد قده ورمحي بين بزيه خش وراح
آلة الحرب شهود والجواد وكذا الطاقية والدرع الصفاح
اسألوا عليا زوجة البردويل فهي تنبيكم بأخبار الكفاح

ثم ركب جواده وسار الى عند ام مخيبر واتى بعدة البردويل والحصان والطاقية والسيف والرمح وكل ما كان عنده من امتعة البردويل الى صيوان حسن ، ووضع الجميع امام الامراء ، ثم رمى بلسان البردويل امام دياب وقال له تفرج على هذا اللسان ، فبهتوا وتعجبوا من هذا الامر، واما مسعود العبد فحين نظر ما جرى صار ينسحب بحاله الى ان هرب من الصيوان لعند الرعيان واما الامراء فركبوا خيولهم وكانوا الفي امير من الفرسان المعدودة والرجال المشهورة وقالوا الى ابي زيد اركب معنا ، فقال انا لا اريد حتى ينكشف لكم الخبر ، فبادروا وفي اوائلهم الامير حسن الى قصر البردويل فوجدوه قصرا عالي البنيان مشيد الاركان ، فتقدم حسن نحو باب القصر فوجدوه مختوما بختم ابي زيد ، فقال حسن يا ترى هل يوجد احد في هذا القصر ؟ فما اتم كلامه الا وعليا اشرفت من الشباك

فشاهدت حسن وامراء بني هلال ، وكان للقصر باب صغير غير الذي قفله ابو زيد ، فاتت عليا منه واقبلت امام الامير حسن وقبلت يديه ، فسألها عن قتل ابن راشد فحكت له ما جرى لابي زيد معه وما فعل العبد مسعود بعد ذلك ، فقال الامير حسن والله ما فعل هذه الفعال الا ابا زيد ، ثم قال واين المفتاح ؟ فقالت له مع ابي زيد ، وبينما هم في الحديث اذ اقبل ابو زيد راكبا على ابن الحيصا فعندما اقبل استقبلوه وحيوه وقالوا له لله درك من بطل لا تخشى نوائب الايام ، وحينئذ تقدم ابو زيد واخرج مفتاح الباب المصفح بالحديد وفتح لهم وادخلهم الى القصر . فتفرجوا على ما فيه من التحف والجواهر والاشياء الثمينة التي لا تقدر بقيمة ، فحملوها لبيت مال المسلمين ورجعوا للديوان ، اما قوم البردويل عندما علموا بموت مليكهم ، ساروا الى ابن اخته سعيد وكان نازلا في اطراف العريش ، فاخبروه بقتل خاله البردويل ، فقال لهم سعيد ما الراي عندكم في بني هلال ؟ فقالوا ان بني هلال نجم سعدهم في صعود واميرهم حسن الهلالي قد ارتقى الى ما لا يرتقي غيره من درج المعالي ، واننا نشير عليك ان نركب جميعا ونسير اليه ونقع بين يديه ونطلب منه ان يجلسك مكان خالك ، فاستصوب سعيد كلامهم وسار معهم لعند الامير حسن ، فلما وصلوا طلبوا الاذن بالدخول على حسن ، فدخلوا عليه وقبلوا الارض بين يديه واخبروه عن حالهم فترحب بهم حسن غاية الترحيب ، واهدى الامير سعيد خلعة سنية وحلة ملوكية ولبسه اياها واجلسه مكان خاله ، وعين عليه الجزية وكتبوا كتاب سعيد على السيدة عليا امراة خاله البردويل ، وتمتع بالحسن والجمال وبعد ذلك امر بدق الطبول وان يرحلوا من تلك التلال ، فنشرت الرايات وركبت العماريات على الهوادج واعتلى الفرسان ظهور الخيول ، واخذوا يجدون السير حتى وصلوا الى مصر القاهرة .

قصة الملك الفرمند

(قال الراوي) كان في بلاد مصر ملك يقال له الملك الفرمند بن متوج ، وكان ملكا عظيم الشان يحكم على ابطال وفرسان يكل عن وصفها اللسان ، ولما قتل بنو هلال البردويل وولوا مكانه ابن اخته سعيد ، قاموا وتهيأوا على الرحيل ، ثم ساروا يقطعون كل سهل وبر ، حتى وصلوا الى مصر فنزلوا في تلك النواحي والاطراف ورعوا الزرع حتى حصدوه حصدا ، واما ما

كان من فرمند ملك مصر فانه راى مناما هائلا ، فقام مرعوبا فاحضر الرمال واشار يخبره عن ذلك .

ففسر له الرمال منامه ، ولما فرغ من كلامه اضطرب الفرمند اضطرابا عظيما وهو في هذه الحال اذ دخل عليه المهلهل حاكم الصالحية وسلم عليه وبكى بين يديه واشار يعلمه بواقعة الحال ويذكر قدوم بني هلال الـــى تلك الاطلال .

عندئذ فهم الفرمند فحوى كلامه ، اشتدت عليه المصائب ، وخاف من العواقب فاحضر الوزراء والاعيان وعقد مجلسا بهذا الشأن . وبعد جلسة طويلة ، استقر الراي على ان يطلب منهم عشر المال والنوق والجمال ، فان اجابوه حصل المراد والا فانه يبادرهم بالحرب والقتال .

ثم طوى الفرمند الكتاب واعطاه الى النجاب ليأخذه الى السلطان ويأتيه بالجواب . فاخذه وسار وجد في قطع القفار حتى وصل الى القوم في ذلك اليوم ، فدخل على السلطان حسن وهو في الصيوان وكان عنده جملة من الامراء والاعيان ، فتقدم وسلم وناوله الكتاب ووقف بانتظار الجواب ، فلما فتحه وقراه وعرف معناه اغتاظ الغيظ الشديد وقال لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، كل ما وصلنا الى اقليم يبادرنا اميره بالتهديد ويطلب منا عشر المال او الحرب والقتال ، ثم امر الخدام ان تأخذ الرسول الى دار الضيافة وبعد ذلك قرأ الكتاب على أرباب الديوان واستشارهم ، فقال ابو زيد ارى من الصواب ايها الملك المهاب ان ترسل له الجواب وتوعده باجراء الطلب وتطلب منه مهلة عشرة ايام لبينما نكون قد اخذنا الاستعداد التام للحرب والصدام ، فاستحسن هذا الخطاب وكتب له الجواب .

وطوى الكتاب وختمه بختمه واعطاه الى الرسول ، فسار به الى ان وصل الفرمند ، فسلمه اياه ففتحه وقراه وعرف رموزه ومعناه ففـــرح واستبشر وزال عنه الهم والكدر وايقن ببلوغ الامل وظن انه سينال ما يطلبه المواشي والفضة والذهب ، ولم يعلم ان دون هذا الطلب الهلاك والعطب ، ولما مضى الوقت المعين ولم يقف على افادة من السلطان ، نما غيظه وزاد عليه الحال ، وكتب للسلطان حسن يطلب منه عشر المال بخطاب واعطاه الى نجاب وامره ان يسير به الى السلطان ويأتيه بالجواب ، فأخذه وسار وجد في قطع القفار حتى وصل لبني هلال ، فدخل على السلطان حسن وسلم وبأفصح لسان تكلم واعطاه الكتاب وطلب منه الجواب ، فلما قراه وعرف فحواه التفت الى من حوله من الامراء والاعيان واعلمهم بما كتب الفرمند وقال ما رأيكم في هذا الشأن ؟ فقال ابو زيد للنجاب سر بأمان وقل لمولاك

بانه في هذا النهار ينال المطلوب . ففرح النجاب بهذا الخبر ورجع واخبر مولاه بما سمع ، ففرح واستبشر وزال عنه القلق والضجر . وبعد ذهاب النجاب قال السلطان حسن الى ابي زيد على ماذا عولت ان تفعل يا ابـا الحيل ؟ قال مرادي ان احتال على الفرمند بحيلة يكون ما سبقني اليهـا احد ، وهي ان اختار اربعين بنتا من بنات العرب ومن جملتهن الجازية ام محمد واحضر اربعين صندوقا يكون كل صندوق من طبقتين ، فاجعـل الطبقة الاولى للقماش والحرير والطبقة الثانية للفرسان المغاوير ، ونحملهم على ظهور الجمال واركب انا مع البنات والاحمال ونسير الى الفرمند على سبيل تقديم المال وندخل السرايا وهو لا يعلم بهذا الحال ، حتى اذا وصلنا الى هناك ، احتلنا عليه وبنجناه وبلغنا منه ما نتمناه ونهبنا ما في قصره من الاموال ، ثم ارتحلنا بالحريم والعيال من هذه الاطلال ، وليس لنا غير هذا التدبير . فلما انتهى ابو زيد من هذا الخطاب ، التفت اليه دياب وقال له ليس هذا الراي بصواب ، لاننا نخاف ان ينكشف الحال ، والراي عندي ان نبادرهم بالقتال ونشغل فيهم ضرب السيوف والنصال ، فتعهد ابو زيد امام السادات في النساء والبنات وانه يرجعهن سالمات ، فقال له السلطان حسن افعل ما تريد ايها الفارس الصنديد . فعند ذلك تجهزت البنات في الحال وفعل ابو زيد كما قال وكان بين هذه البنات وطفا بنت ابي زيد وبنت القاضي بدير والست ريما وبدر النعام وجوهرة العقول وسعـد الرجا ، ولبس ابو زيد فروا من جلد الثعالب والذئاب وتقلد بالسيف من تحت الثياب وارجى له سوالف طوالا ومسك بزمام ناقة الجازية ام محمد ، فتعجبوا من افعاله وقال له السلطان حسن لله درك على هذه الحيلة التي لم يسبقك اليها احد ، ثم جعل يوصيه بالبنات ، فودعهم وسار بمن معه من البنات والصناديق ومن داخلهن الاقمشة الحسان والابطال والفرسان ، حتى دخل المدينة وطلع قصر الفرمند ، فوجده مزينا بأحسن الزينة ، وكـان الفرمند قد بلغه قدومهم فالتقاهم بالترحاب والاكرام ، فسلمت البنات عليه وجلسن حواليه ، فقال اهلا بالكواكب والاحباب ، وكان ابو زيد امـام الجميع وهو يرقص ويلعب ويضحك ويطرب ، وهو بالصفة التي وصفناها ، فسأل الفرمند البنات من يكون هذا الانسان ؟ فقلن هذا مهرج يزيل الغموم ، فانسر غاية السرور وسأله عن اسمه قال اسمي قشمر بن منصور ، قال مثلك من يصلح لمسامرة الملوك لما فيك من الحركات وحسن السلوك ، فاملأ لي هذا الكاس حتى يزول عني البأس ، فملأه وناوله اياه فاخذه منه وظن انه بلغ المراد ، ولم يعلم ان دون ذلك خرط القتاد ، فعند ذلك غنت البنات

ودقت على الآلات حتى كاد يرقص القدر ويطير من شدة الطرب والفرح ، وكان الملك وقعت عيناه على الجازية ، فهام بها وتعلقت نفسه فيها لانهـا جميلة المنظر ولطيفة المحضر ، فأجلسها بجانبه ، وسال ابو زيد من تكون هذه الحسناء ؟ فقال هذه الجازية اخت الامير حسن ، فالتفت اليها وقال لها غني لي على هذه الكاس يا صبية فان قلبي اليك مال ، فاجابته الى مقاله واخذت تغني له بهذه الابيات :

تقول الجازية مـن قلب جريـح — فنحن اليـوم قد جئنا هديـة
هدية مـن ابي مرعـي الهلالـي — امير فـي البوادي والرعيـة
ايـا حيف الفلا يأتـي بلادي — ونجد يـا ملك ارض عديـة
نشف ماؤها وقل الخير منهـا — وصارت مقفرة ارضـا رزيـة
رحلنا نبتغـي ارض المغـارب — انا فـي هودجي وسط الخبية
جئنا لمصر صرنا لـك حلائـل — ولا عـاد في رواح ولا مجيـة

فلما فرغت الجازية من كلامها طرب الفرمند من نظامها واشار يقول :

الا يا جازيـة حني عليـا — فعقلي راح كلـه بالسويـة
الا يا مرحبـا فيكم جميعـا — وزال الشر عنكـم والرزيـة
الا يا جازيـة حسنك سبانـي — ومثلك مـا راينا فـي البريـة
فعينـاك كما عين الغزالـة — حواجبك مثل قوس منحنيـة
مقالات الفتـى فرمند صادق — ونيرانـا بقلبـي مصطليـة

فلما فرغ الفرمند من كلامه ، شرب الكأس على اسمها وهو يتأمل في محاسنها وبياض جسمها ، ثم امر قشمـر ان يملأ له كأسا اخـر ، فملأه وناوله اياه فأخذه وتقدم الى وطفا بنت الامير دياب وقال لها غني لي على هذا الكأس يا بنت الامجاد ، ففنت .

فلما فرغت من الغناء انشرح الفرمند وشرب الكأس على اسمها واعطاه لقشمر فملأه وقد زاد عشقه وهواه ثم سأل جمال الظعن من تكونين يا ربة الحسن ؟ قالت انا بنت ابو زيد قال انت بغية المراد وانا اسال رب العباد ان يرزقني منك بولد يكون مثل جده الاسد ثم قال لها بحياة راسي ان تغني لي على كأسي فأخذت تسقيه الخمر بيدها ، وغنت له فطرب طربا عظيما ، ومن كثر ما سقته بيدها من المدام ما عاد يميز بين النور والظلام ، ثم انه صرف الاغوات والخدام حتى لا يكون احد في هذا المقام ، وبعد ذلك سقته كأسا اخر على اسمها وشكرها على نظامها ، ثم اعطتها لقشمر ليمـلاه فملأه واعطاه اياه ، فجلس امام نجلا ثم جلس امام جميع البنات الابكار وهن ينشدنه الاشعار وهو يشرب العقار ، حتى غاب عن الوجود وصار بصفة مفقود ، فعند ذلك بنجه ابو زيد ونزع ما كان عليه من الثياب ولفه

بحرام ، ثم فتح الصناديق فخرجت الابطال مثل الاسود ، فنهبوا ما في القصر من الاموال والتحف الفوال ولم يتركوا شيئا في القصر الا اخذوه، وكانت وطفا قد اخذت خاتم الفرمند ، ولو ارادوا قتله لقتلوه واسقوه كاس الحمام ، وساروا حتى وصلوا الى باب البلد فاعترضهم الحارس ، فأرته وطفا خاتم الفرمند وقالوا نحن من جملة الخدام قاصدين الان اهلنا لاجل المنام ، فعند ذلك فتح لهم الباب ، ولم يعرف حقيقة الاسباب ، فساروا وقد استبشروا بالفوز والنجاح الى ان وصلوا الى بني هلال ، ففرحوا بقدومهم ، ودخل ابو زيد على الامير حسن فالتقاه بالترحاب والاكرام وسأله عما فعل فأجابه يقول :

يقول الفتى ابو زيد الهلالي ... يابو علي جبت البنات وجيت
وجبت لك مال كثير وعدة ... تحف وجواهر يا ملك عبيت
وجيت معادن مع سيوف مسقطة ... وديباج مع كتان لك شديت
دخلت الى قصر الملك يابو علي ... واركانه يا امير لك هديت
رقصت للملك وطيبت خاطره ... ومن بعد ذلك كاسه سقيت
انقلب فرمند على الارض واقع ... فقمت انا من ساعتي فزيت
جئنا بعون الله يا امير كلنا ... فلا تحسبوني نمت وانسريت
وجبت البنات والاموال جميعها ... وهذه فعالي والذي سويت
قول ابو زيد الهلالي سلامة ... وقط يوم الروع ما ذليت

فلما انتهى ابو زيد من كلامه ، قالوا الارفق لنا ان نرحل قبل ان تدهمنا الابطال والفرسان ، فأمر حسن بدق الطبول للارتحال ، فدقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول وارتحلوا من تلك الاطلال بالحريم والعيال حتى ابتعدوا مسافة يومين عن البلد خوفا من امر يتجدد ، وكان الامير دياب وزيدان في اول الظعن . أما وزراء الفرمند واكابر الاعيان فانهم استبطأوا حضور ملكهم الى الديوان ، فلما فات الوقت ولم يحضر ، اخذهم القلق والضجر وقالوا لا بد لهذه العاقة من سبب ، وكان له ابن اخت اسمه محمود الغضنفر وكان وزيره الاكبر وقائد العسكر ، فصعد الى القصر في جماعة من الحجاب ودخل الى القاعة فوجدها خالية ووجد خاله ملفوفا بالحرام ومطروحا على الارض ، فغاب عن الصواب واستعظم هذا المصاب فارسل واحضر ارباب الديوان ، فلما نظروا ملكهم على هذا الحال ، اعتراهم الانذهال ، ثم اعطاه ضد البنج فعطس وراى نفسه ملفوفا في ذلك الحرام وهو في حالة الذل والهوان ، ولم يجد البنات والنسوان ، فزاد مصابه وعظم اكتئابه واتوه بحلة من افخر الحلل فلبسها وقد اعتراه الخجل لما راى نفسه على تلك الحال وهو بين الوزراء والسادات ، ثم اخبرهم

بواقعة الحال وطلب منهم ان يكونوا مستعدين للحرب والقتال .

وهكذا استعظموا الامور ودقت طبول الحرب واجتمعت الفرسان والابطال ، وكانت مائتي الف مقاتل فركبوا واستعدوا للقتال وركب محمود في مقدمة الجنود ، فقال له الفرمند اتبع بني هلال الانذال وامنعهم عن الارتحال بضرب السيف والنصال وانا اتبعك بباقي الرجال ، فسار الوزير بالفرسان والابطال وراء بني هلال حتى ادركوهم . فلما رات بنو هلال العساكر المصرية قد اقبلت ، استعدوا للحرب والقتال وركبت الفرسان والابطال وخرج الوزير محمود من بين الابطال ، فصال وجال في ساحة المجال وطلب مبارزة الفرسان والابطال ، وقال لهم هل من مبارز هل من مناجز فلا يبرز لي كسلان ولا عاجز اليوم يوم الهزاهز ، فنزل اليه ابو زيد فالتقاه الوزير بالعجل وهجم عليه وحمل ، واخذا في الطعن والصدام والمهاجمة والاقدام والمفارقة والالتزام ، واستمرا على تلك الحال الى وقت الزوال ، فعند ذلك دقت طبول الانفصال ، فافترقا على سلامة ، وعند رجوع ابي زيد الى الخيام ، سأله الامير حسن على خصمه فقال هو بطل همام وليث درغام ، فقال الامير حسن لا بد من ثاني الايام ان نهجم عليه بالمواكب ، لان الحريم والعيال سبقونا مع الامير دياب ، وفي ثاني الايام استعدت العساكر للحرب والصدام ، وتطاعنوا بالرماح والقواضب وما زال السيف يعمل والدم يبذل والرجال تقتل الى الزوال ، فعند ذلك دقت طبول الانفصال ، فارتدت عن بعضها الابطال واستمر الحال كذلك مدة ثلاثة ايام، وفي اليوم الرابع انكسرت عساكر الوزير ولم يعد لها ادنى ثبات ، فولت جوانب البراري والفلوات ، واتفق لها في ذلك اليوم قدوم الفرمند بباقي الجند ، فلما أشرف الى ذلك المكان وراى ما جرى ، فاغتاظ وحمل على بني هلال بمن معه من العساكر .

وكانت العساكر المنكسرة ، لما رات جماعتها ظافرة ، ارتدت الى معركة الصدام وقاتلت بعد ذلك الانهزام ، وكان الملك الفرمند قد التقى بالامير حسن في ساحة الميدان وهو ينخي الفرسان ، فتقدم اليه وهجم عليه ، فالتقاه حسن بالعجل وتطاعنا بالرماح وتضاربا بالسيوف حتى اختلف بين الاثنين ضربتان قاطعتان وكان السابق الفرمند ، فراحت خائبة بعدما كانت صائبة ، واما ضربة حسن فالتقاها الفرمند في درقة البولاد ، فسقطت على رقبة الجواد فبرتها ، فوقع الفرمند على الارض ، فعند ذلك هجمت فرسانه مثل سيل المطر وخلصوه من الخطر ، وفي الحال التقت الرجال بالرجال والابطال بالابطال وتقاتلوا الى الزوال ، فعند ذلك دقت طبول الانفصال

فافترقت العساكر عن بعضها ونزلت كل طائفة في ارضها ، ولما اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح ، جمع الامير حسن اكابر الديوان وقال لهم مرادي الان استدعي الامير دياب ليساعدنا على الحرب والطعان ، والا طال الحال وقتلت الفرسان ، فاستصوبوا رايه وقالوا اكتب اليه . فعند ذلك كتب اليه يقول :

يقول الفتى حسن الهلالي ابو علي ونيران قلبي زايدات لهاب
على ما جرى فينا وما اصابنا وصرنا بحيرة والامور صعاب
ايا غاديا مني على متن ضامر فقل الى الزعبي الامير دياب
اتونا جموع كالجراد كثيرة قروم شداد مثل سيل سحاب
نزل الى الميدان فرمند وانتخى وقال اين الفرسان اين الانجاب
فأين المسمى الامير سلامة واين حسن ثم الامير دياب
فقلت له لبيك يا فارس الوغى ونزلت انا لحربه ما حسبت حساب
ضربته بالقرضاب يا امير ضربة قتلت جواده وكاد هو ينصاب
والتقى الجيشان في ساحة الوغى وياما قتلنا من شيوخ وشباب

فلما انتهى الامير حسن من هذا الخطاب ، ختمه وسلمه الى النجاب وأمره ان يسير به الى دياب ويعود بالجواب ، فامتثل وسار حتى وصل الى دياب ، فسلمه الجواب وطلب منه رده ، فلما فتحه وقراه وعرف ما حواه، امر بدق الطبول فدقت في الحال واقبلت اليه الفرسان والابطال ، فأعلمهم بجلية الاحوال وقال لهم استعدوا لمساعدة بني هلال قبل ان يحل بكم الوبال وتسبى الحريم والعيال ، فلما سمعوا منه هذا الخطاب تحمست جميع الجهال والشباب ، وركبوا في ساعة الحال وفي مقدمتهم البطل دياب ليث الغاب والبطل زيدان شيخ الشباب ؛ حتى اشرفوا على بني هلال فالتقوهم بالاكرام والترحاب وشكروهم على ذلك الاهتمام ، وفي ثاني الايام ركبت الابطال والفرسان وطلبت معركة الطعان ، وكان اول من برز الى ساحة الميدان الوزير محمود ابن اخت الفرمند ، ولما صار في ساحة المجال قال هيا يا بني هلال اين فوارسكم المشهورة اين أبطالكم المذكورة اين الامير دياب الذي تلقبوه بليث الغاب ؟ فما اتم كلامه حتى صار دياب امامه، فعند ذلك اشار يهدده فرد عليه دياب وانطبق على خصمه مثل صاعقة الغمام والتقاه الوزير كسبع الآجام واخذا في العراك والصدام ، وما زالا في قتال شديد وضرب يشيب الطفل الوليد نحو ساعة من النهار ، وقد اختلف بين الاثنين ضربتان قاطعتان وكان السابق الامير دياب ليث الغاب ، فجاءت الضربة على رأس الوزير فوقع على الارض ومات ، فلما رات

العساكر ما حل بوزيرها ، انقضوا على بني هلال مثل الصقور واحاطوا بهم من اليمين واليسار ، فالتقتهم بنو هلال وتقاتلوا اشد قتال حتى جرى الدم وسال وعظمت الاهوال ، وما زالوا على تلك الحال الى وقت الزوال ، فعند ذلك دقت طبول الانفصال فرجعت العساكر عن ساحة المجال ، اما الفرمند فانه بات مشغول البال على ما فقد منه من الرجال ولاسيما قتل محمود ابن اخته ، فما طلع الصباح ، حتى برز الى ساحة الكفاح كأنه ليث البطاح ، ثم صال وجال في ساحة المجال وقال لا يبرز لي من الابطال غير ابي زيد ، فما اتم كلامه حتى صار ابو زيد قدامه ، وانطبق عليه بقلب أشد من الحديد واخذ معه في الحرب فالتقاه الفرمند بقلب كالجبال ، فثبت ابو زيد لقتاله ، وما زالا في الحرب والصدام مدة عشرة ايام ، وفي اليوم الحادي عشر ظفر به ابو زيد ، فهجم عليه هجمة جبار وضربه على عنقه بالسيف البتار واذا برأسه قد طار فلما رأى قومه تلك الاحوال خابت منهم الآمال وايقنوا بالهلاك والوبال واجتهدوا ان يخلصوا جثة ملكهم فما قدروا . وانحلت عزائمهم وتأخروا ورجعوا الى مصر وهم على اسوأ حال لا يعرفون اليمين من الشمال ، فتبعهم بنو هلال وفي مقدمتهم ابو زيد ودياب وزيدان ابو الشباب وحكموا فيهم ضرب السيف القرضاب على الاجسام والرقاب حتى دخلوا البلد وهي في حالة الذل والنكد ، فلما رات اكابر المدينة والاعيان ما جرى وكيف ان الفرمند شرب كأس الهوان ، خرجوا الى عند السلطان حسن بن سرحان وطلبوا منه العفو والامان ، فأجابهم الى ذلك الشأن وأوصى الابطال والفرسان ان لا ينهبوا شيئا من امتعة المدينة لا رخيصة ولا ثمينة ، وان يكونوا في هدوء واحتشام اكراما لمزارات الاولياء والعلماء ، وكان للفرمند ولد مقتدر اسمه الامير منذر ، فولاه مقام ابيه بحضور اكابر البلد والذوات بعد ان أوصاه ان يتصرف بحسن السلوك ويتخلق بأخلاق الملوك ، ثم قامت الافراح وزالت الهموم والاتراح ورقص الشباب رقصات عربية وهم يحملون السيوف الهندية ، وكان السلطان حسن قد استحسن مصر كل الاستحسان نظرا لكبرها وما فيها من الابنية الحسان ، فصمم ان يبني له فيها جامعا ليكون ذكرا له على طول الزمان، فأمر البنائين والمهندسين ببناء الجامع المذكور في ظرف ستة شهور ، فأجابوه الى ذلك المرام وبعد ان تم ، امر ان يفرشوه بنفيس الفرش وينقشوا حيطانه بأحسن النقوش ، فامتثلوا امره وفعلوا كما قال ، فكان جامعا عظيم المثال وكان مكتوبا على بابه بماء الذهب هذا جامع الامير حسن الهلالي سيد العرب .

غريق بني هلال في ارض المخاضة

وبعد ذلك امر الامير حسن بهد المضارب والخيام وركبت الابطال ظهور الخيل والجمال وساروا بالنساء والعيال امام الفرسان والابطال قاصدين بلاد العرب والماضي بن مقرب ، وما زالوا سائرين حتى وصلوا الى مكان يقال له المخاضة . وكان الماء مغدرا في السهول والبساتين والحقول ، وكان الامير زيدان والنساء والعيال سائرين امام الفرسان والابطال وكان ابو زيد خلف الجميع ، فعند وصولهم الى هذا المكان تضعضعت الرجال والنساء، فوقعت الاحمال عن ظهور الجمال وصاحت النساء وصرخت الاطفال خوفا من الغريق ، فلما شاهد الامير حسين تلك الحال ، خاف على الحريم والعيال وايقن بالهلاك والوبال ، فسأل عن ابي زيد فقالوا هو مع عمه حسن الجعبري في اخر الظعن مع حريمه وعياله ، فأرسل واستدعاه اليه ، فقال له قد اشتدت علينا المحن وانا خايف على الحريم والعيال من الغريق وقال شعرا اجابه ابو زيد بمثله .

فلما انتهى ابو زيد من مقاله ، قالوا له نجي يا ابا زيد العربان من الغرق والطوفان فلكز الحصان وبين لهم طريق الامان لانه كان يعرف المكان، وكان اول من عبر الجازية وعليا زوجة الامير ابي زيد ، فاتفق ان الهجن قد تزاحمت حتى كادت النساء تقع على الارض ، فتشاتمت الجازية وعليا بالكلام وتخاصمتا اشد خصام وكانت الجازية ازدرت فيها وتكلمت معها كلاما لا يرضيها ، فاغتاظت عليا من الكلام ورجعت الى الوراء وأعلمت اباها غانم بما جرى .

فلما فرغت عليا من قولها وفهم ابوها فحوى كلامها ، اغتاظ الغيظ الشديد الذي ما عليه من مزيد ، وعلم ان هذا كان من الجازية عدوا وافتراء وامر عربه في الحال ان ترد الظعن وترجع الى الوراء ، فامتثلوا امره في الحال ورجعت العربان بالنوق والجمال ، فلما رأى ابو زيد الظعون راجعة، اندهش وتعجب وسأل عن السبب ؛ فقالوا هذا ظعن عمك حسن مراده يرجع بالحريم والعيال ، فلما سمع ابو زيد هذا الكلام ، صار الضياء في عينيه كالظلام ، ثم قصد عمه وقال له لماذا انت راجع الى الوراء ؟ فبكى عمه وانشد يقول :

قال الامير الجعبري بما جرى	الغرض مني هتك بين الملا
اسمع كلامي يا امير سلامة	النار في قلبي تهب وتشعلا

عند المخاضة اجتمعت نساؤكـــم وبناتكم فـوق الهوادج تنجـــلا
فتزاحمت عليــا وجارية المهـــا عند الخروج من المخاضة الفـــلا
شتمت لعليــا الجارية بكلامهــا وزادت عليها بالمصائب والبـــلا
قالت لها عليا مـــا هذا الامـــل منك ايــا بنت سرحان العـــلا
انا زوجة ابـــو زيد الفتـــى هو ابن عمـــك في الرجال مكملا
قالت فروحي يــا عشيقة عبدنـــا ساقطع الراس ما اخاف من الملا
زادت على عليا كلام يغيظهـــا كسرت لحرمتهـــا انتنـــي ترفلا
فبكت وشكت ثـم قالت ارتجـــع فرديت ظعني يا سلامة عاجـــلا

فلما فرغ حسن الجعبري من كلامه وفهم ابو زيد فحوى شعره ونظامه، كان ذلك عليه اقوى من ضرب السيف ، ولكنه اخفى الكمد واظهر الصبر والجلد وقال له اعلم ايها العم المحترم انه ليس على كل النساء ارتباط ، والتفت الى زوجته وقال اعلميني بما جرى بينك وبين الجازية من النفور والخصام ، فأعلمته بواقعة الحال وكيف شتمتها بدون سبب وجعلتها معيرة بين نساء العرب ، فقال اخزي الشيطان وقومي بنا حتى نرجع الان ، قالت اذا رجع ابي رجعت انا ، فجعل يتلطف بخاطر عمه ويطلب منـــه الرجوع ، فقال كلامك على العين والراس الا في هذا ، فانه غير مقبول الا بشرط ان تقطع راس الجازية وتعدمها الحياة ، فعند ذلك أرجع وأكون قد بلغت ما اتمناه ، فقال ابشر بما طلبت يا عماه ، فعند ذلك رجع ابو زيـــد والسيف بيده ودخل على الامير حسن وهو في الصيوان وحوله الامـــراء والاعيان ، فسلم عليه وهو عابس ، فقال له السلطان حسن علامك يا زين الفوارس فاني اراك غضبان ، فأعلمه بما جرى ثم قال له مرادي اقتـــل الجازية بحد الحسام على ما بدا منها من كلام الذم والافتراء وحدثه بما فعلت من الاول الى الاخر ، فقال السلطان دع عنك كلام النسوان وقم بنا الان حتى نستعطف بخاطر عمك ونعود ، فأجابه الى ذلك المرام وركب هو واياه وعند وصولهما المضارب والخيـــام ، استقبلهما حسن الجعبري بالترحاب والاكرام ، فأخذ حسن يستعطف خاطره ويقول له ارجع يا ابن الكرام ودع عنك كلام النسوان ولا تشمت بنا الاعداء في هذا المكان لاننا غرباء الاوطان ولا يجوز ان نختلف في هذا المكان ، فقال وحق الواحـــد الاحد لا ارجع الا براس الجازية ، فقال ابشر مما طلبت فاني ابلغك القصد والامل ، فعند ذلك رجع معهما ولما بلغ الجازية هذا الخبر ، اخذها القلق والضجر وخافت من الخطر ، فسارت الى عند القاضي بدير وترامت على قدميه وقالت انا في جيرتك لانك كهف الانام ومن يلتجىء اليك فلا يضام،

فقال لها ابشري بالسلامة والخير فقد صرت في جوار القاضي بدير ، ثم اخذها الى عند الحريم وزادها في التكريم والتعظيم لانها من اشرف نساء العربان وهي اخت الامير حسن عظيم الشان ، وبينما هو كذلك اقبل الامير حسن وابو زيد فالتقاهما بالبشاشة والترحاب واخذ معهما في الحديث والخطاب ، وقال لهما مالكما متكدران ، فاعلماه بذلك الشان وان مرادهما قتل الجازية ، فقال نفسي فداها فكيف يمكنني ان اسلمكم اياها وقد دخلت داري وصارت في زمامي ، فهذا لا يصير ولو شربت كاس حمامي، فقال ابو زيد لا بد من قتلها على وقاحتها وفعلها ، فقال من الصواب ايها الاحباب ان تحضر علينا والجازية للمحاكمة والاستنطاق فالتي تكون مذنبة منهما تستوجب العقاب ولا يعود يلومنا احد من الناس ، وهكذا استقر الحال ، ورجع مع ابنته عليا الى الديوان ، وكذلك حضرت الجازية فجلست خلف الستار خوفا من ان يقتلها ابو زيد ، فعند ذلك سألها القاضي عن سبب اهانتها لعليا وما هو الداعي الموجب لذلك المقال الذي يورث القيل والقال ، فأنكرت الجازية امام الحاضرين بأنها ما قالت لها كلاما يغيظ ولا يهين ، بل كان كلامها على سبيل العتاب كما جرت عادة الاحباب ، فالتفت الى عليا وقال يظهر من هذا المقال بأن الجازية لم تتكلم في حقك بشيء يورث القيل والقال ، فان كان معك شهود فاحضريهم ليشهدوا عليها ، فذهبت عليا الى البنات اللواتي كن في ذلك الوقت حواليها وطلبت منهن ان يحضرن معها للديوان فقلن نحن لا نذهب معك ولا نترك الجازية ونتبعك، فعادت عليا واعلمت القاضي بذلك الخبر فقال ان الجازية بريئة ليس عليها ادنى حق ، ثم دخلت الجازية لعند الحريم ورجعت عليا لعند ابيها وهي في غم عظيم فلما رآها ابو زيد راجعه مداح يترنم ببعض الشعر .

ثم ركب ظهر الجواد وقال لقد مللت من الحرب وليس لي حاجة الى بلاد الغرب ، فرآته الامراء والفرسان قد رجع الى الوراء ، فازدادوا غما وكدرا واستعظموا الحال ، وعلموا انهم بدونه لا ينفعون في القتال ، فعند ذلك تقدم الامير زيدان وقال للسادات نحن والله بدون ابي زيد لا نقدر على عمل حيلة ولولاه ما كنا قطعنا كل هذه المسافة الطويلة .

فلما فرغ زيدان من شعره وسمعه الامير حسن وباقي الامراء ، قالوا لقد تكلمت بالصواب لان ابا زيد سيفنا الصقيل ورمحنا الطويل ، ثم ركب الامير حسن مع جماعة من الابطال وسار الى عند حسن الجمبري فالتقاه بالتعظيم والاحترام واكرمه كل الاكرام ، فقال له الامير حسن ان كان مرادك ان ترجع الى بلادك ، فدع ابا زيد يوصلنا الى بلاد الغرب ولا تشتت شملنا

ثم اشار يقول :

يقول الفتى حسن الهلالي ابو علي ولـي قلب بين الجوانح طـار
يا امير قد جيناك نرجـو لهمتك ايا ليت عمرك اطـول الاعمـار
فأولادنـا بالقـيروان وقابس رهاين وهم فـي قلعة وحصار
نريدك ترد أبو زيد يا ملـك يدلنـا للقـيروان جهـار
فادخل عليه لا بد يقبل عزيمتـك يـا برمكي يـا مكرم الخطـار
حتى نروح الى البلاد نجيبهـم ونجعل بـلاد القيروان دمـار
فقلبي على مرعي قد ذات واتكوى وشبت بقلبـي والضمائر نـار
علشان مرعي هنت حالي وجيتكم واتوك هـلال كبارهم وصغـار

فلما فرغ الامير حسن من شعره ونظامه وفهم حسن الجعبري فحوى كلامه ، قال انا لا بد لي من الرجوع الى دياري ، ثم انه التفت الى ابي زيد وقال بحياتي ان ترجع الى قومك بني هلال وتذهب معهم الى بلاد الغرب، فقال سمعا وطاعة ، ثم ودع زوجته وعمه ورجع ، وكان قد تأثر على فراق عليا لانها كانت عزيزة عليه ، فعز عليه الفراق واشتد عليه الحزن، فاجتمعت الامراء والاعيان ودخلوا على الامير حسن في الصيوان وقالوا له : ان ابا زيد كثير القلق والغم فمن الصواب ان يتزوج فتزول عنه الشدة ويحصل على الفرج ، فصار كل واحد منهم يقول انا ازوجه ابنتي ثم جمعوا بنات امراء القبيلة وزينوهن بأحسن زينة وكان من جملتهن بنت الامير دياب وبنت الامير حسن وبنت الرياشي وبنت عرندس وبنت الليث الكنـدي وبنت القاضي بدير والجازية أم محمد التي بسببها حصـل النزاع والنكد ، واحضروهن امام ابي زيد وأوقفوهن بين يديه وقالوا له اختر لك واحدة منهن زوجة لك عوضا عن عليا ، فان كل واحدة منهن اجمل منها واحلى ، فلم يرض ولم يقبل اي واحدة منهن : ثم تقدمت الجازية بين يديه وعرضت نفسها عليه ، وكان كما تقدم عنها الخبر جميلة المنظر ومحبوبة من جميع البشر، فقال لها ارجعي والا جعلتك بسيفي قطعتين، فاغتاظت من هذا الكلام وكانت تظن ان تتزوج به وتبلغ المرام ، ثم خرجت هي والبنات الى المضارب والابيات .

ديوان الماضي بن مقرب

في اليوم الثاني عبرت بنو هلال نهر النيل ، وما زالوا يقطعون البراري

حتى وصلوا الى بلاد الصعيد ، وكان الحاكم عليها في تلك الايام رجـــل صاحب قدر ومقام وفضل واحترام ، اسمه الماضي بن مقرب ، وكـــان صاحب حسب ونسب واصله من بلاد العرب ، وكانت اقامته في بلاد نجد العدية الى ان تملكها بنو هلال بالقوة الجبرية ، وقتلوا ملكها الهيدبـــي ابن عطية واستوطنوا فيها ، فاصطحب الماضي مع الامير حسن وسادات بني هلال ، غير انه لكثرة الرجال وازدحام المراعي والجمال ارتحل الماضي من تلك الارض وسار بأهله وعياله الى بلاد الصعيد وسكن فيها ، وكـــان يملكها رجل جبار يقال له نصار ، فائتلف مع الماضي اشد ائتلاف وجعله نائبه في تلك البلاد وشاركه في ماله ونعمته ، وبعد موت الملك نصار تسلطن الماضي على الديار وكان محبوبا من الكبار والصغار ، فلما وصلت بنو هلال الى تلك الديار التقاهم بالترحاب والاحترام وأجلسهم في اعز مقام وذبح لهم الطيور والاغنام ، فشكرته الامراء على حسن اهتمامه ثم اخذهم الى ابياته فأقام الامير حسن في ضيافته مع اهله وسادات عشيرته مدة عشرة ايام في الاعزاز والاكرام وشرب مدام وأكل طعام ، ثم تفرقوا في بلاد الصعيد وانتشروا في البيد وهم في سرور وأفراح وبسط وانشراح ، فاتفق في بعض الايام بينما كان الماضي جالسا على الطعام ، قال له احد الاعوان اعلم يا ملك الزمان قد بلغني من بعض النسوان انه يوجد في بني هلال امرأة بديعة الجمال عديمة المثال في الحسن والكمال والقد والاعتـــدال وفصاحة المقال لا يوجد مثلها في الخلق ، لا في الشرق ولا في الغرب ، واسمها الجازية : كأنها الشمس الضاحية ، ان خطبتها منهم حصلت على السرور والافراح لان طلعتها تنعش الصدور والارواح ، فقال الماضي ان طلبناها منهم يقولوا الماضي يريد حق ضيافته منا بنتا من بناتنا ، فقـــال الوزير يا ملك الزمان بين الناس ما هو عيب والذي يتقرب من الناس خير من الذي يبتعد عنهم ، فقال بعض الوزراء لقد سمعت انا ايضا بخبر هذه الصبية وما فيها من المحاسن البهية ، ولكن اعلم انهم لا يزوجونها بأحد ولو كان من الملوك ، فاذا كان لا بد لك ايها الملك من ذلك فاطلب اولا الخضرا فرس دياب التي لا يوجد مثلها في جميع المماليك وانا أعلم انه لا يعطيها لان نفسه معلقة فيها ، وبهذه الحيلة تطلب الجازية وتنال المراد ، فلما سمع الماضي هذا الكلام تعلق قلبه بالجازية فكتب بذلك الى الامير حسن .

فلما قرا الامير حسن الكتاب احتار من هذا الطلب ، ثم اعطى ابا زيد الكتاب وقال له كيف الراي عندك ، انا أعلم ان دياب ما يطلع عن الخضرا ولو ذهبت كل بني هلال .

فقال الامير ابو زيد : الراي عندي ان اذهب انا وانت مع القاضي بدير الى الامير دياب وندفع عوضها من الاموال والخيول الجياد ما يريد ، فقال الامير حسن هيا بنا ، فركبوا وساروا حتى اشرفـــوا على تلك الاطلال ، فالتقاهم الامير دياب وقال اهلا وسهلا يا سادات الاكارم ، وبعد ان جلسوا قليلا قال الامير حسن لدياب : لنا عندك حاجة نريد ان تقضيها لنا ، وعرض عليه ما اتفقا عليه . فقال له دياب : يا امير حسن كل شيء عندي فـــي قبضة يدك الا الخضرا لان روحي وروحها سواء .

قال له خاله القاضي بدير : هتكت الامراء وكيف يجيئون اليك ومـــا تقضي لهم غرضهم ، قال له يا خالي ان الخضرا أعز علي من البنين ، فخد عوضها مهما تريد من الخيول السوابق لاني لا اعطيها لاحد ولو اجتمعت كل الخلائق ، فاغتاظ حسن من هذا المقال وعول على الرجوع الى بني هلال ، فمنعه الامير غانم واضافه عنده بمن معه ، وذبح لهم الاغنام واكرمهم غاية الاكرام ، ثم دخل على ابنه دياب وعاتبه اشد عتاب وامره ان يعطيه الخضرا، فأجابه لذلك المرام ولم يقدر ان يخالفه ، ثم انه اسرج الخضرا وقادها الامير حسن ، فشكره الامير حسن ، وقال ابو زيد اكتب كتاب الى الماضي وارسل له الخضرا في الحال ، فكتب اليه يقول :

يقول الفتى حسن الهلالي ابو علي	فحاشا لمثلـــي ان يكون بخيـــل
أيا ماضي انا الفتى حسن الهلالي	ارسلت انـــا خضرة دياب عجيل
ارسلت لك خضرة ديـاب بسرجها	والـدرع والدبـــوس بالتكميـل
أيا ليتها يا ابن عمـــي مباركـة	فوكـــل عليها يا امـــير وكيـل
فقال الفتى حسن الهلالي ابو علي	تمنيت عمرك ان يكـــون طويـل

فلما انتهى حسن من هذا الخطاب ، سلمه الى النجاب وامره ان يسير بالخضرا لعند الماضي ويعطيه الكتاب ، فبكى دياب على فراقها وتقدم اليها وعانقها ، فاخذها النجاب الى الماضي فقدمها له واعطاه الكتاب ، فلما قراه وراى الخضرا ، تعجب من كرم الامير دياب ثم سلمها الى السياس ، والتمت حوله اكابر القوم وهنؤوه بها ، لانهم ما راوا لها نظيرا بين سائر الخيول ، وقالوا له بارك الله لك فيها ، فقال بارك الله فيكم واريد ان تركبوا خيلكم وانا أركب الخضرا ونطلع الى الصيد ونجربها ، فركبـــوا وساروا الى ان وصلوا الى مكان الصيد ، فاطلقها الماضي وارخى لها العنان، فعرفت الخضرا ان راكبها ليس خيالها ، فكانت ترفعه عن ظهرها مقدار خمسة اذرع الى ان اختل توازنه فوقع عن ظهرها الى الارض ، فارتض جسمه وتألم ، ولما أتمت الخضرا مشوارها عادت الى الماضي ووقفت عنده ، فقام وقادها من

وسنها وما تجرا ان يركبها الى ان وصل الى قومه ، فسالوه عن افعـــال الخضرا فاجاب يقول :

قال الفتـــى الماضي بن مقـرب — الرجل لا يأمن همـــوم الدهـــر
جتني ترى الخضرا فرحت بشوفها — وانشرح منـــي الحشا والصـــدر
ركبتها حتـــى اشوف احوالهـــا — طارت شبيـــه الطير يـــم الوكر
وراحت كما الغزلان غابت بالفـلا — رمتني فوق الثرى عنـد الصخر
غبت عن نفسي وحيلـي انقطـــع — وتكسرت عظامـــي مـــن الظهـــر
اتـــا ارسلها غـــدا لاهلهـــا — لعنـد ابو مرعـي مـــن الفجـــر

فبينما هم بالكلام واذا بنجاب مقبل قاصدا الماضي ، فحول على باب الصيوان وسلمه كتابا ، ففتحه الماضي وقراه بين السادات واذا به من عند شكر الشريف بن هاشم زوج الجازية ام محمد ، يتضمن على سلام وافر واشواق ، ومن عجب ما تضمنه وحواه ، تنازله عن الجازية وتقديمها له لتكون من جملة نسائه ، وكان السبب لهذا الامر المستغرب الذي لم يسمع مثله في العرب هو ان بني هلال عند وصولهم الى مدينة الشام وحروبهم مع شبيب التبعي كانت الجازية ارسلت الى بعلها المشار اليه كتابا تسلم عليه وتعلمه عن مسيرهم الى بلاد العرب وانهم سيمرون في طريقهم على الماضي ابن المقرب وانه بالكاد ان ترجع اليه وتراه ، فلما اطلع زوجها على هذا التحرير اوجبه الحال ان يكتب للماضي ذلك المقال لانه كان يحبه ، فتنازل له عن زوجته وارسل له ايضا صورة الكتاب على سبيل العهد والميثاق .

فلما فرغ الماضي من قراءة الكتاب وفهمه الحاضرون ، اعتراهم العجب واخذهم الطرب وقالوا وحق علام الغيوب لقد جاء هذا الكتاب طبق المرغوب لانه لم يخطر في البال بأن شكر الشريف يتنازل عن الجازية ام محمد . فاتفق رايهم على ان الماضي يرسل الخضرا الى بني هلال ويعلمهم بواقعة الحال ويطلب منهم الجازية ، فاستصوب الماضي هذا القرار وايقن ببلوغ الاوطار وارسل الخضرا الى السلطان حسن وطلب منه الجازية ام محمد .

(قال الراوي) ثم ان الماضي كتب الكتاب وبعد قراءته على وزرائه وكبار دولته ، وجدوه مناسبا ، فسلمه الى النجاب وسلمه الخضرا فرس دياب وامره ان يسير الى عند الامير حسن ويأتيه بالجواب ، فامتثل وسار حتى وصل الى بني هلال ، فدخل على الامير حسن وسلمه الكتاب ، فقراه وفهم معناه ثم التفت الى الامير دياب وقال له ان فرسك قد رجعت اليك ، فقم وخذها ، فقال دياب انني ما وهبت قط شيئا في حياتي وعدت استرجعه ، فخذها انت واجعلها من جملة خيولك . فقال هذا لا يكون فانت صاحب

المعروف واحق بها من غيرك ، فعند ذلك اخذها دياب وسار وهو في غاية الفرح والاستبشار ، وبعد ذهاب الامير دياب استدعى السلطان حسن اخته الجازية ، فأتت ودخلت عليه وقالت له ماذا تريـــد ايها الملك السعيد ؟ فأخبرها كيف أرسل الماضي يطلبها ومراده يتزوج بها ، ولما سمعت هذا الخطاب ، تكدرت وقالت كيف يتم هذا الامر وبعلي شكر الشريف او اولادي محمد وعمر ؟ وانشدت تقول :

تقول فتاة الحي الجارية ام محمد	بدمع جرى فوق الخدود بـــداد
الا يا اخـــي اسمع شرح قصتـــي	وافهـــم مـــا اقول من الانشـــاد
ترى الحرمة ما تأخذ اثنين يا فتى	بأي مذهب حل وبأي اسنـــاد
انا بعلي شكر الشريف بن هاشـــم	سلطان مكة مـــن اب واجـــداد
وفارقت اولادي بغـــير ارادتـــي	وطاوعتك مـــا كان ذا بمـــرادي
وما فرقة الاولاد الا مصيبـــــة	فمـــا يدخـــل عيني قط سهـــاد
وما طلقني حتـــى اريد بدالــــه	وصار بقلبـــني لهيب ووقـــاد
مقال فتاة الحي الجازيـــة أم محمد	وهكـــذا حكـــم ربـــي عالعبـــاد

فلما فرغت الجازية من كلامها والامير حسن يسمع نظامها ، كتب مكتوبا الى الماضي يعتذر فيه عن ارسال الجازية ، ثم سلمه الى نجاب ليأخـذه اليه ويأتيه بالرد ، فامتثل وجد في قطع القفار حتى وصل الى الماضي ، فأعطاه الكتاب ، فلما قراه كتب الى حسن ان شكر الشريف قد تنازل عن الجازية ام محمد ، ثم ارسل كتاب الشريف مع الرسول الذي حضر معه، فلما وصل اليه سلم عليه بحضور جماعة من الامراء والاعيان، وكانت الجازية من جملة الحاضرين ، ففتح حسن الكتاب وقراه فتعجب من ذلك الخبر الذي لم يخطر على قلب بشر ، ثم التفت الى النجاب وقال لهُ كيف احوال شكر الشريف ؟ فقال الحمد لله بخير وعافية وهو يهديكم جزيل السلام والاشواق ، فعند ذلك اخبر الحاضرين بما كتبه شكر الشريف ، فلما اطلعت الجازية على تلك الحال اعتراها الاندهاش وقالت هذا لا يكون ابدا ولـــو شربت كأس الردى ، فقال ابو زيد من الصواب يا بنت الكرام ان نرسلك الى الماضي لان له علينا جميل واحسان ولاسيما ان زوجك قد رخص له بك ، فمتى صرت عنده حاوليه بأمر الزواج وانا اخلصك من هذه القضيـــة وتذهبين معنا الى الغرب ، فتضمخت الجازية بالاطياب ولبست احســـن الثياب وكانت بديعة المنظر تزهو كالقمر ، فازداد حسنها عن الاول لما تزينت بأفخر الحلل ولبست الجواهر ، فأذهلت البصائر ، ثم ركبت في هودجها بجماعة من النسوان ، وركب معها الامير حسن وعدة من الفرسان ، وجدوا في السير طالبين الماضي ، وارسلوا يعلموه بقدوم الجازية والامير حسن ،

فاخذ الكتاب ، فلما قراه زادت افراحه وكثر انشراحه وايقن بلقاء الحبيب بوقت قريب وامر احد وزرائه ان يستقبل الامير حسن والجازية بالعساكر، فركب في الحال بثلاثة آلاف من الفرسان ، وسار يقطع الطريق بالاغاني والاشعار وسار مع جماعة من النسوان اللواتي لهـــن قدر وشأن ، فكانت النساء تدق بالدفوف والمزاهر والفرسان ، تلعب بالرماح والسيوف الى ان التقوا بالامير حسن والجازية ، فزادت بينهم الافراح وكان يوم يستحـــق الاعتبار لم يسمع مثله في سالف الاعصار ، وكان الماضي قد زين القصر بأنواع الحرير والقماش الفاخر ، وعند وصولهم استقبلهم احسن استقبال واجلس حسن في صدر المقام وجلست حوله الامراء الفخام ونزلت العروس عند الحريم ودارت الحلويات وكاسات الشراب على مائدة الامراء والسادات، ثم حضرت سفرة الطعام وفيها من جميع اللحومات كالضأن والدجاج وبعد ان اكلوا وشربوا ولذوا وطربوا ، رقصت النساء والبنات وغنت المغنيـــات بأنواع الاصوات ، فكانت حفلة لم يسمع بمثلها ولم يفعل احـــد كشكلها ، وداموا في فرح وسرور وغبطة وحبور ثلاثة ايام ، وفي اليـــوم الرابع ، استأذن الامير حسن من الماضي بالمسير لبلاد الغرب ، فقال الماضي ايها الملك الا تقيم عندي في هذه الاطلال ، فبلادي واسعة وهي كثيرة المراعي ، فشكره حسن على اهتمامه وقال لا بد من المسير ، ولما صمموا على الرحيل جعلت الجازية تبكي بدمع غزير لانه لم يكن لها صبر ولا سلوان على فراقهم ساعة من الزمان ، فلما زاد عليها الحال اكثرت من النحيب فانزعج الماضي وسمح لها بالذهاب معهم ، ففرح بذلك الامير حسن وامر الفرسان بالركوب، فركبوا ظهور الخيول وركب الماضي بالفرسان وساروا بصحبتهم ، فحلف عليه حسن بالرجوع ، فترجلت حينئذ الفرسان وودعوا بعضهم فدعى لهم الماضي بالتوفيق والانتصار وسارت بنو هلال لبلاد تونس لخلاص مرعي ويحيى ويونس .

ديوان الزناتي خليفة

وما زالت تقطع السهول والبراري حتى وصلوا لبلاد الغرب ودخلوها، ونزلوا في واد ، اسمه وادي الرشاش ، وكان ذلك الوادي بين جبلين ، فلما نزلوا فيه جفلت منهم الوحوش ، وكان للزناتي ابن اخت يقال له العلام

ابن غضبة فالتفت الزناتي للعلام وقال له اخرج للصيد واتنا بما تصيده ، فأجابه بالسمع والطاعة ، فقام وركب واخذ الكلاب والصقارة وطلع الى الصيد ، فما مشوا الا قليلا واذا بالوحوش من كل جنس بين ارجلهم ، فاصطادوا حتى حملوا خيلهم ورجع هو ومن معه والقوا الصيد امـــام الزناتي ، قال له يا علام ما هذا انا ارى ان ما جاب هذا الصيد الا العجايب، فقال العلام وانا اقول ان ذاك العبد الذي حبست رفاقه راح واتى لنـــا بقومه ، فصار الزناتي في حساب وأمور صعاب ، ثم ذهب الى قصره ونام فرأى في منامه ولذيذ احلامه ، ان اتته عربان مثل الجان ولهم سلطان كبير الشأن ومعهم العبد الذي اتى الى عنده وراح وخلى رفاقه ورأى فارسا اشقر اسمه على اسم الديب وقاضي العرب وقد ملكوا بلاده فقام من منامه طايش العقل ، فاستدعى ابن اخته العلام وقال له رأيت مناما واريد ان تفسره لي فقال العلام يكون خيرا فاستحضر الرمل وحرر الاشكال على شرح البال وولد البنات من بطون الامهات فبان عنده اهوال وضرب رماح ونصال من عرب كالرمال ، ثم انشد يقول :

يقول الفتى علام ولـــد غضبـــة لقد بان عنـــدي يا امير حـــروف
كلامك صحيحا ما به قـــط ريبة وعلم مـــا يحصل بدون مكلـــوف
فهذي عربان الهلالـــي ابو علـــي عليهم الذهب وهم عاقدين دفوف
وهذا ملكهم ابن سرحان يا ملـــك امير بن امير سيـــد معـــروف

فلما فرغ من كلامه ، عاد الزناتي في هم ونكد ، واذا بالهصيص اقبل واخوته بصحبته ، فقام الزناتي لملاقاته واستقباله وانزله في اعز المقام ، ثم جلسوا على الطعام واخذوا يتفاوضون بالكلام ، فقال الهصيص يا اخوان مالي اراكم مغيرين الاحوال ، فأخبره بما حلمه من الاهوال فقال وانـــا حلمت كذلك .

فلما فرغ الهصيص من كلامه ، كان حاضرا رجل اسمه سليمان خبير في طرق واراضي البلدان ، فقال له الزناتي اذهب واكشف لنا هـــؤلاء العرب واتنا بالخبر عن حقيقة امرهم ، فأجاب سمعا وطاعة وركب جواده وسار حتى وصل وادي الرشاش ، فوجدهم قد ملأوا الارض وراياتهـــم تخفق بين الوف بيوتهم كالبحر الزاخر ولا ينظر لها اول من اخر ، فسأل عن بيت امير العربان ، فارشدوه فدخل على الصيوان فرآه مثل زهـــرة البستان ، وصاحبه الامير حسن يترحب بكل من جاء ويودع من ذهب وادهشه كرم بن سرحان ، فعاد الى ان وصل الى الزناتي فسلم عليه وأنشد

شعرا بين يديه .
فلما فرغ سليمان من كلامه ، صار الزناتي في حساب وامور صعاب من هؤلاء العربان ، فقال له الهصيص علامك يا اخي تغير لونك وانت سلطان هذه البلاد وتحت يدك اربعة وعشرون اميرا وكل امير يحكم على مائة الف عنان ! فقال الزناتي اكتب يا اخي الى ملوك بلادنا .
فبعث الزناتي الى جميع الامراء واعلمهم في هؤلاء العرب الذين هم مثل الجراد ويرجع الكلام الى الهصيص ، فركب هو والعلام وجردوا ثلثمائة الف ، وقال لاخيه ابق مكانك وانا اريح افكارك ، وكل ما جاءك فزعة ارسلها حتى ما تخلي العرب تخترق جدارنا ، وسار الهصيص في القوم الى ان وصلوا الى وادي الرشاش ، فقال الهصيص لابن عمه العلام : سر قدامنا يا فارس واكشف لنا العرب اين نازلون ، فأخذ العلام الف فارس وسار قليلا واذا مقبل عليهم فرسان مثل الجراد وكان عقيد القوم الامير ابو زيد ومعه الخفاجي عامر وزيدان بن غانم ، فلما نظر ابو زيد الى العلام قال لرفاقه : احترسوا من هؤلاء القوم ، فهم قوم العلام ابن عم الزناتي ، ووقعت العين على العين ونزل العلام الميدان وسقط اليه ابو زيد مثل السبع، فقال له العلام من انت ؟ ألست عبد المحابيس ؟ قال نعم يا جبان ، فقال له اين الرجال ؟ قال انا معي الف والباقون خلف ، وانا ابو زيد الهمام ، فلما سمع العلام هذا الكلام صار الضياء في وجهه ظلاما ، والتقى البطلان كانهما جبلان ، وحان عليهما الحين وزعق فوق راسيهما غراب البين فاختلف بينهما ضربتان قاتلتان ، وكان السابق في الضربة الامير ابو زيد ، فأخذها العلام في ترس البولاد ، فسقطت على رقبة الجواد ، فبرتها كما يبري الكاتب القلم ، فأدركه قومه واخذوه من قدام ابي زيد ، فمال ابو زيد من اليمين والشمال ، واهلك الابطال فولوا هاربين وللنجاة طالبين ولحقهم بنو هلال حتى ادخلوهم في الجبال ، وبقيت حالتهم في اسوا حال ، فرجع عنهم بنو هلال كاسبين الخيل والاموال ، ولما اقبل العلام وقومه على الهصيص وهم على تلك الحال ، فصاح فيهم وقال اعلموني بما جرى من هؤلاء العربان ؟ فأخبروه فطلع الهصيص ومن معه على الجبل ونزلوا مثل السيل اذا سال حتى أقبلوا على بني هلال ، فنظر ابو زيد واذا بغبار قد حجب الابصار فقال لقومه : كثرت عليكم القوم يا شجعان ، فقالوا نحن فداك ونلقى عداك ، ثم جالوا في الطول والعرض وشنوا الغارة على الاعداء وعاثوا في القوم والامارة وارموهم في الذل والخسارة والغبار ملأ الاقطار والعماريات تنخي الفرسان على قتل الدشمان ، فلما نظر ذلك الهصيص

وقومه ، اعطوا كسرة وارادوا الهرب ، فلما تكاملت العربان الا وابو زيد كسرهم في اخر النهار ورد الخيل الشاردة والعدد المبددة وعاد الهصيص الى موضعه وكمن الى الليل وركب هو وقومه وكبسوا بني هلال واقاموا فيهم الرعبة ، فقامت في العرب الصيحات وعلت الضجات من كل الجهات وادخلوا بني هلال البيوت واخذ قوم الهصيص خيلهم والبنات والنوق ، فجمع ابو زيد اربع كرات وركبت معه العماريات وسبق القوم ومسك لهم الطريق ، فأقبلت عليهم الاعداء فتلاقوا على الجازية والبنات ، فرد عليهم الامير دياب فالتقاه الهصيص وضربه بالدبوس على الطاسة فحرك خضرته وولى من الهصيص هارب والى النجاة طالب ، ولحقه قومه بنو زغبة ، فمر على البنات فنظرته فنادته بنته وطفا : علامك يا ابي هارب ، فما رد وخلاها واذا بالقاضي بدير مهزوم هو وقومه ، فنادته الجازية لا تروح وتخلينا ، فقال ورائي اخوك واذا حسن وقومه هاربين ، فنادته الجازية لا تذهب وتتركنا ، فقال لها ابو زيد يخلصكم من الاسر ، فاذا ابو زيد اتى ، فلما نظرته البنات صحن فيه ، فلما راى ابو زيد ذلك ، عادت نيرانه مشتعلات ورجع هو وقومه وأطلق العنان على لقاء الاعداء ، فالتقاه الهصيص في الميدان فوقع بينهما ضرب شديد ، فقام ابو زيد في عزم الركاب وضرب الهصيص في الرمح ، فشك ذراعه ورماه على الارض ، فهجمت عليه قومه وخلصوه وصار طعن يفك زرد الحديد والبنات تنادي وتنخي قوم ابي زيد وتزغرد لهم وابو زيد في أولهم ، فولى قوم الهصيص شرايد واخذ منهم بنو هلال خيلهم وأموالهم وخلصوا البنات وعادوا الى اهلهم فلاقتهم الاولاد والبنات بالدفوف والضجات وراح قوم الهصيص شتات واما بنو هلال فاجتمعوا في صيوان الامير حسن وصارت الجازية تشتم وتوبخ من هرب وتمدح من ثبت ، فقال لهم ابو زيد يا اجاويد هلال لا تحسبوا ان الهصيص قد انكسر وراح ، فلموا بعضكم واعطوا بالكم الى حالكم واجعلوا حرسا يحرس في الليل ، وأما ابو زيد فكان تعبا وبرد في الليل ، فاعتراه وجع في جوفه وما عاد يقدر يجلس على ظهر الجواد ، فوقف الخفاجي عامر موضع ابي زيد ؛ اما الهصيص اخو الزناتي فجمع قومه وقال لهم : سأعمل حيلة تسوى قبيلة وارمي الاسمر بينهم حتى ننال مرادنا منهم . ولو يدري ابو زيد نايم لغار عليهم بالنهار جهرا ، ثم قال لقومه اركبوا والحقوني واتى لبني هلال من ناحية الشرق وارسل الى الامير حسن يخبره ان الزناتي عدونا ونحن جئنا نجدة معكم وسمى روحه الامير مقلد واشار يقول :

يقول الفتى المسمى الامير مقلد — من ارض كودج والكبار جميع
أتينا نغزي يا حسن مع قومكم — امارة هلال كل قرم شجيع
اريد اسلفكم جميلا طيبا — ومن سلف الاجواد ليس يضيع
لما سمعنا بسيطكم جينا لكم — نكسب غنايمهم وكل تخت رفيع
فلا تحملوا هم الزناتي خليفة — انا لكم عونا سريع مطيع
ولا بد نملك ارض تونس بلادهم — وندعي خليفة في المجال يضيع

فلما فرغ مقلد من كلامه ، طوى الكتاب وختمه في ختمه وأرسله الى الامير حسن فقراه وعرف معناه ، وكان ابو زيد له ثلاثة ايام مريضا وكان دياب حاضرا وبني هلال جميعهم ، فقرأ عليهم حسن الكتاب وأعلم بني هلال ما فيه ، فقال دياب اتونا في وقتهم واشار حسن يكتب الى مقلد بالامر .

(قال الراوي) وركب الامير حسن ودياب والقاضي بدير واكابر بني هلال نحو الف فارس يلاقوهم ، فلما قاربوا الهصيص دق طبله ونشر الاعلام وهجم على بني هلال مثل السبع الغضبان وتفرقت قومه في كل مكان وغاروا على البيوت ونهبوا الاموال واخذوا الخيل والجمال ومائة بنت فايقات الجمال واخذوا البيوت من اهلها ، قال الهصيص انا ما نظرت الاسمر ولا سمعت صوته لعله يكون قد قتل اليوم ، وأما ابو زيد فكان نايما من الضعف فسمع الضجة فقام من نومه وقال ما الخبر وما هذه الصرخات؟ فأخبروه في حيلة الهصيص وما فعل في بني هلال وكيف نهب البوش والمال وسبى النساء والعيال ، فصاح من قلب جريح ودق طبله فاجتمع عنده من بني هلال اثنا عشر الف فارس والباقون كانوا هاربين على رؤوس الجبال واخذ الحاضرين وساروا الى القوم وربطوا لهم في الطريق وصاح فيهم ، فرفرفت النساء على ابي زيد مثل رف الحمام ، وقلن الينا الينا ، فصاح في القوم وقال خلوا عن الحريم والمال ، وهجم عليهم بالحال ، وكانت ساعة تحير الانس والجان وغار على الفرسان كفرخ الحمام وهو يميل على الميامن وعلى المياسر ، فاتى الهصيص الى ناحية ابي زيد كالسبع الكاسر ، وتقاتل مع ابي زيد واصطفت الجيوش ووقعت العين على العين وقال الهصيص انت حي الى الان وفي كل موضع اراك ، وقال ابو زيد في هذا الوقت اريك افعالي .

فعندها التقى البطلان كانهما جبلان ، وطار من تحتهما الغبار وقدحت حوافر الخيل نارا ، والفريقان ينظران الى حربهما وحريم بني هلال تنخي ابو زيد لكي يخلصهم من الاعداء ، فعندها صرخ الهصيص صوتا دوت له الجبال وقام باعه في المزراق وطوحه الى ابي زيد ، فأخذه بالسيف ابراه

كما يبري الكاتب القلم وابو زيد ضايق الهصيص ولاصقه وسد عليه طرقه وطرايقه وهز بيد عود الزان وطعنه بين بزيه طلع من بين لوحيه ، ثم ثنى عليه بالسيف فطير راسه ، ولما نظر جماعته ما صار ولوا الادبار وتبعهم القوم الاخيار ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وعاد ابو زيد وجماعته الى الخيل الشاردة والعدد المبددة واذا بالامير دياب والامير حسن والقاضي وقومهم كانوا قد سمعوا ان ابا زيد لحق الهصيص برجال قليلة ، فتململوا ولحقوه وكان السابق الامير دياب ، فقال اين الرجال يا ابا زيد ؟ فقال هربوا فدونكم خيل اعدائكم ، فقال دياب يا ابا زيد انت طول عمرك تفرج عن بني هلال غمها ، فقال كونوا على حذر لان الذين حاربناهم نقطة من بحر لان قوم الزناتي اربعة وعشرون سلطانا وكل واحد منهم يحكم على مائة الف والبوش يخاف عليه من العدا لئلا يأخذوه ، ومرادنا نبعث معه اميرا ، فقالوا من يروح مع البوش ؟ فقالوا الشور للجازية أم محمد لان لها ثلث الشور فأحضروها ، ثم بعدما دارت القهوة وكاسات الشراب ، التفت الامير حسن نحو الجازية وقال لها قد ارسلنا وراك لكي نشاورك في امر البوش، فمرادنا نرسله لغير موضع ، فشوري علينا من يروح مع البوش ابي زيد مالنا بعده تدبير وانا لا اصلح لاني امير ، فيقولون اميرهم راح والقاضي بديره اصابعه مقطعة ولا يصلح الا دياب لانه يحميه من الاعادي ، فاخبرينا ما رأيك ؟ فقالت له هذا رأس الشور فأشار السلطان حسن ينخيه .

فعرف دياب انها مكيدة من الجازية ولكن اخفى الكمد واظهر الجلد واشار بطيب خاطر حسن .

وكان الامراء يسمعون كلامه فشكروه وقالوا له من يرد عنا القوم في كل غارة ؟ فأشار ابو زيد يقول :

قال ابو زيد المسمى كلام اكيد من جدي خذ البوش وروح ارعاه وسير الى اقصى الجرد تسلم مال ملوك هلال ، كذا الرعيان مع العبد مثلك من يحمي ذا البوش همام ، مثلك ما جدى احفظ نفسك والرعيان من ابطال ومن يردي اخاف عليك من الغارات يجوكم ليلا في تعد ، اياك بالليل تنام، خل النوم مع الرقد ومن يثبت منكم معنا ينال الخير والقصد غدا خليفة يلقانا واكون له انا الجندي ابو سعدا قرم مجرب وصوته مثل الرعد باكر يصبح يلقانا بالبولاد وفي الزرد ومعه جيش يأتينا على خيل ضمر يتحدى وانا يا جواد احضركم ابو زيد ، انا السند غدا اغنمكم منهم مكاسب لا تتعدى وتروح كل هوادجنا يفوح المسك مع الندي ، انا اوصيكم يا فرسان كونوا عصبة مشتدي ، لا تزعل يا امير اياب ، فكون بعزمك مشتدي ، خذ

البوش واسرح فيه بالك غلام تنعدي الفين فارس خيالة وثلاثين الف جندي اصبر على الاهوال ولا تاتونا على البعد ، اسما يا ابا وطفا دياب ، يا ابن غانم اجتهد لولاك هلال ما سكنت بلاد الغرب ولا نجد المال تكفل فيه وزغبي حولك كالاسد كم وقعة اشفيت هلال . انت يا زكي الجد . فلما فـــرغ ابو زيد من كلامه اجابه دياب : يا ابا زيد انت السيد ، وفيك الخير مع السعـد .

فلما فرغ دياب من كلامه ، ركب في قومه بني زغبي وهم تسعون الف فارس ، ولكل الف فارس راية بيضاء ، وسار ابو زيد معه ليدله على وادي الغبا والغباين ، وساق الرعيان البوش وكانوا ستة آلاف راع ، وساروا الى ان وصلوا الى وادي الغبا والغباين ، فوجدوا فيه انواع الزهـور والورود ورائحتها منتشرة في كل مكان ، والمياه الصافية الباردة تجري وتنساب وتسقي الاشجار والزروع ، والشلالات تصب من اعلى مكان الى ذلك الوادي فتشكل مناظر طبيعية جميلة ، فانسروا بهذا المكان الذي كانه جنة رضوان، فقال ابو زيد انزلوا في هذا الوادي واحذروا من كيد الاعادي ، ثم انه عاد لبني هلال ، اما الامير دياب فنصب صيوانه في الوادي ، واوقف رقباء على الجبال اربعة آلاف خوفا من العدا ، ويرجع الكلام الى الزناتي ، فانه لما علم في قتل اخيه غضب واتى بجيش ونزل الى الميدان ، فنزل اليه ابو زيد، فقال له هل انت عبد المحابيس ؟ قال نعم . فقال الزناتي اين المال ؟ فقال معي الف والباقي خلف . قال انت رحت تجيب مال او رجال ؟

فالتقى بعد ذلك البطلان كأنهما جبلان وحان عليهما الحين وزعق فوق راسيهما غراب البين ، فاختلفت بينهما ضربتان قاطعتان ، فكان السابق بالضربة ابو زيد ، فأخذها الزناتي بطارقة البولاد فنزلت على رقبة الجواد فبرتها كبري القلم ، فوقع الزناتي على الارض ، فركضوا على بعضهم البعض واقاموا الزناتي وخلصوه ، والتقى الجيشان والتحم الفريقان وقاســـوا الاهوال وبطل القيل والقال ، حتى اقبل الزوال ، دقت طبول الانفصال وقعدوا الى الصباح ، فاستعد بنو هلال ونزلوا الى الكفاح ونزل الزناتي مع قومه للميدان ، فحملت الشجعان وطارت الرؤوس عن الابدان ، وبقوا على هذا الحال الى وقت الزوال ، فدقوا طبول الانفصال وكل منهم طلب الاهل والاوطان ، فلما عاد بنو هلال جلسوا في صيوان الامير حسن ابن سرحان، فقال الامير حسن لماذا يا ابو زيد تقاتل القوم انت بنفسك وما تعطيني الخبر؟ فان كنت طائعا لله والامير ، فضع رجليك في هذا القيد ، قال ابو زيــد سمعا وطاعة ، وحط القيد في رجليه وقعد في بيت الامير حسن فلما اصبح

الصباح دقت بنو هلال طبولهم ونزلوا الى الميدان ، فنزل الزناتي فلم ير ابا زيد معهم ، فطمع فيهم وغار عليهم مثل الاسد الضرغام وقتل منهم جملة من الفرسان وشتتهم بين الروابي والآكام وكسرهم حتى رحلهم سبعة مراحل ، واخذ الخيل والجمال والحريم والاطفال فراحوا الى عند ابي زيد وهو مقيد ، فقالوا الى متى يا ابا زيد ؟ قم فك القيد من رجليك .

وما لبث ان استعد ابو زيد للحرب ودق طبوله ونزل الى الميدان ، فسمع الزناتي صوت الطبول ، فنزل هو وقومه الى الميدان ، فقال الزناتي لا ينزل لي الا ابو زيد ، فما اتم كلامه الا وابو زيد صار قدامه ، فقال له اين كنت يا ابا زيد ؟ فقال له انا كنت غايب واليوم جئتك محارب ، فالتقى البطلان كأنهما اسدان ضرغامان وغنى فوق راسيهما غراب البين حتى تعب منهما الساعدان وكل تحتهما الجوادان ، وداما في قتال الى الزوال ، فدقت طبول الانفصال ورجعت كل فرقة الى الاطلال ، وباتوا يتحدثون ، وفي الصباح ركب القومان واصطف الجيشان وصار قتال واهوال وبقوا على ذلك سبعة ايام ، وكلت منهم الزنود وذابت الكبود ، فهرب الزناتي وقومه فغار عليهم ابو زيد بقومه وارجعهم اربعة عشر مرحلة الى الوراء وادخلهم البلد ، فلما دخل الزناتي الى المدينة سكرها وراءه وقال انا ما بقيت اقاتل ابا زيد ، ثم جلس يكتب الى الامير حسن يقول :

حلق الزناتي طارة يا معشر الخطارة من اجل قوم جونا . خلوا البلاد دمارا انا الزناتي عندي ابطال ما تنعدي والحرب محكم عندي يشبه لهيب السر . يا ابو علي القاني في حومة الميدان اريك طعن الزان ، يا ما قتلت امارة يا بو علي في بالك ان الدهر يصفى لك لا بد ما تشوف حالك وتشوف شي ما صارا وتشوفني بالنوم . وتقول جاني قومي مرعوب دائم دومي . عقلك وذهنك طار ارحل بظعنك عادي مع جيشك والعتاد ، هذي البلاد بلادي ما هي لغيري داره ، واياك من ابو سعدة يجيك مثل الرعدة نجمة خدمه سعده نجمك عليه غبار وجاك الزناتي غاير من فوق ادهم طاير بيده حسام شاهر ، ان صاب راسك طاره والله انا افنيكم وبناتكم تنعيكم قصاب اعمل فيكم واعمل بكم جزاره . يابو علي اتهير للحرب لا تتغير عند اللقا تتحير في طعن البتارة . فلما فرغ الزناتي من كلامه طوى الكتاب وارسله الى الامير حسن ، فاخذه وقراه وعرف رموزه ومعناه .

ثم رد حسن بكتاب ، وارسله الى الزناتي فلما وصل اليه قراه وعرف معناه ، مزقه ورماه وصاح على الفرسان وامر بدق الطبول والركوب على الخيل ، واما الامير حسن فبعد ما ارسل رد الجواب دق الطبول للكفاح

وطلب النصر من الله الفتاح ونزل هو وقومه الى الميدان ، فنزل الزناتي وعرض وبان وقال حسن لا يبرز لي الا امير العربان ، فنزل اليه السلطان فقال له الزناتي انت مثلي وانا مثلك فعندها التقى البطلان كأنهما جبلان ، وحان عليهما الحين وزعق فوق راسيهما غراب البين ، ودام في قتال حتى ولى النهار ودقت طبول الانفصال ، وعاد كل الى مكانه . ولما اصبح الصباح نزل ابو زيد الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فنزل اليه الزناتي وقال له اين السلطان حسن حتى اذيقه طعني وضربي ؟ فقال ابو زيد انا خصمك وقد جئتك ؛ فعند ذلك التقى البطلان كأنهما اسدان او جبلان وحان عليهما الحين وزعق فوق راسيهما غراب البين حتى كل منهما الساعدان وبقيا على هذا الى وقت الزوال . وفي ثاني الايام نزلا الى الحرب والكفاح ، فأما ابو زيد فقد زاد في الحرب وأما الزناتي فأدار راس جواده وهرب ، فانكسر قومه فلحقه ابو زيد حتى وصل الى مدينة تونس ، ففتح البواب للزناتي حتى دخل واغلق الباب في وجه ابي زيد فقام ابو زيد في عزم الركاب وضرب الرمح في الباب خرقه وعاد الى قومه والاصحاب من بعد ما فرق قوم الزناتي وقتل منهم كل قرم عاتي الى ان وصلت بنو هلال الى بيت الامير حسن ، ودار فيما بينهم الكلام وشكروا ابا زيد الهمام .

ثم قالوا : يا ويلنا من بعدك يابو شيبان يا حامي الاظعان ، يرجع الكلام الى الزناتي لما قالوا له عن الضربة التي ضربها ابو زيد خربت الباب ثمانية كعاب ، فعاد في حساب وأمور صعاب ، اما ابو زيد ثاني يوم دق طبله واستعد للقتال وطلب اللقا ، فدخل البواب الى عند الزناتي وقال له : من ينزل الى الميدان ؟ فقال الزناتي : ومن ينزل الى عزرائيل قباض الارواح ثم كتب الى ابي زيد كتابا وارسله مع الوزير فلما وصل اليه اخذه وتوجه نحو صيوان الامير حسن وأعطاه الكتاب ، فقراه ثم قال حيث ان الزناتي خليفة ذل من حربنا ، ابعث له ان يعتق اولادنا من الحبس ويرسلهم .

فلما وصل المرسال الى الزناتي وأعطاه الكتاب من ابي زيد حمد الله الذي رضوا في فكاك الاولاد ، فبعث الزناتي الى بنته سعده وقال لها اطلقي المحابيس حتى نرسلهم الى اهلهم ، فلما وصل اليها الخبر ، ارسلت سعده الى ابيها تقول يا حيف عليك يا ابي انت صدقت كلام العرب هؤلاء العرب ما بقوا يفارقوا هذه البلاد ، فقال والله لقد صدقت ولو عدمنا الحياة ما عدنا نرسلهم ، وكان مرعي عندها في تلك الساعة ، فقال لها هكذا عملت وابيت ان نذهب الى اهلنا ، فقالت له يا حبيب القلب ألم تعلم انني متى اطلقتكم تذهب روحي برفقتكم ؟ ثم اشارت تسليه بهذه الابيات :

تقول سعدة بنت امـــير تونس — وجرح الهوى قد علقني حبايلـــه
جرحني الهوى في قلبـــي اهانني — ومشعال نار الوجد اشعــل فتايله
أنا ما ضناني غير مرعي وذلنـــي — فيا رب تجمع شملنا بشمايلـــه
طولـــه يشابـــه المرديني اذا مشى — متى تسمح الايام وانظر جمايلـــه
انا خايفة يطلقكم ابـــي وترحلوا — لان سلامة كـــل يوم يزاعلـــــه
فان كان يرسلكم تروحـــوا لاهلكم — وينظركم حسن وتشفـــي نحايلـــه
انا خايفة يبطل حربنا مع قومكـــم — وتروحوا الى نجد العدية جمايلـــه
ويأمر حسن بالشيل سرعةلارضكم — يفرح بمرعي حين ينظر جمايلـــه
مقالة سعدة الهوى قد اضامنـــي — عمل حب مرعي في فؤادي عمايله

(قال الراوي) فلما فرغت سعده من كلامها فانشد مرعي يجاوبها ويقول:

يقول الفتى مرعي بعين وجيعـــة — لها بعـــــد نوم الهاجعين ذراف
لان حسنك يـــا مليحة ذابنـــي — وجاني هـــواك والغرام صـــداف
ولكن ابوك يـــا مليحـــة اهاننـــا — بالحبس صرنـــا موجعين ضعاف
وان كان يطلقنـــا فلا تمنعيـــه — حتـــى نروح لاهلنـــــا وسلاف
واخبر حسن بما فعلتيـــه معنا — ابـــوك بين المـــلا عـــــراف
ونرسل الى ابيك نخطبـــك منـــه — ونعطيك خيلا مـــع اموال ظراف
هذا مرادي يـــا مليحة ومنيتـــي — نريد الحلال ومـــا نريد خـــلاف
واما الخنا فلست فيـــه موافق — لانـــي انا من نســـل قوم اشراف
ولا بد نملك ارضكـــم وبلادكـــم — وآخـــذك حقـــا بغيـــر خـــلاف

فلما فرغ مرعي من كلامه وسعدا تسمع نظامه ، بقيا على ما كانا عليه، في النهار تنزله الى الحبس وفي الليل تأتي به وتنام واياه ، واما بنو هلال لما لقوا اولادهم ما طلعوا من الحبس ، دق ابو زيد طبوله ونزل الى الميدان، فما احد جاء اليه ، فغار في جواده ودق باب تونس ، فرد عليه البواب من تكون ؟ فقال ابو زيد اريد سيدك حتى آخذ روحه من جسده ، فـــــراح البواب لعند سيده .

فلما فرغ خضر من كلامه والزناتي يسمع نظامه ، فاعطاه درعا وسيفا وخوذة وقال له يا خضر ان قتلت ابا زيد ، اعطيتك مدينة وسعدة ، فقال يا سيدي انا اكفيك شره ، ، فبرز الى ابي زيد فقال له من تكون مـــن الفرسان حتى تنزل الميدان ؟ قال انا خضر بن موسى ، فضحك ابو زيد.

فانطبقا على بعضهما ، فقام ابو زيد وحرك الجواد ولاطف خضر وطسه بالدبوس ورماه تحت الحصان ، فقال خضر انا بجيرتك يا ابن الاجاويد ، فقال ابو زيد قم واشلح عدة الحرب ما تستاهل القتل ، فصار البواب يبكي حتى وصل الى عند الزناتي ، فقال كيف حالك مع ابي زيد ؟ فقال يا ملك الزمان كاني رأيت مناما ، احسب الحرب مثل فتح الباب وغلقه . فسطر

الزناتي كتابا وارسله مع عبده الى ابي زيد ، فاخذه وقراه وعرف معناه، اخذه لعند الامير حسن فقراه وهم في الحديث الا وغازي عبد السلطان قد دخل وكان دار بلاد المغرب الجواني وتسمى الشقور وفيها سبعة ملوك ، كل ملك يركب بمائة الف خيال ، فابتدا يخبر الاسياد .

فلما فرغ من كلامه والامارة يسمعون نظامه ، قال ابو زيد ارتاحوا آنا علي في جميعهم وحدي ، ثم انه نبه فرسانه وراح الى صيوانه ، فقـــام السلطان حسن وراح لعنده وقال يا ابا زيد انت ذاهب وانا خايف مـــن الزناتي يحاربنا ، فقال ابو زيد انا احط لكم راية حمراء على باب تونس ، فلا يطلع اليكم ما دام الهوى يلوح بها وتمشي بالليل ، ولا تدق طبلا حتى نلاقي القوم ونرمي فيهم الوهم ، فعاد الامير حسن، واما ابو زيد فصبر الى الليل وركب هو وقومه بنو زحلان ومشوا نحو ذلك العدوان مقدار سبعة ايام ، حتى وصلوا الى موضع فيه ربيع ومياه ، فقال ابو زيد حولـــوا فحولوا ، وفرشوا له الحرام فنعس ونام ، فطلع ثعبان ولسع ابا زيد في فخذه ففلق ابو زيد من ضربة الثعبان وصاح من صمم الفؤاد ، فركضوا اليه وقتلوا الثعبان وعاد في قلب ابي زيد لهيب النار ، فحملوه الى البيت فقامت عياله بالبكاء والنواح على هذا الاسد المسموم ، فعرف السلطـــان حسن وخاف من الزناتي لانه عرف ان ابا زيد مسموم ودياب غائب ، فقوي عزمه واستعد لحرب بني هلال واشار يكتب الى السلطان حسن بالامر ، فرد عليه السلطان حسن ، ثم طوى الكتاب وأعطاه الى النجاب ، فأخذه الى مولاه واعطاه اياه ، فقراه وعرف معناه ، ولما اصبح الصباح دق طبله وركب واطلق الغارة على بني هلال ، فركب بنو هلال خيولهم ودقت الطبول، فالتقى الفريقان فبرز الزناتي الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فبرز اليه السلطان حسن ، والتقى البطلان كأنهما جبلان وطار من تحتهما الغبار حتى سد منافس الاقطار ، وقدحت حوافر الخيل نارا وتكسرت بينهما الرماح والسيوف وكلت منهما الزنود والكفوف وبقيا على هذا الحال الى المساء ، فافترقا على سلامة وباتوا الى الصباح يتحدثون ، فلما اصبح الصباح وضاء بنوره ولاح ، برز الزناتي للميدان فأراد السلطان ان يبرز اليه فمنعوه وقالوا نخاف عليك من الزناتي وأبو زيد ملسوع ودياب غائب وان صار لك حادث تشتت بنو هلال في الجبال ، فقام الخفاجي عامر وطلب الزناتي فمنعـــه حسن وقال انت نزيل عندنا والنزيل ما عليه حرب ، فقام الخفاجي واقسم يمينا انه ان لم ينازل الزناتي عشرة ايام يرحل هو وقومه عن بني هلال ، فتركوه فبرز الزناتي والتقى البطلان كأنهما جبلان وزعق فوق راسيهمـــا

غراب البين وفي اليوم الثالث كل الزناتي وولى هاربا من الخفاجي ، وكان عند الزناتي خطيب يسمى مطاوع ، فقال للزناتي باكر انت انزل اليه وانا اتخبى ، وان انكسرت اهرب قدامه فيلحقك حتى يفوتني فأجيله من الوراء واطعنه من قفاه ، واما الخفاجي فانه راى مناما ان قدام بيته شجرة طويلة اتاها نجار قطعها ، فقام من منامه مرعوبا واستدعى بنته ذوابة وامراته .

ثم ان ابا ذؤابة قال لها : يا بنتي اذا ركب بنو هلال ماذا يكون الجواب؟ وانا حالف يمين اني احارب الزناتي عشرة ايام . فقالت له تمارض يعذروك، اما بنو هلال فدقوا طبولهم وركبوا خيولهم وتفقدوا الخفاجي فما وجدوه، فسأل عنه حسن فقالت الجازية انا اروح اليه ، فراحت تلاقي ذؤابة تبكي، فسألتها عنه قالت مريض ، فرجعت اخبرتهم ، فقال حسن الخفاجي اقسم يمين يحارب الزناتي عشرة ايام وحاربه ثلاثة بقي عليه سبعة ، فكان حاضرا امير اسمه ظريف فقال انا اروح اليه فراح اليه وسأله عن حاله فأشار الخفاجي يجيب عن سؤاله ، ثم وثب كالاسد وشد على جواده وتقلد بالحرب والجلاد وسار مع ظريف، فعندها زغردت البنات ودقت الصماديات

وبعد ذلك التقى الفارسان في حرب وصدام الى ان انحل عزم الزناتي من شدة حربه ، فولى هاربا وللنجاة طالبا ، وحكم دربه نحو جناين الورد وكان الخطيب ماسكا السيف بيده واذا بالزناتي هارب والخفاجي لاحقه ، فطلع الخطيب وطعن الخفاجي بين كتفيه ، خرج يلمع من بين لوحيه ، فرماه قتيلا وفي دمه جديلا ، ففار الفريقان والتحمت الطائفتان وصاح على رؤوسهم غراب البين ، اما ظريف صديق الخفاجي فلحق بالخطيب وطعنه، اصاب الجواد ورماه على الارض ، فرد الزناتي اليه وخلصه من بين يديه ولا زال القتال بينهم حتى ولى النهار فانفصلوا عن القتال وامتلأت الارض من القتلى ، وأخذ الظريف الخفاجي عامر الى بيته وهو بحالة النزاع ، فلما راته ذؤابة طار صوابها .

وافاق من صحوة الموت وكلمها ثم شهق شهقة واحدة وسلم الروح فقام عليه الصياح والتفت عليه العربان من كل ناحية حتى املوا الروابي والبطاح وكسروا عليه السيوف والرماح وغسلوه وكفنوه وواروه التراب ، يرجع قولنا الى الزناتي فانه دق الطبل ونزل الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان، فما برز اليه احد ، فقام حسن وقال علامكم يا بني هلال ما احد يبرز للزناتي ؟ فما احد رد له جواب .

فقال القاضي مرادي اكتب اوراقا نضعها في جراب ، والذي تطلع ورقته ينزل للزناتي ، فكتبوا الاوراق ووضعوها في الجراب ومد القاضي

يده وشالها ، فقال ورقتي فقالوا انزل اليه فقال احفروا لي قبرا جنب الخفاجي لان اجلي قد دنا ، فقالوا له اذا لزم الامر مالها لا من زيد ولا من عمرو ، فقام اشتد واعتد ونزل الميدان ، فقال له الزناتي من انت ؟ قال انا قاضي العربان . قال له انت القاضي وتعرف الحق من الباطل وتجهل حربي وتنزل لمبارزتي ثم راح يهدد .

وسمع الزناتي تهديده فوقع فيما بينهما حرب شديد وضرب يقطع الزرد النضيد مقدار نصف ساعة ، فقام الزناتي في عزم الركاب وضرب القاضي بدير على كتفه الايمن شقه نصفين الى الخاصرة ، فوقع القاضي قتيلا وفي دمه جديلا ، فلما رأى هلال ان قاضيهم قتل ، التقت الرجال بالرجال حتى جرى الدم وسال وفاضت الروابي والتلال ، وما زالوا على تلك الحال الى ان ولى النهار ودقت طبول الانفصال ، فانفصلوا عن القتال وحملوا القاضي الى بيته وقاموا عليه الصياح وكثر النواح ، فقال حسن ما ينفع الميت هذا التعديد لكونه شيء لا يفيد ، فغسلوه وكفنوه وفي التراب واروه ، وعاد بنو هلال في حسرة على القاضي وثاني يوم دق الزناتي طبله وبرز للميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فقال حسن هاتوا الجراب فجابوه تقدم مفضل اخو القاضي بدير ومد يده طلعت ورقته ، لبس آلة حربه وبرز الى الزناتي والتطم الفارسان في حومة الميدان وبدءا في الحرب والطعان ، وما زالا في كر وفر حتى طار عليهما الغبار وقدحت حوافر الجوادين نارا ، وقد داما في الحرب والصدام مقدار خمسة عشر يوما ، حتى انذهل الزناتي من حرب مفضل ، فضرب ديوانا وقال لقومه من منكم يقتل الامير مفضل يا فرسان ؟

فقال الخطيب مطاوع : انا انزل اليه ، وفي الصباح لبس آلة الحرب والقتال وبرز الى الميدان ، فنزل اليه مفضل وقال له اين الزناتي ؟ فقال انا جيت بالنيابة عنه ، ثم هجم على مفضل ووقع بينهما الحرب والقتال واختلف بينهما ضربات شديدة ، فكان السابق الخطيب ، ضرب مفضل على هامه حط راسه قدامه ، فلما رات بنو هلال ان مفضل قتل التطم الجيشان وزعق فوق رؤوسهم غراب البين ، اما بنو هلال فنبذوا مفضلا قتيلا بعدما راح منهم خلق كثير ، واما الزناتي فعاد في غاية الافراح وزالت عنه الهموم والاتراح ، لكن بنته سعده ما هان عليها بقتل ابطال بني هلال ، وكان عند ابيها حكيم اسمه فتوح ، فقالت له أريد منك دواء يبري السقيم من لسع الثعبان لان عندي جارية انقرصت ، فأعطني لها دواء يقطع آثار السم ، فلما حصلت عليه اعطته عبدا من عبيدها وقالت له خذ هذا الوعاء واعطه الى

ابي زيد واياك ان تخلي احدا يدري ما فيه ولك مني ما تريده . فاخذه العبد واعطاه الى ابي زيد فشرب منه فبريء لوقته ، وفي الحال دقت الطبول وزعقت الزمور وذهبت عن بني هلال الهموم ، فسمع الزناتي وعرف ان ابا زيد قد طاب ، فقال من يبرز منكم له ؟ فقال الخطيب انا له والى الف من امثاله ، فبرز الى الميدان وعرض وبان وطلب الفرسان ، فبرز اليه ابو زيد والتقى البطلان كأنهما جبلان ، وحان عليهما الحين وزعق على راسيهما غراب البين مقدار ساعتين ، فقال ابو زيد في عزم الركاب وضرب الخطيب بالسيف على هامه ، حط راسه قدامه ، فلما راى قوم الزناتي ان مطاوعا قتيل وفي دمه جديد ، ولوا هاربين والى النجاة طالبين ، فلحقهم ابو صبرة وبنو هلال ، ودعوا منهم القتلى تلول تلول وجابوا خيلهم وعددهم وعادت بنو هلال بالعز والاقبال ، واما اهل الغرب فوقع فيها الذل ، فعند ذلك ارسل الزناتي الاخبار الى ملوك الشقور ، وكانوا سبعة ملوك وكل ملك يملك على الف عنان ، يقول لهم انه قد اتانا عساكر وعربان ومعهم مكاسب لا يمكن وصفها ، فبادروا الان لنأخذهم في حد السيف والسنان ، فلما وصل الخبر اليهم جاءوا بالحال ، فوصلت اخبارهم الى بني هلال ، فقال ابو زيد علي فيهم وحدي بعون الواحد القهار .

قصة عقل ابن هولا

فلما فرغ ابو زيد من كلامه ، دعوا له بطول العمر والبقاء وركب في قومه بني زحلان واخذ اولاده معه مخيمر وشيبان واخذ معه من بني زغبة الفين وساروا الى ملتقى الملوك ثلاثة ايام ، حتى وصلوا الى وادي النسور وكمنوا للقوم في الليل ، ولما اصبح الصباح اقبلت عليهم الجيوش مثل الغمام ، فصاح ابو زيد بصوت مرعب ، ومال فيهم على الميمنة وشيبان وباقي القوم على الميسرة ، حتى افنوا الجنود وقتلوا السبعة ملوك وجيوشهم وكسبوا خيولهم واسلحتهم ، وبعدها جمع ابو زيد عسكره ونزلوا ربطوا في الوادي خوفا من غيرهم ، فهذا ما كان من ابي زيد ورفاقه ، فيرجع الكلام الى الزناتي ، فلما بلغه الخبر دق طبله وبرز الى الميدان ، فبرز اليه زيدان ابن غانم شيخ الشباب ، فقال الزناتي من انت ؟ فقال انا الامير زيدان بن غانم .

فلما فرغ خليفة من كلامه ، وقع بينهما الحرب الشديد الى اخر النهار ، دقت طبول الانفصال وثاني يوم جاء الامير زيدان بالطراد ، فولى الزناتي هاربا وزيدان وراءه الى باب المدينة ، فقفلوا الابواب في وجه زيدان وكانت خطيبة زيدان معه وهي بنت عمه اسمها ضيا ، فلما تزاحم القومان جفل جملها فاخذها قوم الزناتي ، ولما رجعوا من القتال امر الزناتي سعدة ان تبقي ضيا عندها .

وللحال قامت سعدة بارسال ضيا لعند اهلها واما خليفة فقال لقومه كيف رايتم يا فرسان من منكم يلقى طراد زيدان ، وكان للخليفة ابن اخت يسمى مطاوع ، فقال يا خال انا له ، فقال خليفة انت لست من رجاله ، فقال صدقت يا خال ، لكن دعني أعمل ما بدا لي ، فأخذ مطاوع رجاله وحفر ثلاث حفر وغطاها ، ثم دق الزناتي طبله وخرج الى الميدان ، فخرج اليه زيدان فالتطم الاثنان كأنهما أسدان كاسران وحان عليهما الحين وصاح فوق راسيهما غراب البين ، فأراد زيدان ان يضرب خليفة بالرمح ، فولى خليفة وهرب نحو الحفائر ، فجرى وراءه زيدان فوقع في الحفرة هو والحصان ، فرجع له مطاوع وضربه على هامه ، حط راسه قدامه وارسل راسه ووضعه مع رؤوس الامراء على سور تونس ، فاشتبك القوم واطبقوا على بعضهم الى ان ولى النهار ودقت طبول الانفصال ، فرجع الفريقان وباتوا الى الصباح ، وثاني يوم برز الزناتي للميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فبرز اليه بدر بن غانم اخو زيدان فوقع بينهما ضربتان قاطعتان ، وكان السابق بالضرب الامير بدر ، ضرب الزناتي بالرمح فخلا منه وثنى عليه بالسيف ، فأخذها بطارقة البولاد وثلث عليه بالدبوس ، فخلا عنه ببراعته، فاعتدل الزناتي على ظهر الحصان وضرب بدر بالسيف ، فقطع راسه وارسله الى تونس ، فوضعوه مع راس اخيه زيدان ، وكان لبدر ولدان ، واحد اسمه عقل والثاني نصر ، وكانا أفرس اهل الوقت وأجمل اهل العصر ، فقال عقل لا بد ان أقاتل الزناتي في غد ، وكانت والدتهما اخت السلطان حسن، تسمى هولا ، فسمعت عقل يقول ذلك الكلام فخافت عليه من الزناتي لانه بطل مغوار ، ومتى انغلب يدبر حيلة في قتل من نازله ، فأشارت هولا تنهي عقل عن حرب الزناتي .

لكن هولا عرفت ان قولها لا يفيد ، فذهبت الى الامير حسن وعرفته امرها ، فأتى لعند عقل وصار ينهيه عن قصده فلم يرجع عن عزمه ، فقال له الله ينصرك عليه ، فلما اصبح لبس عقل آلة الحرب والكفاح وصار في الميدان وعرض وبان وطلب مبارزة الفرسان ، فبرز اليه الزناتي خليفة وقال

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم نقتل كبارهم يجونا صغارهم ، فالتطم الاثنان كانهما جبلان او اسدان يزأران ، حتى حمى عليهم الزرد فعرف الزناتي ان عقل فارس لا يطاق ومن صغر سنه خبير بطعن السنان وضرب اليمان ، وصارت الزينات تنخي عقل وتقول يا حامي الزينات وعقل قد زاد حربه وأشبع الزيناتي من ضربه ، ولا زالا في قتال وجدال لحين الشمس مالت للزوال ، فدقوا طبول الانفصال ، ولما اصبح الصباح ركب القومان والتحم الفريقان فبرزوا الى الميدان وصاح على رؤوسهم غراب البين ، واما ابو سعدة فكل وذل وضعفت قواه وانحل ، فلوا عنان جواده وولى هاربا والى النجاة طالبا ، فتبعه عقل وقذفه بالدبوس ، رماه على الارض فأدركه قومه وخلصوه ، فانحدف عليهم عقل وبنو هلال وعظم الحرب والضرب ، ولم يزالوا بالقتال حتى ولى النهار واقبل الليل ، فدقت طبول الانفصال، فعاد الزناتي منزعجا وصار يوصي فرسان قومه على قتل عقل ، ويقول وعمر السامعين يطول :

يقول ابو سعدة الزناتي خليفة	ونيران قلبي زايدات ضرام
فمن منكم ينزل الى عقل يقتله	ويدعيه في وسط اللحود ينام
اعطيه سعدة تكون له حليلة	ويكون عندنا في اعز مقام
يشتفي مني الفؤاد بقتله	وأكيد العدا في حرب وصدام

فلما فرغ خليفة من كلامه وقومه يسمعون نظامه ، فقام ابن اخته مطاوع وقال يا خال انا له ان كان ما قتلته يحرم علي نقل الرمح ما دمت حيا ويحرم علي الفرح والعز والهنا ، فقال خليفة الله يعينك عليه ، ولما اصبح الصباح ركب مطاوع جواده واعتدل في عدته وجلاده ، ودقت طبول بني هلال وركبوا الخيول وركب عقل اولهم وهو ينادي اليوم ولا كل يوم ، فلما رآه قوم الزناتي ولوا هاربين وفي أولهم مطاوع ، فقال له خليفة لماذا انهزمت يا ابن أختي ؟ فقال انهزمت قومنا وما بقي احد ، فلما وصل عقل تحت سور تونس فطلعت بنت الزناتي الثانية وكان اسمها بسمة ، فنظرت الى عقل فوقع هواه في قلبها وملك فؤادها .

وتكلم عقل وكانت بسمة تسمع نظامه ، فعاد مطاوع وبرز الى الميدان فاستقبله عقل وانعقد غبار القتال حتى سد منافس الاقطار وداما في حرب وصدام وافتراق والتحام ، وقدحت حوافر الجوادين نارا ، فيا لهما من اسدين ضرغامين وبحرين متلاطمين ، اما مطاوع فراى قدامه فارسا كرارا واسدا مغوارا وراى من عقل حربا حير عقول الابطال ، فعول على الهرب والفرار ، فاشتلق عليه قوم الزناتي ففار على عقل ثلاثة منهم واحاطوا به،

فضرب واحدا منهم ارماه وغار على الذي قدامه ، فهرب الباقون من امامه، فغار على قوم الزناتي وكل فارس ثبت امامه زوره المقابر ، فنزل اليــــه الزناتي ومطاوع والعلام وعلام ابن نجدة اثنين من قدام واثنين من وراه ، وغدره مطاوع في طعنة من ورائه ، فقال الزناتي خذوه ، فتزاحمت عليه الرجال ، فراح جسم عقل تحت حوافر الخيل ، ما بان له اثر ، ودقت طبول الانفصال فرجع القومان الى الاطلاع ، وكان لعقل اخ يسمى نصر ، فقال غدا انزل الى الميدان آخذ ثاري من هؤلاء الاعداء الغادرين ، فلما سمعت امه هولا بكت بكاء شديدا وتحسرت على عقل تحسرا عظيما ، لكن ولدها نصر طيب خاطرها وفي ثاني الايام برز نصر الى الميدان ، فبرز اليه الزناتي وظن انه عقل ، فقال لقد عاش ورجع الى الحياة فصدمه الامير نصر صدمة جبار ، فالتقاه بقلب اقوى من الصوان والتطم البطلان كأنهما جبلان واختلف بينهما ضربتان قاطعتان ، كان السابق نصر ، فالتقى السيــــف بالدرقة فنزل على رقبة الجواد براها كبري القلم ، فوقع الزناتي علـــى الارض ، فأدركه قومه في جواد واركبوه ومالت المواكب وهاجت الكتائب ، وما عاد يعرف العدو من الصاحب ، وبقي السيف القرضاب يجز الرقاب ، حتى مالت الشمس الى الغياب ، فدقوا طبول الانفصال وباتوا يتحادثون الى الصباح ، فركب نصر وبرز الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فبرز اليه مطاوع والتحما بالحرب الشديد ، فاختلف بينهما ضربتان كان السابق نصر، فشك رمحه في صدر مطاوع ، فأطلع السنان يلمع من ظهره ، فوقع قتيلا وفي دمه جديلا ، فعندها غادرت قوم الزناتي وحملت على بني هلال وزادت المصائب والاهوال ، والتحم الفريقان في المجال وامر الزناتي في أناس تقاتل واناس تحفر حفاير ، وما زال الحرب والقتال حتى وقع نصر في حفرة ، فغار عليه الزناتي وضربه بالسيف على هامه ، حط راسه قدامه ، فاخذوه وامر ان يحطوا راسه على سور تونس جنب راس عقل ، فغار القومان وتزاحم الفريقان وزعق فوق الرؤوس غراب البين ، ولم يزالوا في القتال حتى ولى النهار واقبل الليل ، فرجعوا عن الحرب والصدام ودفنوا نصر بجانب ابيه ولحق بعمه واخيه ، واما امه واخته وقريباته فقد قصصن شعورهن واقمن الاحزان .

وطفقت أمه تندبه ، وكذلك فعلت اخته فتنة ، فلما فرغت فتنة من كلامها ، اقاموا النواح على القبور وقال غانم انا بعد اولادي لا اريد حياة، ومرادي انزل للزناتي اما اقتله وآخذ بالثار او يقتلني واستريح من الاحزان، فبرز الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فبرز الزناتي وانشد :

قال الزناتي ابـن مهران صـادق ولي قلب اقوى من حجـر صوان
انتم علينا يا امـير اعتديتـم زرتـم بلادي وخربتـم البلدان
قتلت اولادك راحـوا بزاتهـم بدر الفنى المسمى اخو زيـدان
واولادهم برزوا يريـدوا قتالنـا عقـل واخوه زينـة الشبـان
قتلتهم وراحـوا بغامض الثـرى وصفيت روس الكل على الحيطان
تسعين امير صاروا بؤوسهم عندي ورملت من بعدهم ترى النسـوان
ما عاد الا انت يا امير جيتنـا فانت شايب بالكبـر وزمـان
فروح يا مسكين لا يقـل عقلك ما يلتقي حربـي سوى المردان
فارجع روح صلي واعبـد ربـك واختم لهـم في سورة الرحمـن

فلما فرغ من كلامه التقى البطلان كانهما جبلان ، ولم يزالا في قتال وجدال حتى دقت طبول الانفصال ، فرجعا عن الحرب والكفاح ولم يزالا على ذلك الحال مدة شهر ، وبعد ذلك كل الامير غانم وما عاد ينزل الى حربه ولا احد غيره ينزل ، فضرب الزناتي ديوانا وقال لقومه ما رايكم ؟ فتقدم ابن عمه العلام .

ديوان مكحول وخريبة

فقال الزناتي ما قتل دياب مع الذين قتلناهم ، قال العلام دياب فـي وادي الغباين مع جيوش بني هلال ، قال الزناتي : مرادنا نرسل له من يقتله ويجيب البوش منه ، والتفت الى اخيه ابي خريبـة وهو فارس صنديد ، فأمره في الركوب الى وادي الغباين ويجيب البوش منه ، فقال سمعا وطاعة ، وركب من ساعته واخذ معه عشرين الف فارس قروم عوابس ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا الى وادي الغباين وغاروا على بوش بني هلال ، وارادوا ان يسوقوه بالعصي ، فقامت الرعيان بالسياط والصراخ، فلما سمع دياب ركب جواده وطلعت فرسانه وراءه والتحم الحرب بينهم بطعن يقصف الاعمار ، وصار بينهم ضرب مثل النار ، فعندها قام دياب في عزم الركاب وضرب ابا خريبة بالسيف على هامه حط راسه قدامه فوقع على الارض يختبط بدماه ولما راى قومه ان اميرهم قتيل ولوا هاربين والى النجاة طالبين ، فلحقهم بنو زغبة ومدوا السيف في اعناقهم ، وما سلم منهم الا الذين وصلوا الى عند الزناتي واخبروه عن قتل اخيه ، فاستدعى اخاه الثاني وكان اسمه مكحول ، وقال له : خذ قومك وامض الى دياب ابـن

غانم ، خذ ثارك منه وانهب بوش بني هلال ، ومهما جبت من هؤلاء يكونوا هبة مني اليك ، فركب بعسكر مقدار خمسين الف همام ، وسار الى ان وصل الى الوادي ، وكان دياب وقومه في الصيد وما بقي عند البوش الا مقدار الف فارس فغارت عليهم خيل مكحول وساقوا البوش جميعه ، فراح الصوت الى دياب واعلموه في الخبر ، فعندها غار حتى وصل الى القوم وهجم على مكحول والتطموا في الخصام وتجرعوا شرب كاس الحمام ، فضرب مكحول دياب في الرمح ، فقام دياب رجله من الركاب واخذها من تحت فخذه وطعن مكحول في الرمح ، فأراد ان يخلي منها مثل دياب ، فجاء الرمح في صدره طلع يلمع من ظهره ، فوقع قتيلا وفي دمه جديلا ، فاخذ درعه وجواده وغادر على قومه وبدا يذبح فيهم حتى قتل مقدار عشرة آلاف فارس والباقون هربوا ، فلما وصلوا عند الزناتي ، اعلموه بقتل اخيه فغضب غضبا شديدا وبرز الى الميدان عرض وبان ، وطلب مبارزة الفرسان، فما احد رد عليه . واذا بغبار علا وطار حتى سد منافس الاقطار ، وبان من تحته فرسان على خيول أخف من الغزلان ، واذا هو الرياشي مفرج الذي كان مع ابي زيد في غزوة ملوك السفور ، فحول وسلم عليهم ، فسألوه عما جرى له ، فصار يخبرهم في اول الكلام واذا ببيارق حمر قد طلعت وابو زيد بأول الخيل ، فلاقاه الامير حسن وبنو هلال وهنؤوه بالسلامة وفرحوا في ملقاه ، وطلعت النساء والاولاد واهالي القتلى الذين قتلهم الزناتي وقعدوا على المقابر لابسين السواد هاتكين الستور باكيات نائحات، ووصلت الخيل التي اتى بها ابو زيد من الاعداء والمكاسب والغنائم واخبر السلطان ابا زيد بما فعل بهم الزناتي وكم اباد من الفرسان ، فلما سمع ابو زيد قول حسن ، صار الضياء في وجهه كالظلام ، وحزن حزنا شديدا على من قتل من الفرسان ، وعندها قام ومر على المقابر وشاهد النساء والبنات ، فلما شاهدن ابو زيد رفعن اصواتهن في البكاء ، فطيب خاطرهن وقال لهن ان اراد الله نأخذ لكن بالثأر ونترك ديار الزناتي خرابا ، ثم دخل عند عليا وبات لثاني الايام وقسم الاموال واعطى حسن جزءا ، وشال الى دياب قسما وثاني يوم برز ابو زيد الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان وتعرض تحت ابواب تونس ونادى الزناتي يبرز الى الحرب والطعان ، فما احد رد عليه ، فوقف تحت الابواب المسكوكة ولا احد يخرج ولا يطلع سوى النسوان التي فوق الاسوار يتفرجن ، فعندها صاح في البواب افتح او ارسل مولاك ، فسار البواب لعند الزناتي قال له قم كلم ،ابو زيد واقف بالباب يريد يواجهك ، فقال الزناتي من يقدر يشوف عزرائيل ويسلمه

روحه ، قال البواب افتح له لكي يواجهك ، فقال له دير بالك وهــــات المفاتيح ، فعند ذلك اخذ المفاتيح وقال اقعد خلف الباب واذا احد سال عن سيدك ، فقل له ان يواجه احد ، فعاد البواب واعلم الامير ابا زيد بذلك ، يرجع الكلام الى الامير حسن ، التفت الى ابي زيد وقال له ما دمت جيت ما بقي الزناتي يفتح الباب ولا يطلب حربا وفي غيبتك ياما عمل من الاعمال، ثم ان الامير ابو زيد قال لهم : قصدي اعمل حيلة تسوى قبيلة ، اندهوا للجازية ، فندهوا اليها فحضرت بين ايديهم ، فقال لها ابو زيد مرادي ان تجمعي مائة بنت من احسن بنات العرب واحضريهن في الليل فأحضرت مائة بنت الى الامير ابي زيد ، فقام ولبس ثيابا بيضاء مثل النسوان ولبس درعه وتحزم بسيفه وسار هو والبنات والجازية ، وكان نصف الليــل الى ان وصلوا الى بوابة تونس ، فقال ابو زيد اقرعي الباب ، فنادى البواب : من يقرع ابواب تونس في هذا الليل ؟ فقالت الجازية نحن من بنات العرب جئنا ومعنا بضائع لكي نبيع ونشتري من عندك على قدر احتياجنا . فقال لها البواب روحوا لن افتح لكم الباب في الليل . ثم انها تدخلت عليه فذهب الى الزناتي واخبره بالبنات على الباب ، فقال له اذهب انا قرات كتبهم قبل ما يحضروا الى هذه البلاد ، لان هذه حيلة من حيل ابي زيد ، ثم ان البواب رجع اليهن واخبرهن بما قال الزناتي ، ثم ان الجازية ابتــدات بالمنادمة هي والبواب واشارت تنشد والبواب يجاوب .

فلما فرغت الجازية هي والبواب من المنادمات والبنات يسمعــون كلامهما ، اخذهم الامير ابو زيد ورجع الى ربعه ، يرجع الكلام الى مرعي وسعدا ، فقال لها يا سعدا الى متى الانتظار وقد طال علينا المطال ، وابوك لا يطلع الى محاربة ابي زيد ولا يفتح الباب ، فضحكت سعدا وقالت انــا افض هذا المشكل ، لان ما يقتل ابي الا الامير دياب ، لانه بان عندي في الكتب ، ولكن سأروح الليلة لعند السلطان حسن وادعيه يجيب دياب ، فلما دخل الليل استدعت اربعين بنتا من بنات الامراء مثل الاقمار ، فلما حضرن قلن ما تريدين ؟ فقالت لهن اريد آخذكن معي لنتفرج على بنات هلال والامير حسن ابو المحابيس الذي عندنا ، ونرجع في هذا الليل ، فقلن سمعا والف طاعة ، ثم امرت لهن بأربعين خلعة من خاص الحرير والديباج الملون وامرت بأربعين جوادا من خيرة الجياد ، وركبت سعدا امامهن مثل البدر المنير لانه ما كان يوجد في عصرها احلى منها ، وتقلدت البنات بأفخر السلاح الى ان وصلن الى باب البلد ، وقالت للبواب افتح الباب ، اياك تتكلم قدام احد ، فلعدمك الحياة ، فقال لها يا ستي المفاتيح مع ابيك اخذهم مني،

فقالت انا لا احتاج اليها معي مفاتيح ، وفتحت الباب وخرجت هي والبنات وامرت عبدها الطواشي يقعد على الباب لحين رجوعهن ، فقعد ينتظر رجوعهن ، فعند ذلك سارت سعدا والبنات حتى وصلن الى الحارس ، فقال العبد ما هذه الخيل في هذا الليل ؟ فقالت سعدا ضيوف ، فقال مرحبا بالضيوف الكرام ، فقالت اين الامير حسن ؟ فقال لها نايم ، فقالت قل له سعدا بنت الزناتي تريد تواجهك وترجع بالليل ، فقال لها انتظري، ودخل لعند جارية اسمها مباركة ، وقال لها اعلمي مولاك ان بنت سلطان تونس حضرت لعندنا ، فدخلت واعلمت مولاها حسن ، فتعجب من حضورها بالليل ، فخرج وقال لسالم ما الخبر ؟ فانشد سالم يقول :

يا مير جانا سربة خطارة	ملوك متقطرين قطارة
يا امير جونا من بلاد بعيدة	وانا بأمري يا ملك محتارة
ارتاع قلبي من منظرهم	شبهتم يا امير شعلة نارة
ما راعني الا الخيول ولبسهم	وكلهم يا ابو علي عالمهارة
ولبسهم ديباج بلون واحد	من الذهب فوق الصدور زرارة

فلما فرغ العبد من كلامه ، فرح الامير حسن ، وقال للعبد اعزمهم ، فراح العبد وعزمهم ونزلهم عن خيولهم وربطها ومشى قدامهم ، فسلمت سعدى على السلطان ، وعرفته بنفسها وبرفيقاتها ، فسلم عليهن وأما ام مرعي لاقتها وضمتها الى صدرها ، وقالت لها دخلت مرعي كيف حاله ؟ وسلمت عليها سلام الاحباب ثم قالت له : يا بو علي لا يكون عندكم افتكار نحو مرعي ورفاقه ، لانهم في اعز مكان ، وانما الراي عندي ان ترسلوا تجيبوا دياب ابن غانم ، فشكرها الامير حسن واثنى عليها وارسل الى ابي زيد يحضر عند سعدى فحضر وسلمت عليه وشرحت له الكلام وودعت حسن وابا زيد واكدت عليهم ليرسلوا وراء دياب ، وذهبت هي والبنات معها حتى وصلن الى القصر ، هذا ما كان من سعدى ، ويرجع الكلام لحسن وأبي زيد، بعدما ذهبت سعدى قال حسن كيف يكون الراي يا ابو زيد ؟ فقال انا ان هلكت بنو هلال ما ارسلت وراء دياب ، قال حسن وانا كذلك ، فقال ابو زيد احضر البنات وامرهن ان يكتبن الى دياب ويطلبنه لاخذ الثار ، فأول ما تقدمت ذؤابة بنت الخفاجي عامر ، كتبت مكتوبا وقصت شعرها ووضعته فيه وحطته قدام جدها غانم وقالت اكتب مكتوبا الى والدك لكي يفرج همنا، فكتب غانم الى ولده كتابا وضمنه :

يقول الفتى غانم على ما جرى له	بدمع جرى فوق الخدود سكيب
ونيران قلبي كلما اقول تنطفي	يهب لها ضمن الضلوع لهيب
على ما جرى فينا وما قد اصابنا	وامر جرى فينا تراه عجيب

يا من يودي الى ديـــاب رسالتي | الـــى امـير بالوغـــا غريب
وقوله يـــا فارس الناس كلهـــا | ويا عز من نقـل القنـــا وقضيب
وانا كبرت ومـــا بقي لي حيـــل | وعزمي غدا منـــي وراح ذهيب
وعمك مسلم عم الشيب راســـه | مـــا عـــاد له عزم ولا ترتيب
وبدر وزيدان يـــا دياب اخوتك | قتلهم الخليفة امس وقت المغيب
عقل ونصر اولاد اخـــوك قتلـى | وقد دعاهـــم فوق الوطـا عطيب
وخرب ابو سعدة جميع ديارنـــا | ومـــا عاد لنا سامـع ومجيب
الا يا دياب الخيل أسرع نحونـــا | واقتل خليفة يـــا امير غصيب
وان كان مـّا تقتل خليفة برمحك | ترى البيض تلفظ كـــلام معيب
وتبقى الهلاليات جميعا مع العـدا | يروحوا سبايا لكل نـذل ورهيب
قتل خليفة ابـــن عمك زامـــل | واخوك غدا مـــا عاد فيـه نصيب
ضرب مفضل ضربـــة ابـاده | وراح علـــى وجه التراب نحيب
ثمانين اميرا مـــن هلال وعامـــر | ادعى دماهم على الوطـــا سكيب
ونـــزل معيقل للزناتـــي وحـــده | وقلنـــا معيقل بالطـــرود لبيب
انحدر على جمع الزناتـــي خليفة | تلقاه ابـــو سعدة كنـــار لهيب
ضرب معيقـــل ضربـــة عامرية | القاه على الوطـــا خـــلاه قليب

وقال لعبده خذ هذه المكاتيب الى مولاك دياب ، ولا تجيني الا وهو معك ، وان رجعت بلاه اعدمك الحياة ، فعندها اخذ المكاتيب وسار طالبا وادي الغباين ، فوصل ووجد مولاه دياب والعرب على الطعام، فصبر حتى رفعوا الطعام ، فدخل على مولاه ووضع المكاتيب بين يديه ، قال له يا سعد ارى وجهك اصفر فما عندك من الاخبار ؟ واشار يسأل العبد .

ثم بدأ يقرأ المكاتيب واحدا بعد واحد حتى انتهى ، فقال انـــي ارى مكاتيب البنات ومكتوب والدي ، فأين مكاتيب الامير حسن وابي زيد ؟ فقال يا مولاي هذه ثمانون مكتوبا الا تكفيك حتى يرسل لك حسن وابو زيد؟ فقال دياب انا جيت هذا المكان برايهم ، ما جيت بشور البنات ، فكيف اروح على كلام البنات حتى يقول لي حسن وابو زيد ومن ارسل وراك ؟ فقال العبد ان البنات ما كتبن المكاتيب الا بأمر حسن وابي زيد ، فقال له ان رحت انا على كلام البنات وقتلت الزناتي لا يعدونها لي ، وان تكلمت يقول لي حسن من بعث وراك ؟ فماذا يكون جوابي لهم وهذه اخر الوقعات بيني وبين الزناتي ، ومرادي املكهم الغرب كما ملكتهم الشرق ، فان كان مقصد بني هلال حضوري هات لي مكتوبين وحجتين من حسن وابي زيد ، ثم انه احرق مكاتيب البنات ، قال العبد انا ان رحت وحدي فان البنات يقتلنني. قال له دياب انا اكتب لك الجواب . ولما فرغ من تسطير الكتاب طواه وختمه واعطاه للعبد فأخذه وسار طالبا بني هلال ، فلما وصل الى غانم اعطاه

الكتاب ففضه وقراه ، فاستدعى البنات وقرا عليهن المكتوب وقال انه لم يات لان حسن وابا زيد لم يرسلا له مكاتيب ، وان لم يرسلوا له لا يأتي ولو انقطع بنو هلال ، فرجعت البنات ودخلن عند حسن باكيات وقلن له يا حسن ارسل لنا وراءه في هذه الساعة ، لياخذ لنا بالثار ويكشف عنا العار ، وان لم ترسل وراءه نروح كلنا لعنده ، فعند ذلك استدعى ابا زيد وقال : انظر هؤلاء البنات وما مرادهن واكتب لهن مثل ما يردن واسترنا معهن ، فقال ابو زيد يا حسن انا ما اكتب ولا ارسل وراءه ، لاني لا احبه ولا اطيق ذكره ، فقال حسن وانا كذلك ، فأرسل خلف ابيه غانم ودعه يذهب خلفه ، فعند ذلك ارسلا وراء غانم فحضر فقال حسن يا غانم مرادنا منك ان تذهب الى ابنك دياب تجيبه ، فقال غانم يا حسن ، ابني لا يأتي ما لم تكتبوا له انت وأبو زيد ، فلما اصبح الصباح عول والد دياب على السفر وحرر مكتوبين على لسان حسن وأبي زيد الى دياب ، واخذهما معه وركب هو وامرأته وسارا طالبين دياب ، وارسل عبد يعلم ابنه في قدومه اليه هو ووالدته ، فلما وصل العبد الى دياب واخبره بقدومهما اليه ، ذهب لملاقاتهما وتوجه الى امه وأنزلها من الهودج وقبل رأسها وقال : ما الذي اتى بك الينا ؟ فأجابت تقول :

تقول فتاة لوع البين قلبها ... ارجع الى قومك واصل الزمايم
ونحن يا امير جئنا لعندك ... فما هذا الرجا منك يا ابن الاكارم
ضيعت حق من رباك والدك ... وسفهت قولي يا قليل الحشايم
ولو كنت يا ابي حافظ مكانك ... فما كان العدا دعونا هزايم
اغظت غانم يا امير وغظتني ... وعاد دمعي فوق الخدود سجايم
ترى الزناتي قد قتل من رجالنا ... اخوتك وكبارنا راحت عدايم
وخالك يدير مع الخفاجي عامر ... ومن غيرهم جملة امارة اكارم
فقم بنا نرجع الى نجد ارضنا ... نعيش بها من خير فضل ابن غانم

فلما فرغت الام من كلامها ، اشار دياب يقول :

يقول الفتى الزغبي دياب ابن غانم ... غضبتم علينا يا وجوه الاكارم
أنا لاجلك اقتل خليفة بساعدي ... وادعي دماه فوق الارض عايم
وآخذ لثار زيدان بسيفي والقنا ... وادعي خليفة عالثرى نايم
فلا بد انصركم واشفي قلوبكم ... انا جيتكم ما عاد فيها مراحم
وانت يا امي افرحي وابشري ... من فوق خضرا مثل طير الغمايم
وتعرفي الفرسان في حومة الوغى ... اذا جيت للميدان ولوا هزايم
فلا بد ان آخذ بثارات اخوتي ... وثارات خالي والقروم الاكارم

فلما فرغ دياب من كلامه وامه تسمع نظامه ، فطاب خاطرها وتوجهت

الى الخيام واستقبل بعد ذلك اباه ، فسلم عليه وقبل يديه ، فقال لا تكلمني لا انا والدك ولا انت ابني انا بريء منك لو كنت ابني كنت سمعت كلامـــي واخذت لي بثاري من الزناتي الذي قتل اخوتك اولادي واحرق فؤادي .

فلما فرغ غانم من كلامه وولده دياب يسمع نظامه ، فقال لابيه اذا كنت لم تأت بمكاتيب ما اروح ، ولو ما فضل احد من بني هلال ، فأعطاه المكاتيب ففضها وقرأها وعزم على الحضور وامر بذبح الاغنام وعمل الولائم والضيافة ثلاثة ايام ، فاسرت ام دياب لولدها ، يا بني ابوك خرف وما عاد له عقل لانه دعا عليك قدامي وما هان علي ، فقال يا اماه دعاه علي ما في بأس لانه من حزنه على اولاده ومقهور من الزناتي ومن فراقنا ، ولكن ان اراد الله تعالى اروح معكم واطلب رضاكم وآخذ لكم بالثأر بعون العزيـز الجبـار .

قتل الزناتي خليفة

(قال الراوي) فلما فرغ دياب من كلامه وامه تسمع نظامه ، فرحت وقالت يا غانم مرادنا نسير لان بني هلال في انتظارنا ، فقال تأهبوا حتى نسير ونعلم بني هلال ان دياب يحضر يوم الاحد لعندهم ، فركبوا وساروا حتى وصلوا الى بني هلال ، فكانت ضجة قوية ، فقالوا اين دياب ؟ فقال غانم نهار الاحد يكون عندكم . اما دياب بعد ذهاب والديه أمر الرعيان بلم البوش من كل جانب ومكان وساروا قدامه طالبين بني هلال بأبطالـــه وفرسانه الذين معه ، ثم قلعوا الصيوان وأمر العكام بأن يسبقه وينصب سيفه على ابواب تونس في نصف الميدان ، ثم دق طبوله ونشر اعلامه حتى بقي بينه وبين بني هلال يوم كامل ، وكانوا جميعهم في انتظاره ، وثاني يوم الاحد خرجت الاربع تسعينات الوف واستقبلوه بالطبول والنوبات وزالت الهموم والاتراح بقدوم دياب وادخلوه الى الحي بنوبة سلطانية عظيمة ، واما اهل القتلى فانهم اجتمعوا على التراب وهم في السواد واثواب الحداد، لكي يشكوا الى دياب ما فعل الزناتي بهم ، واما حسن وابو زيد فبقيا في الصيوان وما خرجا من الخيام ، واما دياب لما لم يجد حسن وابا زيد ، عرف المضمون وانما اخمد الكمد واظهر الصبر والجلد ، ولم يزل سائرا في الموكب العظيم حتى وصل الى تونس ، فرجت منه الارض وطلعت النساء

على الاسوار للفرجة على الزينة ، وارتعد الزناتي خليفة ومن عنده وقال الله يعينا على حربه، واما دياب فرفع راسه الى سور تونس ، فوجد رؤوس الامراء وهم ثمانون راسا مشكوكين على الرماح ، فسال من هؤلاء ؟ فقال له عمه عرندس ، هؤلاء رؤوس بني هلال الذي قتلهم الزناتي وهم اولاد عمك، فقال كل هذا يجري في غيابي ، وظل سائرا الى التربة ، فتقدم اهل القتلى والبنات وشالوا البراقع وحدفوها الى دياب فطيب خاطرهم وخاطر فتنة بنت خاله .

وسار مع الموكب حتى دخل البيوت ، فمر على صيوان الامير حسن وابي زيد ، فوجدهما يتفرجان ، فدخل وسلم عليهما فقاما له على الاقدام واكرماه غاية الاكرام ، وبعدها قام دياب وركب الى بيته وتفرقوا كل واحد لمحله ، واما فتنة فصارت تخبر أباها بما حدث .

فلما فرغت فتنة من كلامها وأبوها يسمع نظامها ، قال مرادنا احد يروح لعند دياب يروي لنا الخبر عن حربه للزناتي ، فقامت داية الحريم وقالت انا اكشف لك عن ذلك وسارت للصيوان ، ولما وصلت اليه وجدته يلاعب بنتا صغيرة اسمها نجيبة ، ويقول لها اين اطعن الزناتي ؟ فقالت له اطعنه بعينه ! فقال قولك مبارك ، وحياتك ما اطعنه الا بعينه ، فرجعت الداية الى عند الامير حسن واخبرته عما رات من دياب ثم افتكر واطرق راسه الى الارض ساعة من الزمان ثم تنهد وانشد يقول :

يقول الفتى حسن الهلالي ابو علي	الاجواد تختبي ليوم النوائب
وما سندنا الا دياب ابن غانم	لانه صميدع من خيار القرائب
ونرجو من الرحمن يفرج همنا	لان العرب ذاقوا اعظم المصائب
عسى من الزغبي يجينا غاية	ويقتل خليفة بين جمع المواكب
دياب امير وابن امير وامير	ولا مثله في شرقها والمغارب
قال الفتى حسن الهلالي ابو علي	وقلبي فرح في ملتقى الحبايب

فلما فرغ حسن من كلامه وامراته تسمع نظامه ، واسمها نافلة وهي اخت دياب ، لحظت على حسن انه داخله الحسد من اخيها ، فعند ذلك اشارت تقول :

مقالة التي قد نالت رجاءها	ودمع عيني فوق الخدود سجايم
سعدنا في بني زغبة دياب	شبيه البحر موجه جا يلاطم
فلما اقبلت خيله علينا	ففرحت البيض داقات الوشايم
طبوله حوله يا امير تنضرب	شبيه الرعد بوسط الجو قايم
وخافوا الاعادي حين شافوا	بني زغبي وهم نسل الاكارم

وقد قال الزناتي لاهـل تونس　　بصيروا اهلهـا لنـا خدايـم
قالت التي قـد نالت رجاءهـا　　نصرك يـا حسن في ابن غانـم

فلما فرغت من كلامها قال لها يا نافلة عسى الامير دياب يقتل الزناتي ونملك تونس ونخلص اولادنا ، هذا ما جرى للامير حسن ونافلة ، فيرجع الكلام لدياب ، فانه قال لقومه في الصباح احضروا جميعكم ، قالوا سمعا وطاعة ، ولما اصبح الصباح نهض الامير دياب وطلب مبارزة الفرسان ولاعب الخضرا في اربعة اركان الميدان ، وسال وجال ولعب بالرمح حتى حير عقول الشيوخ والشباب ثم تقدم الى ابواب تونس ودقها في عكاز الرمح فارتج السور ، فقال البواب من ؟ فقال انا دياب ، اعلم سيدك الزناتي يخرج لحربي لكي يوفي الناس ديونها ، وان سألك عني فقل له دياب قاتل اخويك ابو خريبة ومكحول ، فابرز اليه وخذ بالثأر ، فمضى البواب واعلم الزناتي . فضاقت في وجهه الدنيا ، وما عاد يعي على حاله ، فأرسل احضر ابنته سعدى وقال لها يا باغية ما احد جلب لنا البلاء سواك ، فلو كان من الاول تركتني اقتل المحابيس وابا زيد ، كنا ارتحنا من بني هلال ، لا اخاف الا من دياب ، فقالت سعدى يا ابي لا تخف منه انا اردة عنك ، ثم مشت على شراريف القصر فرات دياب يلاعب الخضرا ، فنظر اليها وكف وجهه عنها لحسنها ، وقال ما اسمك وما تريدين ؟ قالت انا سعدى وانت ما تريد ؟ فأنشد وانشدت بدورها ، ثم رد عليها دياب .

(قال الراوي) فلما فرغ الامير دياب من كلامه ، قالت له سعدى قف عندك حتى ارسل لك ابي ، وعادت لابيها تحثه على حربه فركب الجواد وبرز الى الميدان ، وانشد :

اليوم يومك يا زناتـي خليفـة　　فلا بد من سيفي تروح شـلال
قال الفتـى الزغبي ابن غانـم　　حل الوفـا واشتقت انا للمـال

فلما فرغ الامير دياب من كلامه ، والزناتي يسمع نظامه ، فالتطم البطلان كأنهما جبلان وتصادما صدام الابطال وضربت في حربهما الامثال وقلق الزناتي من حرب دياب ورأى منه ابوابا ما كانت تخطر له بحساب ، رآه بحرا ما له قرار ، وما زالا في الحرب والطعان وهما في أشد ضيق الى نصف النهار ، فزاد الامير دياب على الزناتي بحربه وعاد يفتل حوله على الخضراء مثل الصاعقة ، فخاف الزناتي وانحل عزمه وولى من قدام دياب هاربا الى ابواب تونس ، ودياب لاحقه مثل الاسد الكرار ، فهجم دياب وعسكره على قوم الزناتي والتقت الرجال بالرجال وجرى الدم وسال فيا لها من وقعة تشيب رؤوس الاطفال ، وذهب من الفريقين عدد كبير مـن

الفرسان والشجعان ، وكان لتونس ثلاثة ابواب داخلة في بعضها باب صارة وباب منصور وباب حسرة ، ففتحوا الابواب حتى دخل الزناتي وسكروها، فضرب دياب الباب بالرمح فخرقه ، فاطبقت قوم الزناتي على قوم دياب، فالتقاهم بسيفه القرضاب وهجم بنو زغبة وعظمت الاهوال وبطل القيل والقال الى ان ولت الشمس للغياب ، ودقت طبول الانفصال فاختبأ قوم الزناتي من خارج السور ورجع الامير دياب وقومه الى بني هلال ، فهنأوه بالسلامة وأكلوا وشربوا وحضر الامير حسن والامير ابو زيد لعند دياب وعانقاه وهناه بالسلامة وجلسا معه للمنادمة والكلام ، وامر دياب في الذبائح وعمل الولائم فسألوه عن حرب الزناتي ، فتبسم من قولهم وقال انا اكفيكم شره واقصر عمره ، فقالوا يا دياب غدا اقتل الزناتي وملكنا الغرب كما ملكتنا الشرق ، فقال ان اراد الله تعالى ، ولكن يا حسن الذي يقتل الزناتي يكون سلطان الغرب ، فقال الامير حسن نحن اولاد عم وبين الاهل ما في فرق والرزق واحد والحكم واحد ، ثم انصرفوا الى حالهم ، ولما اصبح الصباح برز دياب الى الميدان ، فبرز الزناتي وانطبقا على بعضهما انطباق الغمام وطال بينهما الطعن والصدام ، من شروق الشمس الى وقت الظلام ، فدقت طبول الانفصال وانفصلا عن القتال ، اما الزناتي فعاد في اسوأ حال وايقن بالهلاك ، فضاق صدره واحتار بأمره ، فطلع الى قصره وارتمى على فراشه ، ثم فتح شباك القصر ونادى ابنته سعدى فأتت وجلست مقابله في شباك اخر ، فتنهد الزناتي وصار يعاتب سعدى .

فلما فرغ الزناتي من كلامه ، قالت له سعدى يا ابي اني لم انم الليل من اجلك ، ودائما اطلب من الله ان ينصرك وينيلك مرامك وانا لم اتعود على القتال والكفاح ومبارزة الابطال ، ثم انها انصرفت والهوى غالب عليها، ولما اصبح الصباح طلعت بنو هلال من خيامها وركبت سوابقها ، واما الزناتي فأغلق ابواب تونس وما عاد يفتح ولا غاد له قلب للخروج الى الميدان لخوفه من الامير دياب الذي قام من نومه وتقلد سلاحه وركب الخضرا وبرز الى الميدان ، فحين نظره الزناتي هانت المنية عليه ، فبرز لدياب وصدمه صدمة الجبار ، وهاش الزناتي كالجمل فتلقاه دياب بالسيف وطار فيما بينهما الغبار حتى سد منافس الاقطار وحجب عنان السماء الى الظلام ، دقت طبول الانفصال وافترقا على سلامة ، واستقاما على هذا الحال مدة شهرين ، وفي اخر الايام برز الاثنان الى الميدان ، فغضب دياب وزاد به الغضب وضرب الزناتي بالسيف ، فأصاب جواده فرمى نفسه على الارض وقد ايقن بذهاب الروح ، فأدركه قومه في جواد

من الخيل واركبوه ومال عليهم دياب بالسيف القرضاب ، وزاد نار الحرب التهابا وقطعت منهم الزنود والرقاب ، وساقهم دياب سوق الغنم ودخلوا المدينة وسكروا ابوابها ، فطلع الزناتي الى قصره فنام على فراشه وهو غارق في الافكار لنصف الليل ، فقام مرعوبا ونادى ابنته سعدى فأتت ، ولما شاهدت حاله بكت وندمت وصارت تشجع والدها على حرب دياب ، وثاني الايام برز الى الميدان فبرز اليه الامير دياب ثم التقى البطلان ، وكانهما اسدان وما زالا في حرب وصدام الى وقت الظلام ، دقت طبول الانفصال، وثاني الايام برز الاثنان الى الميدان ، ولم يزالا في حرب وصدام الى وقت الظلام ، فدقت طبول الانفصال ، وثاني يوم برز البطلان .

واخذا في الحرب والصدام حتى أقبل الظلام ، فدقت طبول الانفصال، وثاني يوم برز دياب الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فبرز اليه الزناتي وصار يقول :

يقول الزناتي افرس الفرسان	في القلب مني زايدة نيراني
بليت فيكم يا هلال بلية	ربي بكم دون الملا ابلاني
قتلت منكم قوم ما لهم عدد	راحوا طعام الوحش والغربان
صافف رؤوس رجالكم انظرها	على الصور منشورة وفي الصيوان
انا خليفة يا دياب تحذر	يا ما قهرت أبطال مع شجعان
انزل عن الخضرا وبوس ركابي	واسلم بروحك لا تكون ندمان

فلما فرغ دياب من كلامه ،التقى البطلان في الحرب والصدام ، فبقيا في قتال شديد حتى ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار ، ودقت طبول الانفصال ورجع كل منهما الى قومه ، وقد ذل الزناتي بعد عز ، وبكى على أحواله وملكه ، وبات تلك الليلة في هم وأتراح الى الصباح ، كتب كتابا يطلب فيه الصلح وارسله الى دياب ، وكان دياب قد برز الى الميدان ، فلما وصل الرسول اعطاه الكتاب ففضه وقراه وعرف رموزه ومعناه ، فتوجه لعند السلطان حسن وعرض عليه كتاب الزناتي ، فقراه ابو زيد على الامارة، فبهتوا جميعا مقدار ساعة ، فقال ابو زيد ماذا تقولون ؟ فقال الراي عندك يا ابا زيد . فقال ابو زيد الراي انكم تصالحوه ومن ابى عن الصلح يسأل الجازية فالتفتت اليهم وقالت أذل الله لحاكم يا بني العربان ذليتم عن حرب الزناتي ودياب ايضا ذل معكم وهو شاطر في ركوب الخضرأ وتعريض الصدر ، وحالا نادت النسوان وقالت دونكن والخيل ، فنحن نقهر الزناتي ونأخذ ثأرنا ، والتفتت الى دياب ، وقالت له انزل عن الخضرا حتى اركبها وأقاتل الزناتي وانشدت تقول :

تقول فتـاة الحي ام محمـد — انا اورد خليفة اقصى المـوارد
انا بنت سرحان الامير بـلا خفا — اخي حسن سلطان على القوم سايد
الا يا عذارى شدوا الخيل واركبوا — على سوابـق اصيلات فرابـد
ونلبس خوذهم والدروع وخيلهم — ونحن نحارب في اللقا والمطارد

فلما فرغت الجارية من كلامها والامراء يسمعون نظامها ، فعند ذلك تبادرت البنات الى الخيل ، وكل واحدة مسكت لجام فرس وقالت لراكبها انزل واركب موضعي في الهودج وانا اركب جوادك ، واما الجارية فقالت الى دياب انزل وانا اركب موضعك واحارب ، فغضب دياب وقال لها كم مرة خلصتك من السبي ، ولو صالحه كل بني هلال ما افوت ثأر اخوتي واولادهم ، ولا صالحت خليفة ، فارجعي الى الوراء وردي البنات واتركي الحرب للرجال ، ثم انه رد على الخليفة وقال :

يقول الفتى الزغبي ولد غانـم — وذم الفتى بعد الكمال حـرام
وحمد الفتى بعد القبيح مذمـة — وحمد الفتى بعد النضال لـزام
انا دوم ممدوح بفعـل اكـارم — بخـير وجود بالفـلا وخصـام
كم فارس انـا بقناتـي قتلته — وادعيته ضمن التراب عـدام
فلا بد ما املـك بلادك كلهـا — وقومـك يصيروا عندنـا خدام

(قال الراوي) فلما فرغ دياب من كلامه ، طوى الكتاب وارسله الى الزناتي خليفة ، فلما وصل اليه ، فضه وقراه وعرف رمـوزه ومعناه ، انخمدت انفاسه وزاد وسواسه ، ولما اصبح الصباح دقت طبول بني هلال الحرب والكفاح ، وبرز الامير دياب الى الميدان ، فنظر الزناتي فأشار يكتب الى دياب ويقول :

يقول ابـو سعدة الزناتي خليفة — والهم قـد جانـا مع الوسواس
ايا دياب الخيل يـا طيب الثنـا — يـا امير حامي حومـة البرجاس
فاصفح عن حربي وخذ مـا تريد — اموال خـذ منـي وكـل اجناس
اقسم عليك بجاه ربـي تجيرني — وبحق الـه العرش رب النـاس
وبطل الحرب عنـي لا تلومنـي — وديني بقولـي مـا انـا دلاس

فلما فرغ الخليفة من كلامه ، طوى الكتاب وختمه وقدمه للامير دياب، فلما قراه مزقه ورماه وصرخ في الخادم صرخة ارعبته ، وقال له لولا ما يكون قتل الرسول حرام لقتلتك ، ولكن ارجع لمولاك وقل له ما عنده جواب الا الحرب ، فرجع النجاب واعلم مولاه بذلك ، فلم يرد عليه جوابا ، فعند ذلك عاد دياب الى بوابة تونس ، فحكم طريقه على خندق كبير ، فنزل عن الخضرا وقاس الخندق ، فطلع عمقه خمسة ارماح ووسمه ثلاثة ، فعرف

ان الخضرا تقفزه ، فعند ذلك اعتلى ظهر الخضرا وارجعها الى الوراء وصار يلاعبها حتى وصلت الى الخندق ، فحثها بالركاب فقفزت الى الجانب الاخر وظل غايرا الى الباب لقي البواب نائما ، فلكزه بكعب الرمح ، ففاق فوجد فارسا فوق رأسه يقول يا بواب اذهب الى سيدك وقل له ان ينزل الى الميدان ، وان لم ينزل فقل له الامير دياب قفز بالخضرا فوق الخندق ، وغدا يقفزها فوق السور ، فراح البواب واعلم مولاه ورجع دياب الى قومه، فعند ذلك نزلت دموع الزناتي وصار يبكي على حاله ، وارسل وراء سعدى ابنته لكي يودعها ، وكان قصده قتلها ، ولكن لم يستطع الوصول اليها ، وكانت سعدى ضربت الرمل فعلمت ان منيته قد قربت ، فأتت الى الشباك قباله وقالت له طب نفسا وقر عينا لانه بان عندي في الرمل انك منصور على دياب ، فدق طبله وبرز الى الميدان فبرز اليه الامير دياب والتقى البطلان كأنهما جبلان وغنى فوق راسيهما غراب البين ، فوقع بينهما ضربتان قاطعتان وكان السابق الزناتي ، طعن دياب بالرمح فأخلى عنها فأصابت الخضرا ، فوقعت على الارض ووقع دياب كأنه طود من الاطواد، فطمع الزناتي فيه وسحب السيف من غمده وهجم عليه ، فأدركه بنو هلال وقدموا له جوادا من الخيل الجياد ، ركب وهجم على الزناتي في قلب لا يهاب الموت ، وما زال السيف بينهما الى وقت الظلام ، فانفصلا على سلامة من الحرب والقتال ، اما دياب فانه حزن على الخضرا كثيرا ، وامر ان يغسلوها ويكفنوها بالحرير ويدفنوها ، وبنى على قبرها قبة عظيمة وذبح على قبرها الف ناقة ، وفرقها على الفقراء زكاة عن سلايلها واولادها ، وثاني يوم نهض دياب واعتد في عدة جلاده وركب على ابن الخضرا ، وكان مهرا رباعيا طويل الباع لين الطباع ، وبرز الى الميدان كأنه فرخ جان وطلب مبارزة الزناتي ، فبرز اليه لانه فرح بقتل الخضرا وظن انه يملك أربه من دياب ويقتله كما قالت له سعدى وأما حسن وبنو هلال ، تحقق عندهم ان دياب في هذه المبارزة يقتل الزناتي لا محال لاجل ثأر الخضرا ، فركب الامير حسن مع سائر بني هلال ، وركبت العماريات الهوادج واصطفت العساكر امام بعضها البعض ، والتحم الزناتي ودياب في حرب شديد يقطع الزرد النضيد من الصباح الى الظهر ، فثارت في راس دياب نخوة الرجال والهمة الكافية العلية ، فسحب الدبوس من تحت فخذه وبرمه في يده وضرب الزناتي على راسه ، فطيرت جميع اضراسه فادار راس جواده وعول على الفرار من عظم الالم ، وما عاد يدري كيف يتوجه ، فلأجل نفوذ الاحكام قام دياب بعزم الركاب واطلق عليه الرمح لان الزناتي كان هاربا ،

فالتفت لكي ينظر الى دياب ان كان لاحقه فاصاب الرمح عينه ونفذت الحربة من قفاه ، فتذكر الامير دياب وقت قول ابنته نجيبة حين قالت له اطعنه بعينه ، فمال ابو سعدى عن الجواد وعول على الوقوع ، فسحب دياب السيف وضربه على هامه ارمى راسه قدامه ، فاخذ دياب الراس على راس السنان وغار هو ورجال بني هلال على قوم الزناتي ، فبدلوا افراحهم بالكدر وولوا هاربين ، واما قرايب الزناتي فانهم صاحوا الامان ودخلـــوا واقعين على دياب ، ورموا سلاحهم وطلبوا الامان واولهم كان العلام وطلبوا من دياب مكانا يقيمون فيه مع حريمهم ، فاعطاهم مدينة الاندلس ومـــا حولها ، ورحل العلام وقومه والحريم والعيال ، وقطنوا بذلك المكان ، ورجع الامير حسن والامير ابو زيد وبنو هلال نحو تونس ، اما دياب فانه ملك تونس واعطى عبده خليل الرمح ، وامره ان يضعه فوق تونس وينادي ان الامير دياب هو الملك وكل من لا يدخل تحت طاعته يقتل ، ففعل العبد كما امره مولاه ، اما سعدى فقد لبست افخر ملبوس وسارت تتمختر كانها عروس ، واتت لعند الامير مرعي وهو يتمشى بجناين القصر بالملابس الحريريـــة ومنتظر الفرج والتيسير فدخلت عليه سعدى وقالت له اعلم ايها الامير انه جاء الفرج وتعاهدت معه ان لا يأخذ غيرها ووعدته ان لا تأخذ غيره ولـــو قطعت بالسيوف ، ثم ودعا بعضهما البعض وكل واحد ذهب الى حـــال سبيله ، اما الامير دياب فأمر بتعليق رأس الزناتي على السور ، وامـــر بتنزيل رؤوس بني هلال ليدفنوهم وملك دياب تخت الزناتي وحاز الملك والمال والنوال وساق الخدم قدامه وامر باطلاق مرعي ويحيى ويونس وخلع عليهم وارسلهم لعند اهلهم وجلس دياب على تخت الزناتي ولبس التاج وهو مصنوع من قديم الزمان ومرصع بالمرجان الاحمر والياقوت الاخضر ومنسوج بالدر والجوهر والذهب الاصفر واجتمعت حوله بنو زغبة ، فلما سمعت سعدى بجلوس دياب على كرسي ابيها خافت وارتعدت فرائصها وخاب ظنها بمرعي وندمت حيث لا ينفعها الندم وتوجهت لعند الامير دياب وترجته في دفن ابيها ، فقبل طلبها وطيب خاطرها وادخلها بين حريمه فأكرموها غاية الاكرام ، هذا ما جرى الى دياب واما ما جرى الى الامير حسن وابو زيد وهما راجعان الى تونس ، فقد سبقهما اناس وشاهدوا رمح دياب والمنادي ينادي باسم دياب والعبد خليل حين راى الامير حسن وابو زيد مقبلين ، رجع شاور مولاه فقال له دياب ارجع وناد كما أمرتك ، فرجع وصار ينادي لا سلطان الا دياب وكل من لا يدخل تحت رمحه يعدمه الحياة ، فحين سمع حسن هذا الكلام قال كيف الرأي يا ابا زيد ، فقال هينة يا حسن ندخل ولو

ما شال الرمح فتقدم عبد الامير حسن، وضرب الرمح قطعه نصفين ، فضربه العبد خليل قطعه كما قطع الرمح ، واما حسن هجم على ديوان الزناتي ، فوجد دياب جالسا على التخت وحوله اكابر بني زغبة والخدم والعبيد بين يديه والتاج على راسه ، فهجم عليه حسن وقال ما هذا يا دياب ؟ اما كفاك مروري من تحت رمحك وتلبس التاج على راسك وتريد ان ترثني وانا حي وتعزلني من منصبي ورثة جدي وابي ؟ لا بد عن قتلك يا نحس ! بعد هذا العمل ، وانحدف على دياب ، فوقف ابو زيد والرجال بوجه حسن وقالوا يا مولانا ان دياب مخطىء ومنك المسامحة ، فهذا كله جرى ودياب جالس على الكرسي غير عابىء به ولا بكلامه ، فازداد حسن حنقا وقال اتركوني حتى أقتل هذا الغاصب ، فقال له دياب يا حسن انت عندك هذه الشطارة ، فلماذا ما قتلت الزناتي وملكت تخته ؟ ولاي سبب ارسلت تتدخل علي انت وابو زيد وكل بني هلال حتى انا قتلت الزناتي ومهدت لكم البلاد ؟ فقال حسن انا والامير ابو زيد ما ارسلنا وراك ولا احد من جميع بني هلال الا البنات وابوك غانم ، فقال دياب المكاتيب عندي فقال حسن ليست المكاتيب مني ، فتقدم ابو زيد وانشد يقول :

يقول ابو زيد الهلالـــي سلامـة	فمالـك يا حسن سرجـان هايش
تريـد تقتل دياب يا بـــو علـي	هـــو حامي ظعننا من كل طارش
لانه جعل رمحـه على باب تونس	الفعل يـــا امـير فعـــل طايش
حريمنا بعثوا البراقيع لابن غانـم	ليدعي ابو سعدة بدمـه يشالش
جانا علـى الخضرا وجندل عدونا	واخذ بثأرنا في ماضيات الطرايش
قوموا بنا نقسم بـلاد الزناتـــي	ونادوا بالاطمئنان والكـــل عايش

فلما فرغ من كلامه تقدم الى دياب وقال له يا ابن العم العين لا تعلو على الحاجب ، قم حتى نركب حسن على الكرسي ونقسم البلاد ، فقام دياب مسك حسن مع ابي زيد واجلسوه على التخت ، ثم تقدم الامير دياب واشار يقول :

يقول الفتى الزغبي دياب ابن غانم	والنار من جوا الضاوع شجونهـا
يا امير حسن لولا دياب ابن غانم	غدا ظعنكم بحرب الزناتي رهونهـا
ولما قتلت الهيدبي وانت شاهــد	وابو زيد حاضر كيف تنكرونهـــا
طعنته رميته والقنا يقـــرع القنا	بيض العذارى شاخصات عيونهـا
وملكتم نجــد العديـة وارضهـا	وقفت بها بيض العذارى يفتنونها
تكاونت انـــا والزناتي خليفـة	وما تعلم الارواح من هو زبونهـــا
وقد راحت الخضرا وشت بها النيا	من طول عمري من العدا اصونهـا
وجاؤوني بنـــو هـلال وعامـر	وجاؤوني بنـآت هلال يندبونهـــا

وجابوا القماش الحرير الغالـــي   وجاؤوا الـى الخضرا يكفنونهـــا
حفرت لها في الارض قامة ومثلها   خايف وحوش البر ينهشونهـــا
ان مت باللـــه ادفنوني جنبهـــا   فيوسط روضةموضع ما تدفنونها
عسى نلتقي يـوم القيامة جميعنا   واقبل الخضرا وامسح عيونهـــا

(قال الراوي) فلما فرغ دياب من كلامه فاعتذر له الامير حسن وقال يا امير دياب الخطأ يقع من قلب الصواب والخضرا ، خذ عوضها مدينــة تونس من غير حساب ، واقسم لك ثلث الغرب الذي تريده ، وانا مثلك وابو زيد مثلي ، فحضروا جميعهم في الديوان وتقاسموا الجميع بالسوية من دون تونس ، فهي للامير دياب ، وانصرفوا على هذا الحال ، اما الامير مرعي فانه اجتمع مع ابيه وسلم عليه وقامت الافراح وذهبت الاحزان وعملوا الولائم وذبحوا الاغنام الى الخاص والعام ونادوا بالامان في جميع البلدان وسلطنوا العلام على قابس ومكناس وتلك البلاد ، وبعد ذلك أمر حسن ببناء قبة عظيمة على قبر الزناتي وأمر باحضار الحفارين والنجارين والدهانين وجميع أرباب الصنائع ان يبذلوا المجهود في تزيين تلك القبة على قبر الزناتي ، وان يكتبوا عليها اسماء الله الحسنى ، فزينوها بالفضـــة والذهب وصنعوا له مشهدا ومزارا وتقاسم البلاد حسن وأبو زيد ودياب، هذا ما جرى من امراء بني هلال .

واما ما كان من قوم الزناتي والامراء وائل ومحمود وزائد وغيرهم من الحكام الذين يحكمون على سبعة تخوت بلاد الغرب والاربعة عشر قلعة ، فلما سمعوا بتسلطن العلام وقتل الزناتي ، هاجوا وماجوا واجتمعت القروم من جميع جزائر الغرب ، واتوا الى ملكهم ناصر ، وهو اخو خليفة ، وكان حاكما على الاربعة عشر قلعة وعلى سبعة تخوت بلاد الغرب فدخلوا عليــه وقبلوا الارض بين يديه واخبروه عن بني هلال وعن قتل خليفة اخيه ، فهاج وماج واسودت الدنيا في عينيه وحالا أمر بتجهيز العساكر والابطال وارسلهم الى العلام ليتهيأ الى حرب العربان ، فلما وصلوا اليه قبلوا الارض بين يديه وبكوا على ملكهم خليفة واظهروا له الحزن والهم والكدر ، وقالوا يا ذلنا من بعده والله لنأخذ بالثأر ونكشف عنا العار ونرجع تونس بالسيف البتار ، لانه ارسلنا اليك الامير ناصر اخو خليفة حتى تتهيأ للحرب والقتال، فكان جواب العلام انني كليت من الحروب وليس لي جلد على ملاقاة الابطال والرجال ، فافعلوا ما بدا لكم وانا امدكم بالاموال ، فأرسلوا يعلمون ناصر اخو خليفة ، ولما بلغه الجواب اخذ في تجهيز العساكر في الحال من الغرب الجواني ، وما مضت مدة من الزمان حتى تجهز عنده ستمائة الف مقاتل

بين فارس وراجل ، فاتى بهذا العسكر الجرار وقصد بني هلال ، وما زال سائرا حتى قارب اطراف تونس ، هذا ما كان من هؤلاء ، واما ما كان من دياب فانه دخل يوما على قصر خليفة فوجد سعدى تبكي وتنوح من فؤاد مجروح على فقد ابيها وعلى فراق مرعي لما كان عندها من الحب والهيام ومزيد الشوق والغرام ، فحياها بالسلام ومال اليها وزاد غرامه فيها واراد ان يأخذها زوجة له ، فقال لها طيبي نفسا وقري عينا حيث انك صرت في ملكي وتحت حكمي ، واريد ان آخذك لي زوجة ، واشار يقول :

يقول ابو موسى دياب بن غانـم	ولي عزم في الهيجا كليث رهيس
ولي عزم امضى من حسام اذا سطا	ومالي ردي الاصـل ولا خسيس
الا فابشري يـا سعدا بابن غانـم	انا صرت حاكم في دريد وقيس
الا يا سعدا قـري وافرحـي	وانـا صرت بعلك دون كـل رئيس
فلا تحزني من بعد خوفك وافرحي	انا دياب الخيـل بيـوم انكيس

فلما فرغ من كلامه اغتاظت غيظا شديدا واشارت تقول :

تقول سعدة بنت سلطـان تونس	سطا البين وتعدى علينـا ومـال
يـا زمان المضى وراح وانقضـى	تعال الينا يـا زمـان تعـال
انـا كنت اميرة بنت امير واميرة	وقصري علـى شرافتين طـوال
ذنبي برقبتك يـا دياب بـن غانم	قتلت والـدي بالصارم الفصـال
تقتلـه وتريدنـي لك حليلـة	فهذا منـك يا ديـاب ضـلال
فان اخذتني يا امير تعمى نواظري	فاني اعجل لروحي بشنق حبـال
ولا الناس يقولـوا اخذت عدوها	ولا انسبك لي يـا دياب رجال
ولا اريد الزغبي دياب بن غانـم	الا مقطع فوق رؤوس جبـال

فلما فرغت سعدى من كلامها ، اسودت الدنيا في عينيه ، وقال لها تتجاسرين علي في هذا الكلام يا بنت اللئام ، وحينئذ أمر عبيده بضربها وان يشغلوها الاشغال الشاقة ويلبسوها الملابس الخشنة ويطحنوها الملح ، ففعلوا ما أمرهم به مدة عشرة ايام ، فدخلت عليها نافلة اخت دياب ، فلما راتها على هذا الحال سالتها عن حالها وما جرى لها ، فاخبرتها سعدى عن ظلم الامير دياب .

فلما اتمت سعدى كلامها الا ودياب صار امامها ، وكان قد سمع منها الخطاب ، لانه كان واقفا خلف الباب ، فأمر غلمانه ان يزيدوا عليهـا الاشغال ، ففعلوا كما امر مدة خمسة عشر يوما وهي تبكي وتنوح ، وكان اكثر بكاها على مرعي لانه نسيها وما فكر فيها ، وكان عندها عبد من عبيد ابيها ، اسمه مرجان ، قالت له مرادي ارسل كتابا الى السلطان حسن ، فقال لها على العين والراس ، فلما فرغت سعدى من الكتاب ، طوته واعطته

الخادم فاخذه وسار به الى حسن ، ففضه وقراه ، فحينئذ اغتاظ من دياب واعلم ابا زيد بما حصل مع سعدى من الاول الى الاخر ، فقال ابو زيد ما تقدر تجيب سعدى الا بواسطة قسمة البلاد ، وفي اليوم الثاني ركب الامير حسن وابو زيد مع جماعة من الفرسان ، وتوجهوا نحو دياب الى ان وصلوا اليه وسلموا عليه ، فاستقبلهم بالترحاب والاكرام واجلسهم باعلى مقام ، وصار يرحب بهم ويقول :

يقول الفتي الزغبي دياب بن غانم   اهلا وسهـلا باصحاب الـــدار
أهلا بمن قـــد شرفوا لمحلنـــا   ابو زيـــد والسلطان والامـــار
اهلا بسلطان الاعـــارب جميعهم   مقـــري اليتامى في سنين عسار

قال الراوي : فلما فرغ دياب من كلامه ، شكروه على قوله ونظامـــه وبقوا في ضيافته ثلاثة ايام ، وفي اليوم الرابع قال حسن لدياب مرادنا نقسم بلاد الغرب ، فقال دياب الامر لابي زيد ، فقال ابو زيد : قدامكـــم مصاعب ومتاعب كثيرة ، فانكم ملكتم تونس وهي مـــن جملة الممتلكات ، والباقي تخوت يجلس عليها سبعة ويحكمون على اربعة عشر قلعة .

فلما فرغ ابو زيد من كلامه ، تعجبوا من سعة اطلاعه وحسن نظامه ، وبينما هم في الكلام اذ اقبل عليهم العبد مرجان ابن ابو القمصان مخضبا بالدماء ومهشم الاعضاء ، فسألوه ما الخبر ؟ فقال لهم ان الشباب قد هلكت وقد نزلت عليهم قوم الامير ناصر اخو الزناتي الذي من تحت يده سلاطين سبعة تخوت بلاد الغرب ، فان لم تدركوهم بسرعة ذاقوا الوبال ، فلمـــا سمعوا هذا الحديث اغتاظوا الغيظ الشديد ، وفي الحال دقت طبول الحرب واجتمع عند الامير حسن فرسان الطعن والضرب ، فاخبروهم بما حصل، فهاجت الابطال واستعظمت تلك الاحوال وركبت جموع بني هلال للحرب والقتال ، وفي مقدمتهم الامير دياب والامير ابو زيد ليث الغاب ، وما زالوا سائرين يقطعون البراري والقفار .

قصة الأمير صبرا

(قال الراوي) هذا ما كان من هؤلاء ، واما ما كان من شباب بني هلال وهم موسى بن دياب وصبرا بن ابي زيد واخواه شيبان ومخيمر ، فانهم كانوا خرجوا للصيد والقنص ومعهم عشرة من اولاد الامراء ، وبقوا مدة

ثلاثين يوما يجولون في البراري والقفار والسهول والاوعار ، يقتنصون من الوحوش والطيور ، وبينما هم بالصيد اذ وصلوا الى عين توزر ، فنزلوا عن الخيول لانهم كانوا تعبانين وجلسوا على شاطىء النهر ، فقام البعض منهم يوقد النيران والبعض يذبحون الغزلان وهم في ارغد عيش واهنأ بال الا وقوم لامير ناصر والعلام مقبلين عليهم وهم مثل الجراد المنتشر لا يعرف لهم اول من اخر ، وكان السبب بقدوم ذلك العسكر هو ان الامير ناصر والجابلي ابن مقرب اتوا ليأخذوا بثار الزناتي ، واخذوا معهم العلام بالحيلة لانه كان مختبرا تلك لاراضي ولسبب التقارير صادف طريقهم عين توزر ، فالتقوا بشباب بني هلال ، فأحاطوا بهم من اليمين والشمال ، فحينما راوا الاعداء احاطت بهم من كل جانب ، صاحوا دونكم والخيل قبل ما تدركنا الاعداء، فحينئذ ركبوا ظهور المهارة وتقلدوا بالسيف والنصال ، وهجموا على تلك الفرسان ونزلوا عليهم بضربات قاطعات تهد الجبال الراسيات ، وفرقوا الميامن والمياسر حتى ما كان الواحد منهم يعرف الاول من الاخر ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وبقوا على هذا الحال لحين الزوال .

فافترقوا عن بعضهم وتجمعوا في تلك الارض ، فوجدوا صبرا مجروحا وشيبان اخو صبرا مقتولا ومرجان بن ابي القمصان مفقودا ، وبقوا يحرسون بعضهم حتى الصباح ، راوا عساكر الاعداء حايطينهم من كل جهة ، فصاروا يشجعون بعضهم البعض الى الصباح ، ركبوا ظهور الخيل وتقلدوا بالرماح والنصال وهجمت عليهم قوم الامير ناصر ، فالتقوا الابطال والجنود كأنهم الاسود ، وما زالوا في اخذ ورد وقرب وبعد وضرب شديد مدة ايام ، فاستقتل شباب بني هلال وهجموا على جيش الجابلي من كل جهة ومكان، وابلوهم بالذل والهوان ونزلوا عليهم في طعنات قاطعات ، فقتلوا من عساكر الامير ناصر مقدار خمسة آلاف فارس ، ثم كلت الشبان وقل عزمها واضمحلت قوتهم فأحاطت بهم عساكر الامير ناصر من كل مكان ، ونزلوا عليهم بضرب شديد وكانت وقعة عظيمة ، لان قوم الامير ناصر كانت تأتيهم النجدات من العلام ومن السبع تخوت ، وقتل بتلك الواقعة ثمانية من شبان بني هلال ، وقبضوا على الامير صبرا وقادوه بالسلاسل والاغلال واحضروه قدام العلام ، فلما راى صبرا امر باطلاقه لانه كان تعاهد مع الامير ابي زيد فلما لحظ الامير الجابلي فعل العلام قال يا علام لماذا هذه المطاولة؟ اقتله بثأر الزناتي ابن عمك من لحمك ودمك ، وقد قتلوا منكم اضعاف ما قتلتم منهم ، فسحب الجابلي الخنجر وضرب صبرا في صدره فقتله ، وقال للفرسان الذين حواليه دونكم ورفاقه فوجد موسى ابن الامير دياب

مع جملة من الفرسان ونازلين عليه بضرب مثل زخ المطر وهو يدافع عن نفسه من حلاوة الروح ويقول يا ابا زيد يا حامي الميدان ، لو كنت حاضرا ويا دياب لو تراني تخلصني من هؤلاء الانذال ، وبينما هو في ذلك الحال وكادوا ان يقتلوه ، الا والسيوف لمعت والعساكر تقدمت ، وفي اولهم الامير دياب في بني زغبة وخلفه الامير ابو زيد في بني زحلان ، وكان السبب في مجيئهم ان مرجان ابا القمصان اخبرهم بذلك الشان ، وعند وصولهم راوا الارض قد ملئت بالطول والعرض ، وصاح الامير دياب على الابطال وهجم على الاعداء من الميمنة وابو زيد من الميسرة ، وبقية الرجال هجموا على الاعداء بقلوب قوية ، وتقدم الامير سرور ابن القاضي نشل الامير موسى من بين الاعداء وهنأه بالسلامة ، فأخبره عما حصل لهم وعن قتل صبرا وشيبان ثم ارتدوا على الفرسان بالسيف والسنان والخيل غايرة والرؤوس طائرة والدماء فائرة ، ودارت على قوم الامير الجايلي الدوائر الى ان اقبل الزوال فبات بنو هلال بالارض يحرسون بعضهم البعض الى ان اصبح الصباح واضاء بنوره ولاح واشرقت الشمس على الروابي والبطاح ، فوجدوا الاعداء حايطينهم من كل جهة ومكان ومرادهم ان يكبسوهم لانه قد اتتهم نجدات من جزائر العرب وتلك الجهات ، وسطوا على بني هلال من اليمين والشمال ونزلوا عليهم بطعنات قاضيات وكثرت الاهوال على بني هلال وشتتوهم في تلك الروابي والجبال حتى انكسرت بنو هلال سبعة مراحل الى الوراء . فلما امسى المساء اجتمعت الفرسان عند الامير دياب وقالوا له كيف الراي يا امير دياب ؟ فقال لهم الراي عند ابي زيد ، فحينئذ تفكر ابو زيد بقتل ابنه صبرا ، فهاجت في راسه نخوة العرب الجاهلية وصاح على الفرسان ان شاء الله ، تنزل اليهم بالسيف البتار ونلحقهم بالدمار ونأخذ منهم ثأر الامير صبرا ، وصار يحثهم على قتل الابطال ويقول :

يقول ابو زيد الهلالي سلامة	بدمع جرى فوق الخدود سيال
آلان طاب الطعن في سوق القنا	بضرب الشواكر وسيوف نصال
الا فارجعوا ردوا الاعادي بعزمكم	بعزم قوي يهلك الابطال
لاقوهم بالسيف وبيدوا جموعهم	وخلوا دما الاعدا كسيل سال
وخذوا بثار الامار جميعهم	بضرب السيف وطعن النبال

فلما فرغ ابو زيد من كلامه ، ثارت في رؤوس الابطال نخوة الرجال. وفي الصباح اصطف الجيشان والتقى العسكران ، فانحدر ابو زيد الى ساحة الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فسقط اليه الامير الجايلي كانه قلة من القلل او قطعة فصلت من جبل ، وصدم ابا زيد صدمة تزعزع الجبال

فاشار ابو زيد يقول :

على ما قال ابو زيد الهلالـي … انـا ليث المعامـع والنضـال
انا ليث الحروب بكـل يـوم … افرجها اذا وقـع القتـال
الا يا جايلي فاسمـع لقولـي … ورد علـى قصيدي مـع مقالي
ستعلـم انني ليث قديـر … مبيـد الخيـل هـزام الرجـال
ولـي قلب كما الصـوان ثابت … اكيـد الخصم حقـا لا ابالـي
وحـق الله خـلاق البرايـا … الـه دائم فـي الملك عـال
لاقطع جنسكـم يـا آل حمير … وافـي قومكـم عنـد القتال
وآخذ ثـار شيبـان وصبرة … واجـري دمكـم فـوق الرمال

فلما فرغ ابو زيد من كلامه انحدف عليه الجايلي من غير رد جـواب وداما في الحرب والصدام ساعة من الزمان ، وكلما فتح ابو زيد بابا من الحرب يسده الجايلي حتى سد عليه اثنين وسبعين بابا ، وبقيا على هذا الحال الى وقت العصر ، فصاح الجايلي على ابي زيد وضربه بالرمح راحت الضربة خائبة بعد ان كانت صائبة ، فثنى عليه بالسيف ، فأخذها بطارقة البولاد فانكسر السيف ، فحينئذ تعدل ابو زيد على ظهر الحمرا وقال له خذها من الامير ابي زيد ، وضربه بالسيف ، فحكم على الرقاب فأخذ الرأس والخاصرة وسقط السيف على الجواد فقطعه قطعتين ، فمالت الابطال على الابطال والفرسان على الفرسان من اليمين والشمال ، حتى ضعفت رجال الجايلي ، فحل بهم الدمار وركنوا الى الهزيمة والفرار ، ولا زالت بنو هلال تضرب فيهم بالسيف البتار الى ان اوصلوهم لقرب الديار ، وكان قد ولى النهار واقبل الليل فباتوا يحرسون بعضهم الى الصباح ، فنزل الامير دياب الى الميدان وعرض وبان وطلب مبارزة الفرسان ، فانحدر اليه الامير دياب واخذوا في الحرب والصدام الى نصف النهار فغار الامير دياب على الامير ناصر وضربه بالسيف ، فخلا منه فأتت على راس الجواد فبرته كما يبري الكاتب القلم ، فوقع ناصر على الارض ، فانحدر العلام امام الامير دياب بقلب لا يهاب ، فنزل الامير ابو زيد الى العلام خوفا من ان يقتله الامير دياب ، لانه كان متعاهدا هو واياه في سنة الريادة ، فصار يتجاول هو واياه ، فضرب الامير ابو زيد راس جواد العلام فأوقعه على الارض فأتت قومه واركبته جوادا اخر وصار يتجاول هو واياه الى وقت الغياب ، وبقيا على هذا الحال عشرة ايام وكان كل يوم يقتل له جوادا في اخر النهار حتى ضجرت العرب من قتالهما ، وحينما افترقا عن القتال، اتت الجازية الى الامير ابي زيد ، وقالت له لماذا هذه المطاولة ايها الامير وصبرا قد قتـل بواسطة العلام ، وقد قتلوا منا تسعين اميرا ؟! ثم انشدت تقول :

تقول فتاة الحي الجازية ام محمد — الا فاسمعوا لي يا هلال الاكابر
ابو زيد للعلام ينزل يخاربه — من الصبح لما الليل يسود عاكر
فينزل يحاربه ويقتل جواده — ويترك العلام بالارض حاير
لانه حالف عمره ما يخونه — ومتعاهد واياه والعهد ظاهر
ولو يحاربه مدى العمر في الوغى — لم يقتله ابدا ولا له خاطر
ولو مات منا كل يوم قبيلة — فما زال ابو زيد على العهد ساير
الا فاسمعوا لي يا رجال جميعكم — غدا ان اتى العلام عالقا غاير
ورأيتم ابو زيد الهلالي يحاوله — فصيحوا على العلام وارموه شطاير
وادعوه على الغبرا قتيل مجندل — في ثار صبرا عز قيس الاكابر

فلما فرغت الجازية من كلامها والامراء يسمعون نظامها ، انتبهوا الى ما كانوا عنه غافلين ، فحينئذ اجتمع عشرة من بني هلال وضربوا الراي مع بعضهم انه في الغد اذا نزل ابو زيد للعلام ، فليجتمعوا العشرة وليضربوا العلام بعشرة رماح سوى حتى لا يقع اللوم من ابي زيد على احد منهم ، لانه متعاقد هو والعلام ، ففي ثاني الايام برز العلام الى الميدان ، فبرز اليه الامير ابو زيد ، فلما راوا من ابي زيد هذه الاحوال ، هجموا على العلام وضربوه بالعشرة رماح فوقع على الارض ، فحزن الامير ابو زيد عليه وتقدم اليه وقبله بين عينيه وكان قد اقبل الظلام ، فدقت طبول الانفصال ورجع الامير ناصر وقومه في حزن عظيم على فقد العلام ، واما ابو زيد فحمل العلام الى الخيام ، فحينئذ افاق من غشوته ، وتنفس الصعداء وسلم الروح ، فحزن ابو زيد عليه ثم دفنوه باحتفال عظيم اكراما لابي زيد ، فلما سمع قوم ناصر بموت العلام ولوا الادبار وركنوا الى الهزيمة والفرار ، فتبعهم بنو هلال مدة عشرة ايام حتى شتتوهم في البراري والقفار ، وبعد ذلك اجتمع ابو زيد مع دياب وبقية الامراء ، فعملوا مشورة فقال ابو زيد لدياب اننا صرنا في نصف بلاد الغرب ، وقد بعدنا عن حريمنا واوطاننا وحولنا جزائر بلاد الغرب وقد كثرت اعداؤنا وما لنا معين على المغاربة ، ونخاف ان يعملوا علينا حيلة ويهلكونا لاننا وحدنا بهذه الديار وامامنا اربعة عشر قلعة محصنة ، فماذا يكون عندك من التدبير ؟ فقال الراي عندي ان نخبر الامير حسن بهذا الشأن ، ونوصيه في المال والعيال ، فقال ابو زيد لا بأس بذلك ايها الامير ، فحينئذ ارسل ابو زيد كتابا يعلم الامير حسن بقتل ولده صبرا ورفاقه وقتل الجابلي ، وان العلام خان العهد والميثاق فقتلناه وعن الحروب التي حصلت لهم وسلم الكتاب للنجاب ، فاخذه وسار حتى وصل الى حسن وسلمه الكتاب فقراه وعرف معناه ، وقال انا لله وانا اليه راجعون ، واحضر قلما وقرطاسا وجعل يقول :

يقول حسن الهلالي ابـو علـي | والنار فـي قلبي تهب وتشتعل
حركت عندي يـا هلالي ساكنا | واصبحت من هذا الكلام في وجل
فان احتجت لديـاب بالعجـل | تلقيه يجيك مثل قطعة من جبـل
وان احتاج اليك انت فروح لـه | في عسكر من فوق خيل بالعجـل
وأنتم سيروا يـا سلامـة فاني | داع لكـم طول الزمان ولـم ازل
ان شاء الـه العرش ان ينصركم | ينجيكم باللطـف وبلوغ الامـل
يا هل ترى عاد الزمـان يلمنـا | ونعـود لمة وشمـل مشتمـل

فلما فرغ الامير حسن من تحرير الكتاب أرسله الى ابي زيد ، فحين وصوله قراه ابو زيد على الامراء والفرسان ، ثم قال لدياب انت تتوجه نحو كويج وتلك القلاع ، وانا اتوجه نحو قابس وتلك القلاع ، بشرط ان يكون علمكم معي وعلمي معكم ، فان ملكت انا قابس لا أزحل حتى أعلمك ويكون الاتفاق على هذه الحالة حتى نملك الاربعة عشر قلعة ، فحينئذ أمر ابو زيد بدق الطبول ونفخ الزمور ، فركبت الفرسان الخيول وتقلدت بالرمـاح والنصول فركب ابو زيد بتسعين الف من بني الزحلان ، وتوجه الى قابس، وركب دياب في بني زغبة وساروا الى كويج ، فنصبوا الخيام ورفعوا الاعلام ، فكتب دياب الى وائل ملك كويج.

فلما فرغ دياب من تحرير الكتاب ، اعطاه للنجاب وطلب منـه رد الجواب ، فتوجه النجاب نحو الامير وائل ، فلما وصل اليه اعطاه الكتاب، فأخذه الامير وائل وقراه وعرف مضمونه ومعناه ، فاغتاظ الغيظ الشديد وكتب الى الامير دياب :

يقول الفتى وائـل بعين وجيعـة | ونيران قلبـي اشعلت بالضرائـم
أيا غاديا منـي على متن ضامـر | سلم على الزغبي دياب بن غانـم
وقل له وائل ارسل لـك كتابه | بشعر ارتجالي وقـول ملايـم
ارسلت تهددنـا بقتـل جموعنا | والهلس بين الناس مثـل العلاقـم
نحنا امارة عندنا خيـل مثمنـة | ودروع ثقيلـة وسيوف صوارم
ونحمل على الفرسان فيحومة الوغى | نخلي دما الاعداء كما بحر عايـم
فكم امير قد جاء يريد حروبنـا | فيغدي قتيـلا ويروح عـادم
انا طالب منـك ثـأر خليفـة | لانـه ابن عمي وأخذ الثار لازم
غدا نلتقيكم فـي حومة الوغـى | ونخلي الحرب ليـل ونهار قايـم
فـان قتلناكـم نلنـا مرادنا | واخذنا ثـار خليفة والنصر قايم
وان كان كسرتونا فالسعد اتاكـم | والامر للـه مالك كـل العوالـم

فلما فرغ الامير وائل من نظامه ، طوى الكتاب واعطاه الى عبده ، فسار لعند دياب واعطاه الكتاب ، ففتحه وقراه ثم قال للعبد اخبر سيدك

انه ليس عندنا جواب غير الحرب ، فتوجه العبد واخبر سيده بما اجاب الامير دياب ، فلما سمع وائل ذلك الكلام امر بدق طبله وتحصين بلـــده بالمدافع والابطال ، ولبس درعه المانع وتقلد بسيفه القاطع ، وعلا ظهــر الحصان كأنه فرخ جان ، وركبت الفرسان ظهور الخيل وتقلدت بالرماح وتأهبت للحرب والقتال ، وانحدر الامير وائل الى الميدان وطلب مبـارزة الفرسان ، فبرز اليه دياب فأشار الامير وائل يقول :

يقول الفتى وائـل على ما جرى له	ونيران قلبي اشعلت فـي لهيبها
أنا فارس الفرسان فيحومة الوغى	بيدي اسقي القوم كاس عطيبها
انتـم تعديتم وجيتـم بلادنـا	لارض كوبـج قصدكم تملكونهـا
حولي فوارس يصدع الصخر عزمهم	تقول سبـاع واثبـة عانصيبهـا
فارجع يـا دياب والا قتلتكـم	طعنات وائل مثـل نار في لهيبها

فلما فرغ من كلامه اشار دياب يهدده فانطبق عليه وائل كأنه فرخ جان والضرب والقتال يشيب رؤوس الاطفال الى ان انتصف النهار ، انطبقت الجيوش على بعضها البعض وانتشب القتال والطعان ، وجرى الدم وسال وصارت القتلى كالتلال ، فكانت وقعة مهولة انتصر فيها قوم وائل ، فانهم هجموا على قوم دياب وابلوهم بأعظم مصاب وشتتوهم في تلك الاوعار ، ولما ولى النهار ارتدت الفرسان عن بعضها ونزلت قوم دياب المنهزمين في جهة من الارض ، وصاروا يجتمعون ، وقام دياب وجمع اكابر قومه ومن يعتمد عليهم وصار يحمسهم .

فلما فرغ دياب من كلامه هاجت براس الابطال نخوة الرجال وفي ثاني الايام برزوا الى الميدان وهجموا على بعضهم ، فكثرت الضجات وعلت الصيحات فما عدت تنظر الا رؤوسا طائرة ودماء فائرة والفرسان غائـرة ودارت على قوم وائل الدائرة ، فقتل منهم عشرة آلاف ثم ولوا هاربين والى النجاة طالبين ، فتبعهم قوم دياب وشتتوهم في البراري والهضـاب وادخلوهم البلد وتقدم الوزير دهقان وقال له غدا انزل الى الميدان واكفيك شر هؤلاء العربان ، واما قوم دياب فسألوه عن خصمه فقال لهم انه فارس شديد وقرم عنيد ولكن غدا انزل اليه وآخذ روحه من بين جنبيه . وفي الصباح تقلدت الجيوش بالرماح ونزلوا الى الميدان فانحدر الوزير دهقان وطلب مبارزة الفرسان فنزل اليه امير من أمراء بني هلال اسمه المهاب فقال له دهقان من انت ؟ فقال انا المهاب وصنعتي حداف الرقاب ، فحينئـذ انطبقا على بعضهما كالاسود وتجاولا حتى كلت منهم الزنود وحصل منهما ضربتان ماضيتان كان السابق دهقان فضرب المهاب على راسه شقه الى تكة

لباسه فنزل اليه فارس فقتله والثاني جندله والثالث محقه وما زال يجندل فارسا بعد فارس حتى جندل خمسين فارسا واخيرا نزل اليه دياب فتجاولا ساعة من الزمان فلاصقه دياب وضايقه وضربه بالسيف على هامه رمى راسه قدامه ، وحينئذ دقت طبول الانفصال ورجع وائل حزينا .

فوقع الوهم في قوم وائل من دياب الذي لما رجع الى الخيام سالوه عن خصمه ، فقال لهم بطل شديد وقرم عنيد ، وفي الصباح دقت الطبول ونفخت الزمور وركبت الفرسان ، وانحدروا الى ساحة الميدان ، فالتقى دياب بوائل وانطبقا على بعضهما كأنهما جبلان ، وتكسرت بأيديهما الرماح وتضاربا بالسيوف الصفاح ولعبا العابا حيرت الفرسان ، وبعد ذلك ضرب وائل دياب بالرمح ، فغطس تحت بطن الشهبا ، فراحت الضربة خايبة فتعدل دياب وضرب وائل بالسيف على هامه حط راسه قدامه ، فوقع وائل قتيلا وفي دمه جديلا ، فلما رات قوم وائل ان ملكهم قتيل ولوا الادبار وركنوا الى الهزيمة والفرار ، فتبعهم دياب بقومه الى ان دخل البلاد وجلس على كرسي المملكة ، ثم كتب الى السلطان حسن يخبره بما يجري وصار ، فلما وصل الخبر اليه ، قرأ الكتاب على رؤوس الامراء والسادات ، ففرحوا فرحا شديدا وعملوا عراضة عظيمة لها قدر وقيمة ، اكراما لدياب الذي جدد الهمة وتوجه من كويج الى ناحية برج الدمع ، فأمر العسكر بالنزول ونصب الخيام ورفع السناجق والاعلام ، واشار يهدد الامير بكار ملك برج الدمع بكتاب خطه وطواه ، وارسله مع النجاب الى الامير بكار سلطان برج الدمع ، وكان جالسا في الديوان ، واذا بجملة فرسان من كويج دخلوا عليه وقبلوا يديه فسلم عليهم واكرمهم وسألهم عن قدومهم فأجابه احدهم يقول:

يقول الفتى قائد على ما جرى له	ونيران الحشا زادت شعالي
على ما صاب قلبي من هموم	وامور ما رايت لها مثالي
اتانا قوم ما يحصى عددهم	يهزوا في الرماح وفي العوالي
ركبنا والتقيناهم جميعا	بطعن يورث الاعدا خبالي
كبير القوم يسمى ابن غانم	امير دياب شيال الحمال
ضرب وائل والقاه قتيلا	وقد اردى الوزير على الرمال
فولينا هزامى من لقاهنم	ولا طفنا لهم ابدا قتال

فلما فرغ قائد من نظامه ، حزن الامير بكار على وائل ابن عمه واستعان بالله على قتل دياب ، وبينما هم كذلك اقبل نجاب على بكار وسلمه الكتاب، ففضه وقرأه وفهم ما حواه أمر العساكر ان يكونوا تحت الطلب ، وعند الصباح أمر بدق الطبول للحرب والقتال ، فحضرت الفرسان وركبوا ظهور

الخيول وسار بهم الى عساكر دياب ، فلما وقعت العين على العين نزل الملك بكار فصال وجال ونادى بأعلى صوته :

هل من مبارز ؟ هل من مناجز ؟ لا يبرز لي كسلان ولا عاجز ، فما اتم كلامه حتى راى دياب قدامه ، فأشار الملك بكار يهدد دياب .

قصة السبع تخوت

فلما فرغ من كلامه هجم دياب على الملك بكار واصطدما صدام الابطال، فانجرح دياب ووقع على الارض ، فأراد ان يكمل عليه ، فحصله الامير محمود بن دياب واسرع الرجال وحملوه من الميدان الى المضارب والخيام ، وبقي محمود يقاتل الى قرب الزوال ، فرجع الى ابيه فرآه قد احضر الحكيم الهندي ، فوضع المرهم وقطب الجرح وقال لقد زال الخطر ، وفي الصباح نزل محمود للميدان فنزل اليه بكار وما زال هو واياه في حرب وصدام مدة سبعة ايام ، وفي اليوم الثامن نزل الميدان فتطاعنا بالرماح وتضاربا بالسيوف الصفاح ، حتى زهقت الارواح ، وما زالا في اخذ ورد وقرب وبعد ، فتطاولت لهما الاعناق وشخصت لهما الاحداق ، الى ان بدرت من الاثنين ضربتان قاطعتان ، فكان السابق بكار ففطس الامير محمود تحت بطن الجواد ، فراحت الضربة خائبة بعد ان كانت صائبة ، فاعتدل الامير محمود على الجواد وضرب الامير بكار بالسيف على رأسه ، فشقه نصفين ، فصاح دياب عليهم : ايها الابطال ! وهجم مع بني زغبة على الاعداء وابلوهم بالذل والويل ، ودخلوا البلد وجلس دياب على الكرسي واستلم الاموال ، ثم امر العساكر بدق الطبول وركب الخيول ، فركبت الفرسان وسار قاصدا برنيجة وتلك الاقطار ، فلما وصل برنيجة نصب الخيام ثم كتب يطلب عشر المال من الملك زايد .

فلما فرغ دياب من الكتاب ، ارسله مع نجابة الى ملك برنيجة الذي راى مناما مزعجا ، فنهض مرعوبا وامر باحضار الرمال مسرور ، فلما حضر قال له انني رأيت مناما مهولا ، واشار يقول :

يقول الملك زايد بقــول صادق	كلامــا يؤرخ في الكتب بسطور
رأيت مناما ابدل اللــذة والهنا	بغــم وحــزن دائما وكـــدور
حلمت اني في واسع البر والفلا	ملقى طريحا ودمائـــي تفـــور

وفوقي ديـاب مثل سبـع كاسر ... وبقيت معه فـي الخلا ماسـور
ضربني ضربــة جاءت علي كأنها ... مدفع خرج من وسط برج وسور
فرحت مرمي على الارض منطـرح ... واضحى دمي على التراب بحـور
فاضرب يـا رمال رملك بالعجل ... وخبر كلام الصدق يـا مسرور

فلما فرغ الملك زايد من كلامه والرمال مسرور يسمع نظامه ، ففتح كتب الرمل وقال اعطني الامان يا ملك ، قال عليك الامان ، فأشار الرمال يقـول :

يقول الفتى الرمال فيما قد جرى ... وعبرات عيني على الخدود حذور
تقول انك كنت في البر والخـلا ... وسبع كاسر قـد اتـاك يـزور
فارس عرمرم يقرع الخيل بالقنـا ... يخلي الدما تجـري شبيه نهور
يسمى ابو موسى دياب بن غانـم ... فارس صميدع في اللقا مشهـور
يجينا بقومه وينزلـوا بأرضنـا ... ونبقى معاهم فـي بلا وشرور
تتكأون انت وياه في حومة الوغـا ... وتمشي معـه يا ملك مأسـور
ويظفر علينا يا ملـك برجالـه ... ويدعي الفوارس في عميق قبـور
ويملك قلعتنا ويأخـذ أموالنـا ... ويسبي حلايلنـا وكـل قصور
فهذا منامك يا امـير مؤكـد ... من يستطيع ان يدفـع المقدور ؟

فلما فرغ الرمال من كلامه ، توجه الملك الى الديوان وأخبرهم بالمنام، وقال لهم كيف العمل ؟ فقال الوزير ماجد ان هذا الفارس قتل الامير وائل ملك كويج وقتل الملك بكار حاكم برج الدمع وهو قاصد الينا فالاوفق ان تسلم له المال والخيل والجمال والا يبيد عساكرنا ويهلك ابطالنا ، لان معه تسعين الف فارس من بني زغبة ، فلما سمع الملك زايد هذا الكلام ، صاح به ويلك يا جبان ، تخوفني من حرب دياب وتظن ان رجالنا وفرساننا جبناء، فوحق ذمة العرب وشهر رجب ! ما اترك احدا ينزل الى حربهم وقتالهم، بل انا انزل اليهم ، ثم ضرب الامير ماجد على هامه فقتله ، فشالوه ودفنوه، وفيما هم في ذلك الحديث واذا بنجاب الامير دياب دخل الى الديـوان ووقف بين يدي الملك وناوله الكتاب ، فلما فضه وقراه اغتاظ الغيـظ الشديد وقال للرسول قل لدياب ما عندي جواب سوى الحرب ، فذهب الرسول واخبر مولاه دياب ، فاغتاظ الغيظ الشديد وامر بدق الطبول ، فاستعدوا للقتال وساروا قاصدين الميدان ، واما الملك زايد فتجهز الى الحرب والطعان وسار الى خارج البلد ، واذا بفرسان الامير دياب تظهـر كأنها اسد الغاب ؛ فلما التقت العين بالعين نزل الامير زايد الى الميدان ، فصال وجال وطلب مبارزة الفرسان ، فانحدر اليه الامير دياب فأشار الملك زايد يهدده . فقال له الامير دياب : يا زايد خصمك لا يروعه كلام ولا يهزم

من صدام .

بعد ذلك التقى البطلان كانهما جبلان ، وحان عليهما الحين وغنى على راسيهما غراب البين ، فكانا تارة يتباعدان وتارة يتقاربان الى وقت الظلام، دقت طبول الانفصال ، وفي الصباح ، نزل الامير دياب الى الميدان ، فبرز اليه الامير زايد فانصب عليه دياب وقال خذها من يد دياب حداف الرقاب، واطلق الضرب على راسه ، اخمد انفاسه ، فوقع على الارض قتيلا ، ثم صاح دياب بقومه ، اهجموا على الاعداء ! فهجموا عليهم وارتمى الامير دياب كانه صاعقة نزلت من السماء على الجيش ، فمزقه وقلب الميامن على المياسر والمياسر على الميامن ، وظهرت افعال الامير ضرغام والامير محمود ونكسوا الرايات والبنود وقتلوا الفرسان والجنود وفتكت بنو زغبي فتك الاسود والتقى الامير دياب بوزير الملك وكان اسمه نافع ، فتجاولا في ساحة الميدان وتطاعنا بالسنان الا ان الامير دياب ضايقه ولاصقه وسد عليه طرقه ومد يده فاقتلعه من سرجه كأنه العصفور في يد الباشق وضربه بالارض ادخل طوله بالعرض ، فلما نظرت قوم الملك زايد هذه الاحوال ولوا الادبار، فتبعهم قوم الامير دياب وفتكوا بهم فتك الذئب بالاغنام ، ودخل الامير دياب الى البلد واستلم الاموال والذخائر وجلس على كرسي المملكة واشار يخبر الامير حسن ويقول :

يقول الفتى الزغبي دياب بن غانم ... وروحي كما البولاد طاير شرارها
ألا ايها الغادي بلغ رسالتي ... لحسن الهلالي عز قوم هلالها
اخبرك يا بو علي فيما جرى ... بأرض المغارب من عظيم هوالها
اتينا برنيجة ونبغي اخذها ... تاري بها زايد كشعلة نارها
اتانا الى الميدان يا امير ابو علي ... كما برج مبني فوق عالي سوارها
تلاقيت انا وياه في حومة الوغى ... عشرين يوم اتعبوني مجالها
ضربني بيده يا امير بالعمد ... لو جاء على قلعة لهد حجارها
ضيعتها وخليت عنها بهمتي ... فراح عمده من يمينه وطارها
اخذت انا للعمد حالا وجئته ... وسديت عليه يمينها وشمالها
ضربته على راسه فراح مجندلا ... ودعيته ملقى بأوشم حالها
ملكنا اموالهم وحصونهم ... واخذنا قلعتها وكل عمارها

فلما فرغ دياب من كلامه ، طوى الكتاب واعطاه الى النجاب ، اخذه وراح الى الاوطان ، فدخل على السلطان حسن وسلمه اياه ، ففضه وقراه على الامراء والسادات ، فشكروا فعل دياب ودعوا له بالنصر ، واما الامير حسن فاستدعى الامير رضوان وقلده وظيفة قائمقام على قلعة برنيجة ، فأخذ الامير رضوان مائة امير من عشيرته وودع الامير حسن ، فأعطاه كتابا

الى دياب .

فأخذ الامير رضوان وتوجه الى برنيجة ، فدخل على الامير دياب فاستقبله واكرمه غاية الاكرام واجلسه على كرسي المملكة وأمر المنادي ان ينادي بالبلاد باسم الامير رضوان ويكون حاكما عليها ، ثم سلمه الاموال وامر بدق طبل الرحيل ، ثم توجه الى القلعة فضرب الخيام واشار يكتب الى الملك محمود يطلب منه عشر المال .

وطوى الكتاب واعطاه للنجاب ، فأخذه وسار حتى وصل لعند الملك محمود وسلمه الكتاب ، فأخذه وقراه فقلبت الدنيا في عينيه كالظلام والتفت الى الرسول وقال له اذهب الى مولاك وقل له ما له جواب الا السيف القرضاب ورمي الرقاب ، فرجع الرسول لعند الامير دياب وأخبره بما قاله محمود ، ولما اصبح الصباح ضربت طبول الحرب والكفاح من الفريقين ، ولما وقعت العين بالعين حملت على بعضهما الطائفتان ، فقام الحرب على ساق وقدم وجرى للقوم وقعة عظيمة تشيب الاطفال وتقصر الاعمار ، وكان قد هلك من الفريقين عساكر ما لها عدد ، حتى دارت على قوم محمود الدائرة ، فدخلوا البلد وسكروا الابواب والامير دياب ويومه حاصروهم من خارج السور ، فجمع الملك محمود اكابر الديوان وقال لهم مرادي اطلب منهم الامان ، فقالوا نحن طائعون لاوامرك ، فجعل يكتب الى الامير دياب ويطلب منه الصلح :

يقول محمود من قلب وجيع	لهبات قلبي زايدات نيران
أسمع كلامي يا ابن غانم يا دياب	يا عز قيس وجملة العربان
اني اتيت طائعا يا سيدي	فاقبل خضوعي واعطني الامان
ونبقى عندك يا امير على المدى	ونعيش بظلك بكل أمان
فاعفو عنا يا دياب وسامح	فاني اتيتك طائعا رضيان

فلما فرغ محمود من الكتاب ارسله للامير دياب ، فلما قراه امر بالامان ودخل البلد واجتمعت اليه الاكابر ، واستلم من محمود الخزائن والقصور وولاه على الملك ، على شرط ان يدفع له الجزية في كل عام ، ثم سار قاصدا قلعة طنجة الى ان اقترب منها فأمر بنصب الخيام ، ثم ارسل من يكشف له خبر اهالي طنجة وقعد ينتظر الى ان رجع الرسول ، فقال له ان ملك طنجة يقال له نابل وهو فارس شجاع ، واما أسوار المدينة فهي عالية وعساكره لا تعد ولا تحصى ، وقد علم بخبر وصولنا من الرعيان فجهز عساكره للقتال ، فلما سمع دياب هذا الكلام دق الطبول وركبت الفرسان الى ساحة الميدان ونظر الملك نابل قوم الامير دياب ، فأمر بدق طبوله ،

فنزل الامير ضرغام ابن الامير زيدان وطلب مبارزة الفرسان ، فما أتم كلامه حتى صار الملك نايل امامه وقال له من انت ؟ فقال له انا الامير ضرغام . ومن انت ؟ قال انا حاكم مدينة طنجة الملك نايل ، ثم التقى البطلان كأنهما اسدان وقام الحرب وزاد الضرب ورجع نايل على خصمه ، فلاصقه وضايقه ثم اقتلعه من بحر سرجه وحذفه الى الوراء ، فاخذه قوم نايل وقيدوه بالجنازير ، فبرز اليه الامير فواز فالتقاه نايل واخذا في ضرب الصفاح وطعن الرماح حتى زهقت الارواح ، فضربه بالرمح فقلبه وسلمه لقومه ، فبرز اليه اخر ارداه وثان اعدمه الحياة وثالث بدد امعاه ورابع غرقه بدماه ، وما زال يقتل حتى قتل عشرين فارسا واسر ثلاثين ودقت طبول الانفصال فبات الامير دياب وهو غائب عن الصواب من عظم ما جرى على فرسانه ، فلما اصبح الصباح ضربوا طبول الحرب والكفاح ، فبرز نايل الى ساحة الميدان ونادى هل من مبارز ؟ هل من مناجز ؟ فما اتم كلامه حتى صار الامير دياب قدامه وقال ابشر بالهلاك فقد اتاك الامير دياب ، وانطبقا على بعضهما انطباق الغمام فراح بينهما ضربتان قاطعتان وكان السابق الامير دياب ، فوقعت الضربة في صدر الامير نايل ، ارمته قتيلا وفي دمه جديلا ، فولى قومه هاربين والى النجاة طالبين ، فدخل الامير دياب البلد وخلص الاسرى وجلس على تخت طنجة واستلم الاموال والذخائر واستولى على الملك ثم استدعى الامير عقل واجلسه نائبا على البلد ، وخرج قاصدا مدينة طنجة ، فوصل الى سهل واسع الجنبات فيه العيون جاريات، فسرحوا الاغنام واقاموا يستريحون من عناء الحروب ، فسمع بهم الملك مزيد ، فلم يمهلهم لاخذ الراحة ، فأمر بدق الطبول فتحضرت العساكر عنده والفرسان وبرزت الطائفتان للحرب والكفاح ، واصطفت الصفوف واذا الملك مزيد برز الى ساحة الميدان وطلب مبارزة الفرسان ، فبرز اليه دياب وهو راكب على الشهبا وقال له من تكون ايها الفارس ؟ فأجابه انا الملك مزيد فارس عشيرته وحامي قبيلته ، وانت من تكون من الفرسان ؟ فقال له انا الامير دياب بن غانم فارس الاعازب والاعاجم ، عند ذلك حمل البطلان كأنهما جبلان وغنى عليهما غراب البين مدة سبعة ايام وفي اليوم الثامن ، زاد دياب على خصمه الدرهم قنطار وجذب الحسام وضربه على راسه فهوى السيف الى بطن الجواد فألقاه على الارض اربعة اقسام وحمل على العساكر مع بني زغبة ورياح ، وفتكوا بهم فتك الذئاب بالغنم ، ودخلوا البلد وجلس دياب على الكرسي وضبط الاموال وجمع الغلال ووضع عليها امير يسمى الامير خليل ، وقال له انت تكون نائبا على مدينة طنجة وتقوم

مقامنا بالاحكام وترسل لنا الجزية في كل عام ، وحينئذ امر دياب بدق طبول الرحيل وجد المسير الى القلعة الحائجة ، وكان الملك عليها اسمه سليمان ، فعندما علم بقدوم دياب امر حالا بتجهيز العساكر للحرب ، فبينما هم في الانتظار واذا بجيش الامير دياب يتقدم الى الامام ، فهجمت الفرسان على الفرسان واصطدم الفريقان وتضاربا بالسيوف وتطاعنا بالسنان لمدة عشرة ايام ، وفي اليوم الحادي عشر ، برز الامير دياب الى الميدان ، فبرز اليه الملك سليمان ، فطلع من الاثنين ضربتان قاطعتان ، وكان السابق الامير دياب طعن الملك سليمان بالرمح في صدره ، فطلع يلمع من ظهره فوقع على الارض قتيلا ، فلما نظرت عساكر الملك سليمان الى ملكها ولت الادبار، فتبعها ابطال بني زغبة يضربون اقفيتهم حتى شتتوهم ، وجلس الامير دياب على كرسي المملكة واستلم زمامها وأموالها ، فعند ذلك ولى عبد الجليل الرياحي نائبا وأوصاه بأحكام البلاد وراحة العباد ، وبعد ذلك حضرت عند الامير دياب جميع بني زغبة وذبحوا الذبائح وعملوا الولائم والافراح واستراحوا من الحرب والكفاح ، وقد انقادت لطاعته العباد وسكان تلك البلاد ، فهذا ما كان من امر الامير دياب في تلك السبعة القلاع وبلاد الغرب قسمته .

حرب الأمير أبي زيد

واسمع ما جرى للامير ابي زيد بعدما غادر الامير دياب حيثما توجه كل واحد لاجل ان يملك قسمته ، فسار ابو زيد قاصداً بلاد قابس حتى وصل اليها ونصب خيامه وأحاط البلد من جميع الجهات ، فلما اصبح الصباح قامت اهالي البلد ونظرت عساكر بني زحلان كأنها مردة الجان ، فأخبروا الملك فياض وكان شديد البأس قوي المراس ، فصاح على الفرسان وأمرهم بالخروج الى الحرب والقتال ، فركبوا الخيل وركب الملك فياض بمقدمتهم وخرجوا خارج البلد وصاحوا على الدشمان ونزلوا عليهم بطعن كما لسع الثعبان ، فالتقاهم ابو زيد بالعساكر وصاروا يمددون الفرسان بالعرض والطول ، وبينما هم في حروب متينة التقى الامير ابو زيد بالامير فياض ، ووقع بينهما القتال واخذا في الحرب والطعان ولله درهما من بطلين

ضرغامين واسدين كاسرين ! فشخصت لهما الاحداق وتطاولت اليهما الاعناق ، وتعلمت منهما الفرسان ابواب الحرب والطعان ، فضرب الامير فياض الامير ابا زيد ، فخلى عنها فراحت الضربة خائبة بعدما كانت صائبة، واعتدل الامير ابو زيد على ظهر الحصان كأنه فرخ جان ، وضرب الامير فياض بالسيف على هامه حط راسه قدامه وهجم هو وقومه على الدشمان وارتمى عليهم كأنه صاعقة نزلت من السماء ، فولت عسكر الملك فياض الادبار وركنت الى الهزيمة والفرار ، فتبعهم قوم الامير ابو زيد حتى دخلوا البلد ، وملك الامير ابو زيد القلعة واستلم ذخائرها واموالها وطاعت لهم جميع سكانها وجلس على كرسي السلطنة واحضر اميرا من بني زحلان اسمه الامير حمزة ، وولاه على تخت قابس ، ثم ودعه وسار قاصدا قلعة سوت، وكان الحاكم عليها ملك عظيم الشأن ذو جند واعوان يقال له البهلوان ، وكانت قد وصلت له الاخبار بما جرى للملك فياض من الاهوال ، فجمع العساكر والابطال ونصب خيامه خارج البلد ، واذا بالخيل اقبلت فاستقبلهم البهلوان بالعساكر والجنود ، فالابطال حملت والرجال زحفت والرماح للصدور خرقت والسيوف للرماح قطعت والدماء دفقت وضربات ابي زيد للفرسان محقت ، حتى أهلك الابطال بطعناته وأفناهم بضرباته وشتتهم بحملاته ، فبينما هو يصول ويجول ، اذ التقى بالبهلوان وتجاولا في ساحة الميدان وصاح ابو زيد على خصمه وضربه بحسامه ، فبدد امعاءه واعدمه الحياة ، فلما نظرت عساكر البهلوان ملكها تمدد على الرمال ، ولوا الادبار وركنوا الى الهزيمة والفرار ، فتبعهم ابو زيد ودخل البلد وملك أبراجها واسوارها وولى عليها امير يقال له الامير همزان ، واجلسه على كرسي المملكة . أما المنهزمون من قوم الامير البهلوان ، فانهم ما زالوا سائرين حتى وصلوا مغوارة ، فدخلوا على ملكها واخبروه بما جرى لهم من الامير ابي زيد وكيف قتل ملكهم واحتل قلعتهم ، واخبروه ان هؤلاء العربان هم الذين قتلوا الزناتي وملكوا البلاد وسبوا العباد ، فلما سمع الملك منهم هذا الكلام، قال لهم الرأي عندي ان نترك لهم البلد ونذهب الى مدينة القيروان لعند الملك زهير ، لان اراضينا لا تحميها العساكر ، فذهبوا وتركوا البلد وقصدوا مدينة القيروان ، فلما وصلوا اليها دخلوا على ملكها الامير زهير واخبروه بواقعة الحال ، فقال لهم ان هذه الارض لا تكفينا ، فالاوفق ان نذهب الى الاندلس لانها واسعة حصينة وبها قلعة متينة ، فاستصوبوا رايه وسارت الرجال والاحمال الى الاندلس لعند الامير حماد ، واخبروه بواقعة الحال وما جرى لهم ، فاستقبلهم بالاكرام وانزلهم بأحسن مقام وأمر بتحصين

البلد ، وجلسوا بانتظار الامير ابي زيد ، هذا ما كان من امرهم واما ما كان من امر ابي زيد فانه سار الى قلعة مغوارة ، فخرج اهالي البلد رابطين محارم الامان في رقابهم ، فسألهم ابو زيد عن ملكهم ، فقالوا له لما سمع بقدومك خرج هو والعساكر من البلد ، وهربوا الى مدينة قيروان لعند الملك زهير ، وحينئذ اعطاهم الامان ودخل البلد وضبط الاموال وولى الامير مروان على تخت القلعة ، ورحل طالبا مدينة القيروان ، فلما وصل اليها استقبله الاهالي وفي رقابهم المحارم ، فسألهم عن ملكهم فقالوا ذهب الى الاندلس ، فحينئذ اعطاهم الامان وضبط أموال القلعة وولى عليها الامير مسعود ، واوصاه بالاحكام ورحل طالبا قلعة الاندلس ، فلما وصل اليها رأى العساكر كأنها قطع الغمام ، فأمر بنصب الخيام ، وكان قد اقبل الظلام فبات الفريقان يتحادثان تحت مشيئة الرحمن ، الى ان اصبح الصباح وضربوا طبول الحرب والكفاح واعتقلوا بالسيوف والرماح ، فبرز الامير حماد الى ساحة الميدان ولعب بالسيف والسنان حتى حير عقول الفرسان ، ثم طلب مبارزة الابطال فبرز اليه الامير ابو زيد .

وصاح على خصمه وضربه بالسيف على رأسه شقه لتكة لباسه ، فلما راى قوم الملك حماد ملكهم قتيلا ، ولوا هاربين ورجعوا الى البلد ، وهجم الامير ابو زيد وهجمت وراءه بنو زحلان الشجعان ، وتبعوا الدشمان حتى دخلوا البلد، فجردوا بهم السيف البتار حتى صار الدم في المدينة كالانهار، وبعد ذلك رجعت عنهم الفرسان وجلس ابو زيد على كرسي المملكة وحينئذ طلبت الاهالي الامان ، فأعطاهم الامان وطاب لهم مكان الاندلس والقيروان ، وحينئذ ولى الامير ابو زيد طوي بن مالك تلك القلعة ووصاه بالاحكام ، وساروا قاصدين مدينة مركاش ، فلما وصلوا اليها نصبوا الخيام ، فلما بلغ مالك قدوم العربان ، جمع اكابر دولته وسألهم عن سبب قدومهم ، فقال احدهم انهم من قوم بني هلال الذين قتلوا الزناتي خليفة والعلام ، وملكوا جميع البلاد وهم رفقاء الذين تملكوا السبعة قلاع ناحية الشرق ، وقد اتوا الينا ليملكوا ارضنا ، وبينما هم في الحديث واذا برسول وقف بين يدي الملك وقال له ان سيدي الامير ابو زيد يقرئك السلام ويقول لك ان تسلم البلد، والا يحل بك الدمار كما حل بغيرك من الملوك ، فلما سمع الملك هذا الكلام خاف وارتعب والتفت الى اكابر البلدان وقال لهم ما عندكم من الراي ؟ فقالوا الراي عندنا ان نصالحهم ونسلمهم البلد ، فقال لهم خذوا الرسول الى بيت الضيافة ، ثم جهزوا حالهم وخرجوا الى ملتقى الامير ابي زيد ، فلما رآهم بنو هلال مقبلين بدون سلاح ، عرفوا انهم سلموا البلد ، فلاقوهم

احسن ملاقاة واضافهم قوم مالك ، ثم قدموا له الدفاتر والاموال فاستلمها الامير ابو زيد واجلس الامير مالك على كرسيه ، بشرط ان يدفع الجزية في كل عام ، وبعد ذلك ودعوهم وساروا الى ان وصلوا الى مدينة حصينة فيها ابراج وانهار واطيار تسبح الملك الغفار واسمها قلعة زوارة ، وكـان يحكم عليها ملك عظيم الشأن ذو جند واعوان يدعى الامير كامل ، وكان قوم مالك المنهزمون قد اخبروه بما جرى عليهم من الحروب ، فبالحال امر بتجهيز العساكر والمهمات والذخائر الى الحرب والقتال ، واشار يتهدد بني هلال ويقول :

يقول الفتى كامل على ما جرى له ... نيران قلبه زايـدات الضرايـم
فيا ايها الغادي توصـل رسالتي ... الى حسن سلطان قيس الاكـارم
وقول له الملـك كامل يقول لك ... بأي سبب لارضنـا جيت قـادم
فان كنت تطلب السلامـة فارتجع ... وهد خيامك ثم ارتـد سالـم
مرادكـم قلعـة زوارة وملكها ... فيها قروم ليس يخشوا الصوارم
وان كان لا بد عـن القتال والقنا ... اجيك كما سبـع للصيد هاجم

فلما فرغ الامير كامل من نظامه ، ارسل الكتاب لعند الامير ابي زيـد فقراه وعرف ما حواه ، فأمر بدق طبول الحرب ، فلما سمع الامير كامل صوت الطبول أمر بدق طبوله ، وتحضرت الفرسان الى الميدان ، فلما التقت الطائفتان ووقعت العين على العين ، برز الامير كامل الى الميدان وكأنـه الاسد الغضبان ، فبرز اليه ابو زيد فتقاتلا بالميدان وتفتنا في ابواب الحرب والطعان ، وما زالا في حرب شديد يفك الزرد النضيد مدة عشرة ايام : ثم برز ابو زيد الى الميدان فصال وجال وطلب مبارزة الابطال ، فبرز اليه الامير كامل فالتقى البطلان كأنهما قلعتان حصينتان وابتدرا بضرب السيوف وطعن الرماح ، حتى تمكن منه ابو زيد وضربه بالسيف على هامه ، حط راسه قدامه ، وحينئذ هجمت من ورائه الفرسان وغاروا على الاعداء بطعن يشيب الاطفال ، وضرب يكسر الصوان الى ان ادخلوهم البلد وجلس ابو زيد على كرسي المملكة واحضر الامير هادي ووضعه حاكما على قلعة زوارة، وبعد ذلك جهز ابو زيد الاموال وحملها على الجمال وأمر بدق طبل الرحيل وسارت الجيوش والمواكب والفرسان والكتائب ومعهم الاغنام والمكاسب حتى وصلوا الى عين تورز وهي بنصف الطريق ، فجلس ابو زيد لاجل الراحة وامر بذبح الاغنام وشرب المدام ، وبينما هم على هذا الحال اذ طلعت عساكر الامير دياب من ناحية الغرب الجنوبي ، فلما التقى ابو زيد والامير دياب هنأوا بعضهم بالسلامة وحكوا عما قاسوه من الحروب والاهوال وجلسوا

ثلاثة ايام ثم جدوا بالمسير حتى وصلوا الى تونس ، فلما علم الامير حسن بقدومهم خرج لاستقبالهم بالنساء والرجال ، وعند ملتقاهم هنأهم بالسلامة ودخلوا بموكب عظيم ودارت البشائر في نجوع بني هلال ، وفرحت في قدومهم النساء والرجال ، وبعدما استراحوا سألهم الامير حسن عن الاحوال التي جرت لهم ، فأخبروه عما حصل معهم وبما قاموا به من الحـــروب والاهوال في تملك السبعة تخوت ، وحينئذ امر حسن بعمل وليمة كبيرة وبذبح الاغنام وترويق المدام ودعا اليها الخاص والعام ، ثم قسموا بـلاد الغرب بينهم بالسوية بين ابي زيد وحسن ودياب ، لكل واحد الثلث ، فكان لدياب السبع قلاع في بلاد الغرب وكانت تونس له من غير حساب ، لانها عوض عن الخضرا ، ثم رحل الامير حسن الى القيروان وجعلها عاصمته، وابو زيد جعل الاندلس له عاصمة ، حينئذ جلس كل واحد بمملكتـــه بكل أمان .

مقتل سعدى وقصة اليتامى

(قال الراوي) لنرجع الان الى سعدى بنت الزناتي ، فانها كانت باقية بقصر ابيها عند حريم دياب تقاسي انواع الذل والعذاب ، فلما رات ان حسن نسيها وكذلك ابو زيد ، فرات ان تكتب للامير حسن وتطلب خلاصها من دياب وانها مظلومة عنده للغاية ، فكتبت كتابا وسلمته لنجاب ، فلما وصل الى حسن اعطاه الكتاب ففضه وقراه ، فتغيرت منـــه الاحوال ، وحينئذ أرسل عبده جوهر الى ابي زيد وأخبره بالقضية ، فحضر ابو زيد ومعه خمسة آلاف فارس من بني زحلان ، فاستقبله حسن وسلم عليه وبعدما ارتاح قال لحسن : ما الخبر ايها الامير ؟ فأعطاه كتاب سعدى ، فلما قراه امر باحضار النجاب ، فلما حضر قال له اخبر الست سعدى اننا بعد ثلاثة ايام نكون عندها ، فسار العبد واخبرها بأنهما سيأتيان ليأخذاها، ففرحت وصارت تنتظر قدومهما ، وأما حسن وابو زيد فقد ركبا فـــي ثاني الايام وسارا حتى دخلا الى تونس الغرب ، فلما رآهما دياب نـــزل واستقبلهما بالترحيب والاكرام وأدخلهما القصر وذبح لهما الذبائح ، فأقاما بضيافته ثلاثة ايام وفي اليوم الرابع قال لهما دياب لقد شرفتمونا بهذه الزيارة ، وكان الواجب ان أرحل انا اليكم اولا ، فقال حسن نحن اتينا لامر

مهم ، فلما فرغ حسن من كلامه ، اغتاظ دياب الغيظ الشديد ولكنه اخفى الكمد وقال سعدى باقية كما هي ، واما قولك اني طلبت ان اتزوجها فهذا كذب ، فقال حسن هذا كتاب سعدى اقرا ، فقراه دياب فاغتاظ اكثر من الاول ، وقال المراة التي تخون اباها لا يكون فيها خير لاحد ، فقال هي خطيبة مرعي فاطلب ان تسلمني اياها والا يقع بيننا اسباب ما هي في حساب .

ورد عليه دياب ، فلما انتهى من كلامه ، هجم عليه حسن وقال والله لو لم نكن ضيوفك لضربتك بهذا الحسام ، ثم ارادا ان يهجما على بعضهما ، فمنعهما ابو زيد وقال ما هذه الفعال تتقاتلان لاجل بنت ؟ اسمعا عندي راي حسن ، فقالا ما هو ؟ فقال نحن نضع سعدى في مكان بعيد في اخر الميدان ونكون راكبين على خيولنا بأول الميدان ونطلق الاعنة ، فالذي يصل الى سعدى قبل الاخر تكون ملكة ويأخذها ، وقصد ابو زيد ان يأخذها عنده وقال في نفسه اما خضرة دياب ماتت وبنتها صغيرة ما هي مثل خيلنا، وان اخذتها اعطيتها لحسن ، وينحسم الشر لاننا ضيوف عند دياب ، ولا يليق ان نأخذها بغير رضاه ، فقال حسن رضيت ودياب رضي ايضا ، وفي اليوم الثاني احضروا سعدى الى الميدان وأوقفوها في اخره ووقفوا هم في أوله واعطوا لبعضهم الاشارة ، فخرجوا كأنهم نشاب ، وكان دياب راكبا الشهبا ابنة الخضرا وكانت احسن من امها ، فراحت امام الجميع ومن خلفه ابو زيد على الحصان ، وخلفهما حسن على الحيصا وكانت المسافة مقدار ساعة ، فلما وصل اليها دياب قالت له سعدى انا اختك يا دياب ، وكان ابو زيد علمها ان تقول ذلك ، فلما سمع كلامها عرف المضمون ، فشهر حسامه فجرحها جرحا بليغا ، فصاح به حسن وقال لماذا عملت هكذا يا دياب ؟ قال انتم قلتم ان الذي يسبق اليها تكون ملكه ، وهي صارت ملكي ، فأتصرف فيها كيف اشاء ، وبما انها خائنة لا أريد ان أبقيها عندي، ثم الوى الشهبا ورجع ، وأما ابو زيد فقال الى حسن صدق دياب هذه حقه ، ثم نزلا الى سعدى فاذا هي في قيد الحياة ، فحملاها وسارا بها حتى دخلا القيروان واجتمعت البنات والنسوان لما عرفوا بقتل سعدى ، وكذلك مرعي فانه مزق ثيابه وصاق كالمجنون ، واما سعدى فانها فتحت عينيها من حلاوة الروح واشارت تودع الدنيا بكلام يفتت الاكباد .

فلما فرغت سعدى شهقت شهقة واحدة ، وماتت ، فأقاموا عليها الصياح والبكاء والنواح ، ثم غسلوها ودفنوها ، واما دياب فانه طغى في الحكم وبغى وصار يظلم الناس وما عرف كيف يتصرف بالملك ، فأفسد عليه

اهل الغرب بني زغبة ، وصاروا يوشون لهم حتى صار اكثرهم يبغضه ، ودامت الاحقاد بين دياب وحسن وابي زيد ، ولكن في الظاهر كانوا يظهرون المحبة والمودة وفي الباطن كانوا يخفون ما في قلوبهم .

(قال الراوي) هذا ما كان من دياب وبني هلال ، واسمع ما جرى من زعيمة ست الغرب اخت الزناتي ، فانها لما اعلنت بانه وقعت البغضة في بني هلال ، قصدت ان ترمي الفتنة بين الامير دياب والامير حسن ، فجمعت عشيرتها واخو العلام وقالت لهم لقد فقدنا اخي الزناتي والعلام والجابلي وملك بنو هلال بلاد الغرب وما خلوا لنا ملجأ نسكن فيه وقد احزنني موت سعدى وكسر ظهري ، وكان كل املي فيها ان تعزينا ، والان مرادي ان اتوجه الى بني هلال وارمي فيهم الفتن ، فقال لها اخو العلام نخاف عليك من ابي زيد لانه مكار ، فقالت لا تخف علي منه ، وودعت قومها وسارت قاصدة بني هلال بصفة شاعرة ، فوصلت الى تونس الخضرا فدخلت على الامير دياب وقبلت يديه وقالت له ، قد سرتني سلامتك وفرحت بقتلك الزناتي. لانه اكبر اعدائي فقتل اهلي ويتم اولادي واخذ مالي وعدت حزينة غريبة في اقصى البلاد ، فلما علمت انه مات ، ركبت ناقتي وقصدت منازلكم العامرة ، فانا عندي في هذه الارض عين سلوان وغيط البهرجان ، وقصدي ان يكون الغيط من قسمتك ، فقال لها ما يكون هذا الغيط وفي اي جهة، فقالت له غدا صباحا اريك اياه ، فلما اصبح الصباح ركب الامير دياب في جماعته والعجوز دلتهم على الغيط ، فانبسط الامير دياب وانشرح لما نظر تلك الغدران التي تدهش البصر وتلك القصور العامرة والاشجار الفاخرة ، وصار يجني الاثمار ويقطف الازهار ، فقالت له العجوز ارجوك ان تسمح لي ان اذهب الى اولادي وآخذ لهم حملا من الفواكه ، فقال لها افعلي ما بدا لك ولكن لا تطولي علينا ، فاخذت ست الغرب من افخر اثمار الغيط، وذهبت الى الامير حسن والامير ابي زيد وسلمت عليهم وقدمت لهم الهدايا واشارت تصف لهم الغيط والبهرجان وعين سلوان .

فلما فرغت من كلامها والامير حسن والامير ابو زيد سمعا شعرها ونظامها ، وقع الحسد عندهما من الامير دياب ، ثم انعما على العجوز فذهبت في حال سبيلها ، وقال الامير حسن والله يا ابا زيد ، ان الامير دياب حاز افخر ملك الغرب ومرادنا ان ننظر هذا الروض ، وصار حسن يخابر امراء الغرب على الفتك في دياب ، ثم جمعوا الفرسان والابطال وركب هو والامير ابو زيد ، وما زالوا سائرين الى ان دخلوا غيط البهرجان وعين سلوان ؛ ولما نظر الامير حسن وابو زيد هذا المنظر وعلو القصر وجميع

ما ذكرت عنه العجوز وزيادة ، تعجبوا غاية العجب ، ولما علم الامير دياب بحضورهما استقبلهما وسلم عليهما ، فقال ابو زيد يا امير دياب نحن ماسكين البقرة من ذنبها وانت تحلبها فقال الامير دياب اذا الله اعطى فمن يمنع واذا منع فمن يعطي ، فقال الامير ابو زيد فان شئت يا امير دياب تعطي هذا الغيط الى الامير حسن ، فامتنع دياب فانغبن ابو زيد منه وساق الجمال وهجم على الغيط فهدمت الاسوار وردمت الابيار وكسرت الاشجار، ولما نظر دياب هذه الاعمال جمع بني زغبة ليلا وحضر ثلاثمائة ثعلب ودهنها بالزفت والكبريت واشعل النار في اذنابها واطلقها بين زرع بني هلال ، وكان ايام الحصاد ، فاشتعل الزرع ، فوصل الخبر الى الامير حسن فخرج هو وقومه ليطفئوا الحريق ولكن كان احتراق اكثره وما بقي الا القليل ، فغضب حسن وعرف ان هذا الفعل فعل دياب فجمع قومه وراح يستشيرهم على حرب دياب ، فقالوا الاحسن ان ترسل وراءه ، فان اطاع السلطان يحرم قتاله ، وان ابى حاربه ، فاستدعى دياب ، فلما وصل النجاب ابى ولم يحضر .

فلما فرغ دياب من الكتاب ، اعطاه للنجاب وقال له اعطه الى الامير حسن ، فأخذه وسار حتى وصل اليه فقراه على رؤوس الامارة ، فقالوا له افعل ما تريد ، فعند ذلك اشار يحثهم على حرب دياب وقتله .

فلما فرغ حسن من كلامه وبقية الامراء يسمعون نظامه ، قالوا الحق معك دياب غدار وما علاج الغدار الا ضرب البتار ؟ كل هذا وابو زيد ساكت فقال حسن لماذا يا ابا زيد انت ساكت ؟ فقال ابو زيد انا ارى من الموافق ان لا تقاتلوا دياب لانه منا وفينا ونحن طول عمرنا عايشين سوا ودايما انا وهو نتعاون على الخير والشر ، فاذا حاربته فاما ان اقتله واما ان يقتلني ، ومن قتل منا تخسره بنو هلال والراي عندي ان نصلح بينكم ويذهب كل شيء الى حال سبيله ، فقال حسن لا بد عن قتالة لانه ما كفاه خرج عن طاعتي ووضع رمحه فوق تونس ليمرقنا من تحته وقتل سعدى خطيبة مرعي امامي ، وهي صارت من حريمنا ، وقد طمع فينا واراد ان يأخذها ، فقال ابو زيد انا اروح معكم ولكن لا اقاتل بل اصلح ، ثم انهم جمعوا قومهم وذهبوا الى قتال دياب ، فلما وصلوا اليه وعلم بهم ، خرج بقومه لقتالهم، فلما قرب الجيشان برز حسن الى الميدان ، فبرز اليه دياب فالتقى البطلان كانهما جبلان وحان عليهما الحين وغنى على راسيهما غراب البين ، وثار الغبار وسد منافس الاقطار وقدحت حوافر الخيل نارا وكلت منهما الزنود وزهقت منهما الكبود واطلقا الاعنة وقوما الاسنة مقدار ساعة من الزمان ،

طلعت من الاثنين ضربتان قاطعتان ، كان السابق بالضربة الامير دياب ، فوقعت على فرس حسن فقتلتها ، فوقع السلطان على الارض فأسرع ابو زيد وخلصه ، وأما مرعي لما نظر أباه السلطان وقع على الارض هجم على دياب فضربه دياب بالحربة جت على فخذه فأرماه الى الارض ، ثم ان دياب لوى عنان جواده ورجع وما احد تبعه ، ثم اجتمع بقومه وقال لهم عرفتم ما صار بيننا وبين حسن ، فما الراي عندكم ؟ قالوا الراي عندنا ان تغيب مدة من الزمان حتى تصلح الاحوال ويروق البال ، لانك تعديت على حسن وعلى ابنه مرعي وربما حشد الامير ابو زيد ، فتقع الحروب وتفني بعضنا وتشمت الاعادي بنا فقال لهم الامير لا ارحل من هذه البلاد ما لم أقتـــل حسن ، هذا ما كان منه ، وأما حسن قام من وقته وهـــو مجروح ، فحملوه واخذوه الى القيروان وصار الامير ابو زيد يلوم حسن ويقول له انت تعديت على دياب ، وكان مرادك ان تقتله ، ومن الموافق ان تصغيا لقولي وترفعا الحقد من بينكما ، ثم ان ابا زيد أصلح بين حسن ودياب ، ولكن بقيت البغضة كامنة الى يوم من الايام جمع حسن قومه وسادات عشيرته وقال مرادي زف مرعي على عطر بنت ابي زيد ، فنادوا في جميع العربان مدة العرس شهر تمام ، لا احد يأكل ولا احد يشرب الا عند الامير حسن، فذبح الذبائح وعمل الولائم ، ثم استدعى عشرين فارسا من اولاد عمه ، وقال مرادي ارسلكم الى تونس لتعزموا دياب ، وكتب له كتابا يعرفه فيه بالحضور ، وسلمه الى امير من اولاد عمه وقال لهم لا ترجعوا الا ودياب معكم ، فأخذوا المكتوب وساروا يقطعون الروابي والهضاب قاصدين الامير دياب ، وأما دياب في تلك المدة فقد حلم حلما هائلا ، فاستدعى ابن عمه مسلم ، فلما حضر سأله عن الخبر فأشار يعلمه ويقول :

يقول ابو موسى دياب ابن غانـم   الايام مـــا تبدي بيـــوم سعيد
رايت منامــا يا أمير مسلــم   نكد علينـــا غايـــة التنكيـــد
رايت خلخالا علـــى ساق فضـة   يدور علـــى الرجلين بالتوكيـــد
ورايت جماعة من رجالي قدمتهم   وما شفتهم بالعين يـــا صنديـد
ورايت اني في وسط قاعة مربعة   ومصفحة ابوابهـــا بحديـــد
فسر لي منامي يـــا امير مسلـم   واشرح منامـــي يا امير وفيـــد

فلما فرغ دياب من كلامه ، قال له مسلم لا تفكر يا عمي لان هـــذه اضغاث احلام وما هو الا من ثقل الطعام ، وبعد مدة من الزمان اقبل عليه عشرون اميرا من عند حسن فدخلوا وسلموا عليه واعلموه بعزيمة حســن واعطوه الكتاب ، فلما قراه وعرف رموزه ومعناه ، انسر وانشرح جـــدا

وسالهم عن صحة الامير حسن وابي زيد وعن اخته نافلة وعن بقية نجع بني هلال ، فقالوا الجميع يهدونك السلام والتحية والاكرام ، وكان قد سمع بهذا الخبر فما ظن بسوء ، فقال لهم بعد ثلاثة ايام ان شاء الله اكـــون هناك ، فسلموا على الامير حسن ، فذبح الذبائح واولم الولائم واجتمعت القبائل عنده ، وهم في بسط وانشراح الى ان كـان اليوم الثالث نظروا الغبار من جهة تونس من بني زغبة الانجاب ، فخرج واستقبلهم وسلموا على بعضهم البعض ، وكان دياب لابسا جبة من الحرير الاخضر وعلـــى راسه عمامة من البرفيل والارجوان ومعه الف فارس من بني زغبـــي الانجاب ، ثم دخلوا على الامير حسن فترحب بهم غاية الترحيب وجلس دياب على كرسي من العاج كأنه الذهب الوهاج ، وقومه حواليه ، ثم امر الامير حسن باحضار القهوة والكأس والشراب ، واحضر مائدة مصحوبة بألف فارس ضرغام ، فلما جلسوا على المائدة وجدوا المناسف مغطاة ، فرفع الامير دياب الغطاء عن المنسف فلم يجد فيه طعاما ، وانما وجد فيه قيودا من الحديد ، فقال الامير دياب ما هذا يا حسن ؟ فقال له الواجب ان تتقيدوا الى السلطان ولو ساعة ، فعندها وضع الامير دياب القيد برجله وفعل الباقون كفعله وبينما هم كذلك والا اندفعت فرسان دريد لداخـــل المكان ، بيدهم الخناجر والسيوف ، فعندها أمر الامـــير حسن بنصب المشانق والحبال وقال اقتلوا جميع هؤلاء الرجال ، فذبحوا ستين اميرا امام دياب وأبيه ، والباقون أمر بشنقهم ، اما الامير غانم وولده دياب فكادت تفقأ مرارتهم من الحزن ولكن لم يستطعا عمل شيء ، لانهما اسيران وخاليان من السلاح والامير حسن ينصب المشانق ويصيح بأبي الفردوس اشنق ولا تتأخر ، فعندها شنق ابو الفردوس جميع امراء زغبي الموجودين ، فأقامت نساؤهم الصياح والبكاء والنواح حتى ارتجت من صراخهم تلك الروابـــي والبطاح ، وبينما هم في تلك الاحوال ، دخل القاضي سرور الى الديوان، فلما رأته اخته بذلا سلمت عليه وحيته بكلام جميل .

فلما سمع سرور كلام عمته دخل لعند الامير حسن ، فاستأذن بتنزيل القتلى ، فأمر حسن بتنزيلهم ، فأنزلوهم واخذهم بنو زغبة وواروهـــم التراب ، وبعد ذلك صاح حسن على ابي الفردوس : اشنق دياب فقال القاضي الشفاعة في دياب ، فقال حسن ما في شفاعة لانه حرق الزرع وقتل سعدى وعصى وقطع الطرقات ومشى في أمور ما شافها احد ، قال القاضي لدياب انت قتلت اخوته وحرقت الزرع وقتلت سعدى ابنة الزناتي

خليفة ونصبت الرمح فقال دياب نعم .

وتكلم ثم لما فرغ من كلامه والامراء يسمعون نظامه ، فقالوا للقاضي بماذا تصدر الحكم على دياب ؟ فقال الشريعة تحكم على دياب بحبس سنة كاملة ، فلما سمع حسن ذلك الكلام استدعى بزحزاح السجان وقال له خذ دياب الى السجن .

فلما فرغ الامير حسن من هذه الابيات سار الزحزاح بدياب الى السجن ، ووضع قيود الحديد في رجليه وعنقه . (قال الراوي) ولما وصل الخبر الى ابي زيد ، اتى من الاندلس الى حسن ، فسلم عليه ورحب به غاية الترحيب ، ثم سأله ابو زيد عما فعل فأخبره الامير حسن بما فعل فاغتاظ ابو زيد وانشد يقول :

يقول ابو زيد الهلالي سلامة	نيران قلبي زايدات ضرام
يا بو علي ما خفت ربنا الباري	تفعل فعايل مجرمين طغام (١)
عملت في قومك عمايل شنيعة	ما كان لازم تقع في الاجرام
طغيت في حكمك يا امير ابو علي	الظلم يجعل القصور هدام
الله اوصى بالعدل يا حسن	في يوم تجري به الاحكام
غدا ينصب الميزان ونتحاسب سوا	وربك يجلزي المليح قوام
ومن كان فعله بالقبيح فانه	يجازي بنار زايدة اضرام
اخطى دياب الخيال فاصصت غيره	هذه الافعال والله جرام
صار الذي صار وما فيه فايدة	وامر الهي نافذ الاحكام
قيموا عزاهم يا امارى جميعا	فهم شهداء في اعلى مقام

فقال له حسن ما عملت مع دياب الا ما استحقه ، فان كنت قتلت عمه واخوانه فهو قتل اخي وخطيبة ابني مرعي وجرح مرعي فجرح قلبي عليهم ، فقابلته بمثل ما قابلني وجرحت قلبه عليهم ، ثم ان الامير حسن بعث الف فارس الى تونس وامرهم ان يحضروا له خزانة تونس وسلاح دياب واثاث بيته وكل ما يوجد في قصر الزناتي ، فذهبوا واحضروا ما امرهم به ، اما الامير دياب فقد مضى عليه سنة وهو محبوس يقاسي الذل والهوان ، فافتكر في ايام عزه وتذكر اولاد عمه وتذكر الشهبا بنت الخضرا ، فطلب من الزحزاح ان يقدم له ما يلزم لكتابة مكتوب ، فأحضر له الزحزاح طلبه فكتب كتابا الى والده الامير غانم .

ولما فرغ دياب من كتابه ، طواه بعد ان ختمه واعطاه الى الزحزاح ،

---

١ ـ الطغام اوغاد الناس (للواحد وللجمع) والعامة تقول أوباش .

فاخذه وسار لعند غانم واعطاه اياه ، فلما قراه انشد يقول :

يقول الفتى غانـــم بعين وجيعـة ونيران قلبـــي زايدات وهـــاج
تصبر ايا زغبي على الهم والبـلا واياك بين القـوم تكون لجـــاج
واذا لم تصبر يـــا دياب ابن غانم يبقوا الزغابـي في شقا وهجـاج
قدامهـــم يوم طويـــل وشـدة وحرب عوان يهوجوا فيــه هياج

فلما فرغ غانم من الشعر ، طوى الكتاب واعطاه للزحزاح واوصاه ان يكتم سره ، واعطاه خمسمائة دينار وايضا خمسمائة الى ولده دياب ، فأخذها وسار الى ان وصل الى دياب ، اعطاه الامانة والكتاب ففضه وقراه وعرف رمدزه ومعناه ، وبعدها انترك دياب من الجميع وما عاد يفتكر فيه لا شريف ولا وضيع غير اهله والخلان ، وابو غانم ليث الميدان هذا ما كان من هؤلاء ، واسمع ما جرى للامير ابي زيد وحسن ، فقد طابت لهم الاحكام وراق لديهم الزمان ونسيتهم صروف الحدثان .

قصة عزيز القوم ابي زيد ورجوع عليا مع ابي زيد

(قال الراوي) ففي ذات يوم كانوا مجتمعين حسن وأبو زيد في الديوان ومن حولهم السادات والاعيان وأمامهم الابطال والفرسان ، فدخل عليهم نجاب وسأل عن الامير ابي زيد فأهدوه عليه ، فتقدم وتمثل بين يديه ثم قال له انا من نجد من عند الست عليا بنت حسن الجعبري ، وهي تهديك السلام والتحية والاكرام ، وهي من وقت فراقك تطلبها الامراء والسادات والفرسان ، والان مدورين عرسها على الامير نوفل فارس الميدان ، وقد قامت الزينات في الحي من كل مكان وعليا غير راضية بهذا الشأن ، غير ان نوفل كتب كتابا عن لسانك ، انه ما عاد لك بعليا مآرب ولا عدت ترجع من ارض المغارب ، فزوجها لمن تريد ، وعندما بلغ عليا هذا الخبر تنغـص عيشها وتمرمر ثم اخرج الكتاب وباسه وأعطاه الى ابي زيد ففضه وقرأه، ولما وقف على معناه غرغرت عيناه بالدموع ، فلما رآه حسن وبقية السادات قالوا ما جرى عليك يا ابا زيد وما هذا الكتاب ؟ فحينئذ ناول الكتاب الى ابن اخته عزيز القوم لانه كان بجانبه، فقرا كتاب عليا على رؤوس السادات، فلما فرغ من قراءته قال حسن والله يا ابا زيد الحق مع عليا لانك قطعت عنها المخابرات ، وقد حرمت من رؤية اولادها وانت ما عدت ذكرتها من

اليوم تخاصمت هي والجازية، ورجعت من مصر مع ابيها حسن جعبري الى نجد ، وليست هذه من افعال الامراء الكرام ، فقال ابو زيد هذا هو الحق والصواب ، ثم اخذوا العبد وصاروا يضيفوه ثلاثين يوما ، فعندما تحرك حج العرب للزيارة فنهض العبد الى ابي زيد واخبره بالمسير الى بلاد نجد صحبة الحجاج ، فأعطاه ابو زيد مطية وثلثمائة دينار واشار يخبر عليا ويقـول :

يقول ابو زيد الهلالـي سلامـة	وطير انيا حكم بقلبي مخالبـه
مـن البعد والفرقة ياما اصابنـا	وكيف حال المرء فارقوه حبايبه
ايا غاديا مني على متن ضامـر	تجد السير في البر تجري ركايبه
اذا جيت نجد العدية وأرضهـا	فسلم على عليا وباقـي قرايبه
وقول لها يا منية القلب والحشـا	شخصك مصور في فؤادي نصائبه
وما عاقني الا خليفـة وحربـه	سقيناه كاس الموت مـرة مشاربه
قتله ابو موسى دياب بن غانـم	ادعى دماه علـى الثرى سكايبه
اخذنا بـلاده والقصور جميعهـا	وأموالـه تلفت وراحت ذهايبه
واميرنـا حسن الهلالي ابو علـي	بكل بلاد الغرب حلت ركائبـه
كتبت على صدري مسائـل كثيرة	خيام وسلطان وقاضـي ونايبـه
ولا بد من قاضي يشرح الحكم بيننا	ويبان للمغلوب مـن كان غالبـه
تعذيبي بالبعـد ولبعد خيبـة	اذ طال عمـر المرء تكثر متاعبـه

فلما فرغ ابو زيد من انشاده ، طوى الكتاب وختمه بختمه ، وايضا شيبان واخوته كتبوا مكاتيب لعليا والدتهم ، واعطوها للنجاب وساروا معه سفر يومين حتى وصل مع الحج للقدس الشريف ، ومن هناك الى مكة والبيت الحرام ، وبعد ذلك رجعوا وسار العبد يقطع البراري والقفار حتى وصل لنجد ودخل على عليا ، فترحبت به وسألته عن ابي زيد وعـن اولادها ، فأجابها بكل خير ، وناولها المكاتيب ، فلما قرات كتب اولادها نزلت دموعها وطلبت من الرحمن ان يفرج همومها . هذا ما كان من امر هؤلاء ، وأما ما كان من ابي زيد فزادت بلابله وأشواقه لمشاهدة عليا ، ودام على هذا الحال شهرا كاملا ، ثم طلب من بعض جنوده وأصحابه ان يرافقوه لبلاده نجد ، فأبوا وقالوا نحن ما صدقنا حتى وصلنا للغرب واسترحنا من الطعن والضرب ، فاغتاظ ابو زيد وطار من عينيه الشرر فحينئذ قام الامير عزيز القوم فارس الفرسان وحامي الميدان والذي شهدت له الاقران بالحرب في وقائع الجولان ، وهو ابن خالد بن شيحا اخت ابو زيد وابوه قتل في مصر بوقعة الملك فرمند ، وربي عند أمه يتيما في حمى ابي زيد ، حتى اشتدت أوصاله وراقت احواله ، فصار فارسا عظيما وشيطانا رجيما هابته

الفرسان في الحرب والطعان ، وكان ابن سبعة عشر سنة امردا لا نبات بعارضيه ، وكان يضع برقعا على راسه خوفا من النساء ، تطرح من حسنه فتقدم الى ابي زيد وقال له يا خال انا رفيقك لنجد .

فلما فرغ عزيز من كلامه ، انتخى الامير يونس وقال انا معك يا عم لنجد، ففرح ابو زيد وايقن ببلوغ الوطر ، ثم ودعوا اهاليهم وجدوا في قطع الروابي والآكام ، مسافة تسعين يوما ، فوصلوا لارض قفرا ، فراوا بئرا فقصده يونس ووجدوا دلوا وحبلا على جانب البئر ، فشد الحبل فانقطع بوسط البئر ، فهم عزيز القوم بالنزول فمنعه ابو زيد وقال له هذا بئر مملوء بالحشرات المؤذية المسمة ، فسيروا الى ان يفرجها الله تعالى ، فقال يونس لا بد لي من النزول الى البئر لاني كدت اتلف من شدة العطش ، فقال ابو زيد الروح ما هي حشيشة حتى ينبت موضعها ، والحشرات المؤذية لا تعرف لا اميرا ولا سلطانا ، فقال يونس دعك من هذا الكلام فما احد ينزل الا انا ، فحينئذ اخذ الحبل ونزل الى البئر فشرب وملأ الدلو ، ولاجل نفوذ القضاء والقدر خرج عليه من جانب البئر ثعبان شنيع المنظر ولدغه بفخذه ، فلما أحس يونس بضربة الثعبان غاب عن الوجود وزعق صوتا ارتج منه ذلك المكان ، فغاب الثعبان عن عيونه وكان ابو زيد واقفا على جانب البئر ، فقال مالك يا يونس وما جرى عليك ؟ فقال له لدغني ثعبان ، ثم نهض لخارج البير وحس ان قلبه قد احترق بنار السعير ، وشكا حاله لابي زيد وعزيز ، فنزلت دموعهما حرقة عليه .

ثم تودع منهما وشهق شهقة فأسلم الروح ، فبكيا عليه وكفناه وصليا عليه ودفناه ، ثم سارا حتى وصلا لنجد ، ودخلا لحي الامير حسن الجعبري ، فوجدا فيه نفخ الزمور ودق الطبول والحي يهوج ويموج ، ومرت أمامهما عجوز شمطاء لابسة حلة بيضاء ، فحياها ابو زيد بالسلام فردت عليه السلام ، فقال لها هل عندك محل للمنام ؟ فقالت له اهلا وسهلا بكما . وسارت بهما الى منزلها ، وبعد ان جلسا قال ابو زيد مالي ارى الحي في فرح وسرور وبهجة وحبور ؟ فقالت له اعلم يا وجه العرب ان هذا عرس كريم ، وهو عرس الامير نوفل على الست عليا ابنة الامير حسن الجعبري ، وكانت سابقا زوجة الامير ابي زيد ، وكان ولدي راعيا لابله وسكن بلاد الغرب ولا عاد له بعليا مأرب ولو يصل اليه خبر زفاف لكان يحضر ويقتل نوفل ، فقال لها هل عندك للسر موضع ؟ قالت بئر عميق ما له قرار ، فقال لها انا ابو زيد . فقالت له اهلا وسهلا بعزنا وحامينا ولكن كم تنسر عليا لو بلغها خبر قدومك بالسلامة ! فقال لها ابو

زيد وكيف نقدر ان نصل اليها وهي بين تلك الجموع الغفيرة ؟ فاجابته عند المساء نلبس عزيز ملبوس ابنتي مايسة ، وناخذه لعند عليا ، وعندما يفرغ المنزل من الجميع ، يلبس عزيز ملبوس عليا ونجعله عروسا مكانها ، ونحضر انا وعليا لهنا ، ولا يعلم بنا احد ، فاستصوب ابو زيد هذا الراي ، وعندما اظلم الظلام لبست عزيز احسن ملابس ابنتها وزينته وعطرته واخذتـــــه برفقتها الى ان دخلت به لبيت عليا ، فترحبت بهما وبالغت في اكرامهما ، وعند انصراف الجميع تقدمت العجوز الى عليا وبشرتها بقدوم ابي زيد وقالت لها وهذا عزيز القوم ، فلما نظرت اليه وتحققت الخبر سلمت عليه وقبلته، فقالت لها الان ليس وقت سلام بل المراد منك ان تنزعي ثيابـك وتلبسيهم لعزيز القوم ، لانه نظيرك بالحسن والجمال ، وهو يليق ان يقوم مقامك ثم نذهب انا وأنت لعند الامير ابي زيد لانه بانتظارنا ، ففعلت وسارتا فلمـــا رآهما ابو زيد مقبلتين فرح بعليا فرحا لا يوصف ، وتقدم منها وتعانقا عناقا طويلا وتشاكيا من الم الفراق .

هذا ما كان من امر هؤلاء ، واما ما كان من عزيز فانه كان ينتظر قدوم العريس ، وبينما هو كذلك ، اذ دخل عليه الامير نوفل وجلس بجانبه ومد يده اليه ، فنفر منه وقال له ليست هذه أفعال العرب يا قليل الادب ! فقال ما السبب حتى تبادرني بهذا الكلام يا بنت الكرام ؟ فقــــال له اعلم ان العروس لها على العريس نقوط ، وانا لما اخذني ابو زيد اعطاني الف دينار وانت امير وابن امير ويا حيف أبخل من طنجير ، فلما سمع منه ذلك الكلام اراد ان يضربه بالحسام ، فقال ورفعه على زنده وضرب به الارض كــــاد يدخل طوله بالعرض ، وأوثقه بالحبال وربطه بالعمود الى ان اصبـــــح الصباح ، اطلق سبيله ودام على هذا الحال مدة اربعة ايام ، يأتي بالظلام طمعا بالوصال ، فيربطه الى الصباح ولم يطلع احدا على امره ، فبينما هو خارج من الدار فالتقى بعمه الهدار ، وكان رجلا كبيرا وعليه سيمة الوقار، فحياه بالسلام فرد عليه وقال له مبارك يا عريس ان شاء الله تكون نلت مبتغاك ، فتنهد نوفل من فؤاد حزين ، فصاح به عمه ماذا دهاك ؟ فقال له اعلم يا عم ان كل يوم اذهب الى العروس طمعا ببلوغ المرام فتوثقنـــي بالحبال والقيود وتربطني على العمود الى الصباح وها قد اطلعتك على سري وكشفت لك امري ، فأجابه الشيخ هل من يقدر عليك بالقوة ؟ فقال لا يوجد احد يقدر علي الا عزيز القوم ، وهو الان في المغارب ، فهل ممكن ان يأتي الى هنا وهم يقاسون الاهوال والمتاعب ! فأجابه الشيخ ايها الامير ان اردت ان تزيل عنك هذا الهم اصنع لك شيشين احدهما من دم والاخر من

السم ، فلما تطلب منها الوصال اضربها بشيش الدم ، فان كانت انثى تذل وتسكت وان كانت ذكرا يهوش ويتقدم ، فاذا رايتها بادرت اليك ، اضربها بشيش السم وقيدها بالسلاسل والقيود ، فشكره على ذلك وذهب للبيت واخذ معه الشيشين ، فلما رآه عزيز قال له هل احضرت الفلوس ؟ قال له ما عندنا يا ابنة الانذال فلوس ، فتقدم اليه ليكتفه ، فضربه بشيش الدم فهاج ، فلما نظره بهذا الحال اثنى عليه بشيش السم ، فتقدم اليه وربطه من حلاوة الروح ، ثم غيَّر عزيز ملبوسه وتركه بحاله وذهب لعند ابي زيد وانشد يقول :

يقول الفتى عزيـــز عما جرى له	ودموع عيني زايـــدات سكايب
ونيران قلبي كلما اقول تنطفـــي	يزيد لها جوا ضلوعـــي لهايب
جرح القديم يـــا خال ما ضامنـــي	جرح الجديد يشد عليه العصائب
وقد اخبرتك يا هلالي سلامـــة	هيا بنا نرجـــع لارض المغـارب

فلما فرغ عزيز القوم من كلامه ، وقع مغشيا عليه ، فحزن ابو زيـــد وتكدر ورشوا الماء عليه حتى افاق من غشيته ، وصارت عليا تمزق القمصان والحرير وتربط الجروحات ، فالتفت ابو زيد الى عليا وقال لها اذا مـــات عزيز ، لا أقدر ان آخذك معي لان الطريق خطرة والمسافة بعيدة ، فقالت لا بد لي من الذهاب معك وان مت امت ولا أدع اعداءك يشمتون بك ، فافتكر ابو زيد مدة من الزمن ، ثم عول على اخذ عليا معه لكي ينطفي خبرهم ولا احد من القوم يقتفي اثرهم ، ثم بدأت عليا تدهن الجروحـــات بالمرهم ، فعند ذلك راقت احواله وسكن المه وقال له قم بنا يا خال نسر قبـــل الصباح ، والحمد لله راقت احوالي وقاموا وركبوا مطاياهم وودعوا العجوز واعطتها عليا عقدا من الجوهر ، وجدوا في قطع الروابي والقفار مقـــدار تسعين يوم حتى قطعوا حدود نجد ، الى ان وصلوا لحدود غزة ، وتلك الاراضي خالية من السكان ، وفرغ الماء منهم واشتد عليهم الظمأ ، فحاروا في امرهم في تلك البيداء ، فقال عزيز يا خال يوجد بئر في هذه الاطلال وهو قريب من هنا ، فذهب ابو زيد اليه ومعه القربة ، ولما نزل الى البئر وجد شيئا يختبط بذلك المكان له صريخ كصريخ الجان فارتد راجعا اليهما وعرفهما ان البئر جاف ، فتعجبا من ذلك غاية العجب وقال له يا خالي انه لا يخلو من الماء لا صيف ولا شتاء ، ثم اخذ الرمح بيده والقربة وتوجه الى البئر فوجد شيئا يتخبط فنكشه بالرمح ، فاذا هو جدي ماعز وقع في الماء ، فنزل واطلعه وملأ القربة وذهب لعند خاله وقال ها هوذا الماء ، فشربوا وذبحوا الجدي واكلوا ، وبينما كان ابو زيد يغير جروحات عزيـــز

القوم ، احس عزيز قلبه احترق بالنار وحقق ان السلم وصل لقلبه ، ولا فائدة من طبه ، فقال لهما عن ذلك فندم ابو زيد وتحسر وقال لعزيز القوم سلامتك يا خال ، فقال ما بها سلامة ؟ ثم سالت عيناه بالدموع وصار يكتب الى امه شيحة ويوصي خاله بهذا القصيد :

يقول عزيز القوم والنار بالحشا ... دموع عيني زايدات سكايب
أسمع كلامي يا امير سلامة ... يا فارس الفرسان مذري الكتايب
فان أتيت لارض المغارب وشفتها ... سلم على الاخوان ثم الحبايب
وسلم على الوريدي ابو علي ... وقبل أياديه وحب الركايب
وسلم على اولاد خالي جميعهم ... وسلم على القاضي سلام الحبايب
وسلم على زيان الامير وامه ... وسلم على الزغبي دياب المحارب
وسلم على امي الحزينة وقل لها ... تبكي علي بالدموع السكايب
وان سألوك يا خال عني قل لهم ... غدا رهين الموت تحت الترايب
هذا ترى يا خال آخر كلامنا ... الله يساعدني بوقت الحسايب

ثم ان عزيز شهق شهقة واحدة والقى نظرة الوداع عليهما واسلم الروح، فأقاما عليه البكاء والنواح ، ثم دفناه ورحلا طالبين الديار يقطعان البراري والقفار حتى اشرفا على بلاد الغرب ، فذهب الرعيان واخبروا حسن وبقية السادات بمجيء ابي زيد ، فركبوا جميعهم ورجال الحي ، فلما وقعت العين على العين ، ترجل حسن وباقي السادات وسلموا على ابي زيد وعليا وفرح شيبان واخواته بملاقاة عليا أمهم ، اما حسن فسأل ابا زيد على يونس وعزيز ، فعندها نزلت الدموع من عيني ابي زيد ، واخذ يقص عليهم ما كان من امرهم وهم يسمعون ، فوقع بينهم الصياح والبكاء ، وعاد ابو زيد لمنزله وتبعه الرجال والنساء وصاروا يعزونه في يونس وعزيز ويهنئونه بعودته بالسلامة ، ودامت الناس تتقاطر على ابي زيد مدة من الزمان .

هذا ما كان من هؤلاء ، وأما ما كان من امر دياب فانه بعث كتابا الى الامراء ليشفعوا له عند حسن وقد مضى عليه في السجن ثلاث سنين ، يقاسي العذاب المهين ، وفي السنة الرابعة كتب الى حسن يقول :

يقول ابو موسى دياب بن غانم ... ولي مجلس بين الرجال شديد
أيا غاديا مني على متن ضامر ... فسلم على حسن الفتى الصنديد
وقول له يا عز قيس وعامر ... أيا من بسيفه ذل كل عنيد
جازيتني بالحبس يا امير الملا ... وهذا منك يا امير ما يفيد
شنقت اخوتي واولاد عمي ... وخليت نساهم في بكا وتعديد

ثم طوى الكتاب وارسله الى حسن فلما قراه صار يرد جوابه .

ولما فرغ حسن من الكتاب ، ارسله الى دياب ، فعلم ان تعبه مع

حسن بالمحال ، وظل منتظرا الفرج من الله حتى مضت عليه السنة الخامسة ، فاستدعى بقلم وقرطاس وصار يكتب الى شبل الدريدي ويرجوه ان يشفع فيه عند حسن .

فلما فرغ دياب من تحرير الكتاب ، ارسله مع الزحزاح الى الامير شبل، فقراه وبالحال توجه لعند الامير حسن وصار يتشفع بالامير دياب .

فقال له انا ما نسيت قتل اخي مناع وحرق الحدائق وما فعل مع سعدى خطيبة ولدي مرعي ، وحرق الزرع في تونس وروض البهرجان وقطع الطرق على العرب ، وصار يخبر شبل بهذه القصيدة ويقول :

يقول الفتى حسن الهلالي ابو علي	والهم ما بين الضلوع شديد
ابا شبلي جيت تشفع في ابن غانم	يا امير ترك دياب عاد بعيد
وقتلة اخي مناع انا ما نسيتها	وقد كان فارسا وفتى صنديد
وحرق حدائق البهرجان وغيره	وخلى جميع هلال بالتنكيد
واخذ سعدا من قصرها ليعزها	فجازاها بالضرب والتشديد
نهيناه بالمعروف عن جرم فعله	عصى وانفرد عنا وعاش وحيد
وبعدها نوى يملك الغرب كله	ويبقى على امر هلال يسيد

فلما فرغ حسن ، رجع شبل واخبر الزحزاح بما قال حسن ، فرجع الزحزاح واخبر دياب بالذي صار ، فحينئذ قال دياب لا حول ولا قوة الا بالله ، ودام بهذا الحال حتى مضت عليه السنة السادسة ، فاستدعى بقلم وقرطاس واشار يكتب الى سعد الرياشي ويترجاه ان يتشفع به امام حسن ليطلقه من السجن ، وارسل الكتاب بصحبة الزحزاح ، فلما وصل الى سعد الرياشي وقراه وعرف ما حواه ، سار الى حسن وقبل يديه ثم قال له : يا ابن عمي اطلب مني ملكي ، فلا اعزه عنك ولا تفتح لي سيرة اطاق دياب .

عندئذ ذهب سعد الى الزحزاح واخبره بما قال السلطان ، فرجع الزحزاح الى دياب واخبره بما حصل ، واما بذلا فقد اخذت معها جملة من النساء وتوجهت نحو الصيوان ، وصارت تتشفع في دياب وتذكر الاهل والاحباب الذين شنقهم حسن على الاخشاب ، فقال لها حسن انا ما كنت مصدق على نفسي حتى حبست دياب ، ولا اطلقه من السجن ، فهذا حديث بطال ، فارجعي الى الاطلال وكوني من هذا القبيل براحة بال ، فحينئذ توجهت مع النساء الى محلها ، واما دياب فانه ما زال يقاسي العذاب وهو منتظر الفرج حتى بلغه خبر قدوم ابي زيد من بلاد نجد ، فقال والله لا يقدر على خلاصي الا ابا زيد ، وكتب كتابا الى ابي زيد واعطاه للزحزاح وقال له سر الى نجد واعط ابا زيد هذا الكتاب ، فأخذه وسار

وجد في قطع القفار ، الى ان دخل لصيوان ابي زيد وسلم عليه وناوله الكتاب ، فقراه فتكدر ابو زيد من حسن ، والتفت الى الزحزاح وقال له بشر الامير دياب وقل له سيذهب الى حسن ويترجاه بدياب فان اطلقه والا اخرجته غصبا عن رقبته ، فذهب الزحزاح وسار الى دياب فاخبره بكلام ابي زيد ، ففرح دياب وايقن بالفرج ، هذا ما كان من حسن وبني هلال ، ففي يوم من الايام كان العربان والامراء مجتمعين عند الامير حسن في الديوان ، فأخذوا يذكرون الوقائع المشهورة والفوارس المذكورة وصاروا يمدحون دياب وكيف ملكهم الغرب وحمي البوش من الدشمان وقتل الزناتي في ساحة الميدان ، ويستحق ان يذكر مع الفرسان ، وكان موجودا في الديوان اولاد الامراء والشبان الذين لم يسمعوا بذكر دياب الا باللسان، فتشوقوا الى مشاهدته ولو ساعة ، فترجوا السلطان ان يروه وساعدهم الامراء ، فقبل السلطان حسن رجاءهم وامر ان يأتوا بدياب مكبلا بالقيود، فأحضروه امام السلطان واذا هو اصفر اللون بهيئة الموتى ، فصار اولاد الامراء يضحكون عليه ، فقال السلطان حسن كيف ترى نفسك الان بالذل والهوان ؟ فقال انا بخير ما دمت راضيا عني ، وبعد مداولة طويلة اراد ان يرجعوه الى السجن ، فقال دياب ما انا بمشمشة تهزني ولا قمح تكدني بغربالك ، فان كان الذئب يصفو للغنم انت تصفو لي وأنا اصفو لك ، فصاح حسن خذوه الى السجن ، فعند ذلك اخذ دياب يرتجف مظهرا الخوف الشديد ، فوقع على الارض مغشيا عليه كمن قارب الموت ، فعند ذلك ترجى الامراء الامير حسن وقالوا له دياب في حالة النزاع ، فأمر ان يدخلوه دار الحريم لعند اخته نوفلة ، فحملوه الى بيت اخته ، فلما نظرته على هذا الحال وهو محمول على أيادي الرجال ، بكت وانشدت تقول:

حرام لقد جار العداة وقد بغوا	علينا ونحن بالكروب نسير
لقد كنا في عز وكنا بنعمة	وكنا برغد ما عليه عسير
فبتنا نقاسي الهم والويل والضنا	وتجري الدموع على الخدود غزير
وقد كنت يا امير الامارة وسيدهم	كسبع الفلا بالماضيات تشير
اذا هاج سوق الحرب كنت اميره	تكر على الاعداء مثل الزير
وتحتك خضرا مثل فرخ نعامة	تدق الثرى في رجلها وتطير
فما كان ظني يا دياب بن غانم	اشوفك بهذا الحال والتأخير

مقتل السلطان حسن

وما زالت نوفلة تردد الاشعار وتسكب العبرات ، حتى فتتت الاكباد

واحنت الاجساد ، فبكى معها كل من حضر لان الامير دياب فارس مشتهر وبطل غضنفر ، واخذوا يطيبون خاطرها بسلامة دياب ويطمنونها ، فما خفت مصيبتها ، ثم مدت الى اخيها فرشة من ريش النعام واخذت ترش عليه من ماء الخزام ، وهو ينتفض ويرتعش ، وبقي على هذه الحال ثلاثة ايام ، لا يذوق طعاما ولا يقابل مناما ، فحن عليه السلطان وفك قيده واطلق سبيله ، فصار يستغنم الفرص حتى لاحت له ، فدخل على حسن وهو غارق في منامه ، فسحب السكين وانطرح على حسن وذبحه وتركه يتخبط بدمه ، وسار يجد السير تحت الظلام الى ان وصل الى قومه وعشيرته، ففرحوا به وانسروا لرؤيته واخذوا يسالونه عن كيفية اطلاقه من سجن حسن ، فأخذ يقص عليهم القصة ويخبرهم كيف سار من البداية الى النهاية .

هذا ما كان من الامير دياب وهو يقص ما جرى له على اولاد عمه ، فلما سمعوا انه قتل الامير حسن ، انقلبت افراحهم الى اكدار واظلم في وجوههم النهار ، وما منهم من احد الا اظهر الحزن والاسف ، وقالوا والله يا دياب لقد فعلت فعلا منكرا وسددت في وجوهنا الابواب بقتلك الامير حسن ، فكيف تجاسرت على هذا العمل وهو صهرك وامير بني هلال ؟ والان قد اصبحنا عبرة عند العرب الكرام ، فسوف يصير بنا كما صار مع جساس بن مرة والامير كليب ، ومن الان اصبحت عداوة كبيرة بين عشائر بني هلال وسوف يصلون الينا ، فقال دياب لقد صار ما صار والاوفق لنا ان نرحل قبل ان تدركنا جموع بني هلال ، ويقع الحرب بيننا وبينهم ، فهدموا الاطناب وأودعوها ظهور الجمال واركبوا النساء والاطفال في الهوادج وساروا يجدون بقطع الروابي والبطاح . هذا ما كان من امر الامير دياب وأولاد عمه ، وأما ما كان من عطور الجيد ، لما انتبهت من رقادها وشاهدت الامير حسن قتيلا ، فصاحت بالبكاء ومزقت ثيابها وناحت وولولت ، فتراكضت جموع بني هلال على بكاها ، فوجدوا الامير حسن قتيلا ، فعلت منهم الاصوات وسكبوا العبرات ، فسمع ابو زيد الصراخ فوثب في الحال واتى فنظر جموع بني هلال مزدحمة على صيوان الامير حسن وهو قتيل ، فبكى ومزق ثيابه ورمى شاشه وتقدم اليه ورمى نفسه عليه ، فقبل يديه ووجنتيه ، ثم وقع مغشيا عليه ، فتراكض الناس واخذوا يرشونه بالماء حتى صحي ، فالتفت الى النافلة وقال لها اين كنت لما قتل اخوك سلطان العرب والعجم ؟ فزادت النحيب والعويل واقبلت اخته

الجازية وهي تصيح وتبكي وتمزق ثيابها وتندب اخاها ، ثم وقعت عليه تقبل قدميه وهي تولول وتصيح ، فكان يوم حزن ، يا له من يوم اظلمت الشمس فيه ، وكثر البكاء والنواح والجازية تزيد بكاها وتندب اخاها .

(قال الراوي) فلما فرغت الجازية من رثائها وجموع بني هلال ناظرين مما قد دهاها ، هطلت دموع بني هلال كالامطار ، وتقدمت مريم ابنة زهرة البان وزوجة ابي العوف ، ووقفت فوق راس الامير حسن واشارت تقول:

دمعي جرى فوق خـدي وانسكب   والنار في قلبي تزيد مـن اللهب
يا بين شمت العدا فينـا ومـا   كان العهد سيف الغـدر ينسب
شمس المعارف اظلمت انوارهـا   والليل اصبح بالمخاوف والكـرب
بدر العلى يا حيف من فوق الثرى   يبقى طريقـا والغراب فينـا نعب
يا كوكب الاقبال يـا امير حسـن   يا عزنا يـا فخرنا يـا منتسب
يا حيف هذا الوجه يعلاه الكـدر   يا حيف هذا القد تفنيـه التراب
الله يجازي دياب في حال العمى   الله يجازي دياب في هـم وتعب
ارمي قلوب هلال فـي نار اللظى   ادعي الدموع تسيل من حرب النوب
يا مشبع الجوعان يا معزي الحزين   يا منقذ المكروب يا مولى العـرب
اراه ناري بالحشا مـا تنطفي   يا نكبتي يا حسرتي ركنـي ذهب

فلما فرغت مريم من قصيدها والكل يسمعون تعديدها ، هطلت من عيونهم الدموع وزادوا في البكاء والنحيب ، وكانوا يرثونه بالقصائد المحزنة ويقصفون لفراقه الرماح ويكسرون السيوف ، ثم اجتمع مشايخ زحلان ودريد ، وتقدموا الى الامير ابي زيد وقالوا له الاحسن رفع جثة الامير حسن ودفنها ، لان كرامة الميت مأواه ، وبذلك امر رب الارباب ، فأجابهم ابو زيد الى ما طلبوا ، ثم تقدموا بكل احترام ورفعوا الجثة وغسلوهـا وبروائح المسك والطيب رشوها ، وتحت التراب وضعوها وذبحوا على قبره من الجزور والاغنام ، ما يكل عن وصفه اللسان ، ثم اقاموا على القبر قبة عظيمة وزينوها بماء الذهب ، وكتبوا عليها اسم الله الاعظم وتحته اسم الامير حسن ، ثم رجعوا وعملوا مناحة ، وكانت تأتيهم العربان من كل مكان يعزونهم على فقد الامير حسن ، وبعدما انقضت ايام المناحة وسكن روعهم ، اجتمعوا في صيوان الامير ابي زيد وقالوا له ماذا تأمن بأخذ ثار الامير حسن؟ فاننا والله لا نرتاح ولا نكف عن البكاء والنواح الا ان نأخذ بالثار ونكشف المذلة والعار ونقتل دياب ومن معه ، حتى لا يبقى منهم من ينفخ نارا ووفيتم الحريم والاولاد ونجعلهم عبرة كنسل الاوغاد ، فأجابهم ابو زيد الى مـا طلبوا ، وقال لهم وحق الركن والحجر والبيت المطهر انكم لو علمتم مـا بقلبي لرثيتم لكربي ، فاني اول من يتقدم لاخذ الثار وكشف العار ، واني

والله سوف انزل في آل غانم الفنا ولا ابقي لهم بقاء ، وسوف اطلب دياب على رؤوس الجبال وابقيه باوشم حال ، وقد صار الاولى بنا ان نستعد للرحيل في اثر آل غانم ونوقع بهم المآثم ، في هذه الليلة دوروا بين البيوت واخبروا البنات والنسوان ان يكن على استعداد للرحيل ، وتتبع اثرهم ولو طاروا . فعند ذلك طافت الرجال بين الاطناب واخبروا القوم بهذا الامر ، وما مضت الثلاثة ايام الا وكنت ترى النساء والاطفال على ظهور الجمال والرجال على الخيول معتقلين بالرماح والسيوف ، وفي مقدمة الجيش الامير ابو زيد حامي جيوش بني هلال وهو امامهم كالاسد الرئبال وتحته اشهب وعليه سرج مرصع بالذهب وهو فوقه يموج ببحر السرج كأن قلة من القلل او قطعة فصلت من جبل ، بيده رمح ماضي السنان ، وعلى جنبه سيف يمان ، وقد افرغ على صدره درعا من البولاد محبوكا بالزرد ، هذا وقد انتشرت البيارق والرايات ودقت الطبول ، فسمع لها رجات واخذت الخيل تتسابق ، فعند ذلك اخذ ابو زيد يقول :

يقول ابو زيد الهلالي سلامة … والنار في قلبي تزيد شعال
والخيل تعرف انني ما ركبتها … الا جعلت القوم بأوشم حال
لي سيف ماضي الحد قطاع الرقاب … لو صاب صخر الصم فيه قلت مال
بالله اسمعوا بالله افهموا يا قومنا … وكونوا سباعا للقا يا هلال
اليوم اخذ الثار من زغبي دياب … ذاك الذي ارمى حسن بنكال
شدوا العزايم يا هلال تجردوا … للحرب ما تكونوا به انذال
وتذكروا السلطان حسن كيف انقضى … وكيف قد غدا والدم منه سال
عاداتكم بالحرب ترمون العدا … فوق الثرى وتقطعوا الاوصال
ومن من مجال الطعن يلوي وينهزم … فذاك عندي من بني الارذال
واهدي سلامي للسلطان حسن … واكرر الاشواق للمفضال
وحياة عينك يا حسن لازم اكيد … نأخذ لثارك بالقنا ونصال
لازم اقطع رأس هذا الوغد اللئيم … دياب ابن غانم اللي بنا احتال
وادعي الزغابة بالذل طول المدى … وادعي النسا بالضيق والاهوال

فلما فرغ ابو زيد من كلامه ، صاحوا عن فرد لسان : والله يا ابا زيد اننا نفديك بأرواحنا لانك مضمد جراحنا ، وما قمنا الا لاخذ الثأر وكشف العار ، فعند ذلك ساروا وما زالوا سائرين ليلا ونهارا حتى دخلوا تونس الغرب ، فلاقتهم اهل تونس وقدموا لهم الخضوع والطاعة ، وما كان في تونس الا القليل من آل زغبي ، فأتوا واضعين على اعناقهم المحارم واظهروا للامير ابي زيد الحزن والاسف على فقد حسن ، وما منهم الا وكان يلعن دياب ، فسألهم ابو زيد عنه ، فأخبروه انه رحل الى بلاد الحبش هو

وبعض قومه ، فلما سمع ابو زيد هذا الكلام ، امر الجيش ان يتابع السير خلف دياب ، فجدوا في السير في اثر دياب ، وما زالوا يسالون عنه الى ان ضاق بهم الحال ولم يعلموا اين رحل ، فكادوا يهلكون من الجـــوع والعطش في ذلك البر المقفر ، فرجعوا على الاعقاب ، ولما وصلوا الى الاطلال نصبوا ابا زيد سلطانا عليهم وعلى جميع بلاد الغرب ، اما دياب فما زال يقطع الروابي والقفار الى لن وصل الى بلاد الحبش ، فسمع به ملك تلك البلاد ، فخرج لملاقاته بكل استعداد ، وكان راكبا على جواد اشهب ، عليه سرج مرصع بالجوهر ومعه الاحشام والاعوان والعبيد والغلمان والنســـاء بالدفوف والمزاهر وفي أيديهم القماقم المملوءة بالمسك وماء الزهر ، فلما التقت الرجال بالرجال ، نزل الملك عن جواده وترجل هو ومن معه وحيوا دياب وقومه ، تحيات الاصحاب والاحباب ، واخذوا يرشون عليهم الطيوب التي تشفي الكروب وعند ذلك ارسل بهم الى المضارب والخيام وذبح لهم الجزور والاغنام واعطاهم احسن مجلس ومقام ، وقال لهم انتم السادات ونحن العبيد .

مقتل الأمير أبي زيد

هذا ما كان من جوهر صاحب التاج ، واما دياب فانه شكره على ما ابداه ، وقال له اعلم اننا قد اتينا ضيوفا لنقيم عندك مدة من الزمان ، وبعد ذلك نرحل ، فقال اهلا وسهلا بكم ، ثم انزل دياب في احد قصوره وفرض لهم مكانا واسعا واعد لهم محلا يرعون فيه المواشي ، وبقي دياب مع الامير جوهر في عز واكرام وبسط وانشراح مدة من الزمان ، أما ابو زيد فانه كان في احد الايام جالسا في بيته تذكر ارض نجد وعزها وما لاقى فيها من الهنا والراحة ايام الصبا ، ثم تذكر الاهوال التي لاقاها في الطريق ، حتى وصلوا الى بلاد الغرب ، وتذكر زيدان والخفاجي عامـــر والقاضي بدير بن فايد وعقل ونصر وبدر بن غانم واولاده واولاد حســـن الذين قتلهم العلام ، فصار يبكي ثم تشوق الى رؤية دياب وقال : هـــذا رفيق عمري وحامل الشدات معي ، وان كان قتل حسن فقد خلص عمره ومات بيومه ، ثم خطر بباله ان يرسل يستعطف بخاطر دياب ويطلب منه ان يرجع الى بلاده ، فكتب له جوابا بهذا المعنى وختمه بختمه وارسله مـــع

النجاب ، فاخذه وسار به يطوي الفيافي والقفار حتى وصل الى بـلاد الحبش ، فسال عن دياب فاهداه عليه واعطاه الكتاب فاخذه منه وفضه وقراه وعرف رموزه ومعناه ورد عليه ثم طوى الكتاب وختمه واعطاه الى النجاب ، فاخذه وسار به وجد يقطع الروابي والقفار حتى وصل الى بلاد الغرب ، فدخل على الامير ابي زيد ، واعطاه الكتاب نقراه ، وبعد ذلـك استدعى بعشرة امراء من اولاد عم الامير حسـن وارسلهم ليصالحوا الامير دياب ، وما زالوا يطوون الفيافي والقفار الى ان وصلوا لعند دياب ودخلوا عليه ، فلاقاهم وسلموا على بعضهم البعض وسألهم عن ابي زيد ، فقالوا ارسلنا لنرجع الصلح بينكم وتعودوا كما كنتم في القديم ، فعند ذلك سار دياب الى الملك جوهر وودعه وركب بقومه ورجاله العشرة الامراء الى ان دخلوا بلاد الغرب ، فخرج ابو زيد واستقبلهم وتصالحوا ورجعوا الـــى الاوطان ، وعمل ابو زيد وليمة فاخرة وذبح الذبائح ، فاطعم الغادي والرايح، وصار ابو زيد ودياب في محبة زايدة ، ولكن ابو زيد ما أرجع لدياب ملكه وبقي هو الحاكم ، فما هان على دياب وصار يقول عسى ان يرجع لي ملكي والبلاد التي اخذوها مني وابو زيد عاطي قفا ، فاغتاظ دياب ونوى الشر لابي زيد وقال في نفسه انا صنعت دبوسا وسكينا ، فالسكين قتلت بها حسن والدبوس لابي زيد ، فخلصنا من واحد وبقي علينا الاخر ، وصار من ذلك الوقت يحمل الدبوس وكان بسبع فراشات من تحت العباية حتى لا يلحظ عليه ابو زيد ، الى ان خرجوا ذات يوم للصيد والقنص وكان مع ابي زيد جماعة من قومه ومع دياب جماعة من قومه ، فوصلـــوا الى البر وتفرقت الفرسان تطارد الغزلان وبقي دياب وابو زيد في جهة وصار دياب يطارد الشهبا ويلعب كأنه في الميدان ، فصار يعمل مثله ابو زيد مقدار نصف ساعة ، وبعد ذلك خلى دياب ابا زيد سائرا امامه ، فصاح به خذها من يد دياب ، فالتفت ابو زيد مرعوبا فوجد في يد دياب سنبلة قمح ، فضحك دياب وعمل الامر ثلاث مرات ورابع مرة صاح دياب خذها من يد دياب ، فما التفت ابو زيد وظن انها ضحكة مثل العادة ، عند ذلك لكد دياب الشهبا طلعت كالريح حتى قربت من ابي زيد ، فسحب الدبوس وضربه على راسه ، فطلع بزر مخه على الدبوس ، فوقع ابو زيد على الارض غميان، فوقف دياب وقد اخذته الشفقة فصار ينظر اليه ويبكي ويلعن الحمق ففتح ابو زيد عينيه وجد دياب واقفا ، فقال له ما كان ظني فيك يا دياب ان تغدر بي ، ثم تنفس الصعداء واشار يقول :

قال ابو زيد الحزين الهايم … دمع عيني على خدي سجايم
أيا دياب الخيل يا ولد غانم … أيا صاحب الافضال بين العوالم
ما كان ظني يا دياب الخيل تخونني … وتدعي صحبتك فوق الردايم
ياما شربنا الكأس والسعد داير … وحسادنا في قلبهم منا سمايم
فقال الحزين ابن رزق سلامة … لقد سلمت روحي لرب العوالم

فلما فرغ ابو زيد من كلامه دمعت عينا دياب وضمه الى صدره وانشد يقول :

يقول الفتى الزغبي دياب الماجد … ودمع العين على الخدود بحار
بغيتم علينا يا هلالي سلامة … فعايلك عندي لها اسفار
اتتكم سعدى مثل شمس منيرة … بنت الزناتي تشبه الاقمار
قالت لكي ابويا يهلك جموعكم … لان ابويا فارس مغوار
اودعتك الله يا هلالي سلامة … غدا نلتقي في اخر الاعمار

ثم ركب دياب جواده وترك ابا زيد وسار ، فاجتمع بقومه فرأوه مرتبكا وسألوه عن حاله ، فقال لهم قتلت ابا زيد وما بقي الا ان نسرح ونملك بلاد الغرب ، واصير انا السلطان عليها ، فما بقي احد يخاصمني ، ثم ان دياب سار الى تونس ودخل الى سراية الاحكام ونادى باسمه واخبر انه قتل ابا زيد وانه هو الحاكم على كل البلاد ، فصار من يعانده يقتله ومن يطيعه ينعم عليه ، يرجع الكلام الى جماعة ابي زيد ، لما وصلوا اليه وجدوه مطروحا على الارض فصاحوا وناحوا وحملوه تارة يغشى عليه وتارة يصحى ، حتى اوصلوه الى الحريم ، فصاحت النساء وخرجن بلا براقع ومزقن ثيابهن واقمن البكاء والمناحات ، واجتمع العربان من كل ناحية ومكان ، وأما الجازية فانها ارخت شعورها ونتفت خدودها .

فلما فرغت الجازية من ندبها أغمي عليها ، ثم تقدمت بعدها عليا وهي تنتف شعرها وتمزق ثيابها ، وقد زادت في بكاها وانتحابها وقبلته بين عينيه ، وقالت له سلامتك يا ابا الابطال ويا زينة الرجال ، وجعلت ترثيه بأبيات مؤثرة .

فلما فرغت عليا ، بكت النسوان وصاروا في ضجة وابو زيد غميان ، ولما افاق من غشوته تأسف على نفسه وكيف باق فيه دياب ، وصار يودع اهله وعشيرته ومما قاله :

سألتك يا رحمن يا سامع الدعا … تنجي اولادي من الاوغاد
سألتك يا رحمن يا خالق الورى … تعين اولادي بيوم جلاد
لكي يأخذوا ثاري من ولد غانم … ويشفوا قلوبهم مع الاكباد
واغفر لنا ما سلف من ذنوبنا … علينا ذنوب ما لها أعداد

واوصيكم يا آل عزي ودولتي لا تسلكوا ابدا طريق فساد
وان عادت الايام اليكم بعدنا ابنوا لقبري قبة وعماد

فلما فرغ ابو زيد ، شهق شهقة واحدة ، نفاضت روحه فكثر البكاء والنواح وغسلوه ودفنوه بجوار الامير حسن ، اما دياب فبلغه ان الامير ابا زيد مات ، فجمع ستين الفا من قومه وسار الى بلاد القيروان ليجري حكمه ويعمل كما عمل بتونس ، ولما سمع بنو زحلان ودريد هذا الخبر ، تشاوروا مع بعضهم ، فاتفقوا ان يطيعوا دياب لان ما لهم على حربه طاقة ، ولما قرب منهم اتت الجازية وصارت تنخيهم ، فما ردوا فبكت وقالت ما فيكم احد يخاصم دياب وهو كبير وخرفان .

فلما انتهت أم محمد ، ما احد رد عليها الا ان بني دريد وزحلان وعامر وضعوا المناديل في رقابهم وخرجوا ينادون يا دياب انت ملكنا ولا احد منا يعصي لك امرا ، فدخل الامير دياب وجلس على كرسي الامير حسن ، فهنأه الامراء ودعوا له بالنصر ، وأما الجازية والنافلة والحريم والاولاد فانهم تخلفوا ، وفي الليل ركبوا وساروا مع كثير من قومهم وتسلطن دياب على بلاد الغرب ، وصارت تأتيه الهدايا والتحف ورتب الاحكام وعزل ثم سأل عن اولاد حسن وابي زيد ، فأخبروه ان الجازية هربت فيهم مع بقية النسوان وتبعهم ثلاثون الف نفس من بني دريد وزحلان ، فتكدر وقال كان بفكري ان أرتب لهم معاشا وأقوم بوصية الامير ابي زيد ، ثم ركب وتبعهم فما لحقهم ، فرجع متكدرا ، يرجع الكلام الى بلاد الكوع ، كان يحكمها سلطان اسمه شمعون ، وكان له وزير اسمه ابو الجود ، فلما قتل الزناتي وملكوا بلاد الغرب ، قال لوزيره ان بني هلال وصلوا الى بلادنا وهم فرسان لا يوجد مثلهم في هذا الزمان سيما فيهم فارس اسمه ابو زيد من الابطال العظام وفارس اسمه دياب بن غانم ، واخاف ان يصل شرهم الينا ، فقال الوزير خذ لهم هدايا من الجواهر وسر الى الامير حسن وقدم له الهدايا ، ويصير بينك وبينه مودة وصحبة ، فاستحسن شمعون هذا الراي ، فحمل الهدايا على الجمال وسار بألف فارس من أعيان قومه ، ودخل على الامير حسن وقدم له الهدايا وسلم عليه ، فترحب به وعملت الولائم ووقعت المحبة والمودة ، ثم عاد الى بلاده وبقي في أمان الى ان قتل الامير حسن وابو زيد ، فعظم عليه الامر وقال لوزيره مرادي ان اجمع العساكر واذهب الى بني هلال ، فلا بد ان يكونوا وقعوا في بعض ، فمن الموافق ان نكون حاضرين ونساعد القوي ونملك البلاد ، ونكون قد قتلنا دياب لانه صار شيخا كبيرا ، ثم جمع العساكر وسار قاصدا بني هلال حتى دخل حدود

الغرب ، فنظر الغبار قد علا وسد منافس الاقطار ، ثم انكشف عن ثلاثين الف فارس ومعهم حريم ونسوان ، فسأل عنهم فأخبروه بأن هؤلاء حريم حسن وأبو زيد وأولادهم اليتامى هاربين من دياب خوفا على انفسهم ، فاستدعاهم فحضرت الجازية فسألها عن الخبر ، فأشارت تقول :

تقول فتـــاة الحي ام محمـــــد   بدمع جرى فوق الخدود غـــزار
الا يا ملك شمعون اسمع قصتي   واصغي لقولي يـــا حماة الـدار
انا بنت سرحان اخت ابو علـــي   وهؤلاء يـــا ملك عبيدنـــا وجوار
كنا بنجـــد في سرور وفي هنا   نمرح فيهـــا ليلا مـــع نهـــــار
رحلنا لارض القـــيروان وقابس   اتانـــا الزناتي مثـل شعلة نـــار
قتل منا تسعين قتيلا مجريــــــا   براس رمحـــه المرهـــف البتـــار
قتله ابو وطفـــــا دياب بن غانم   بعزم شديـــد يفتت الاحجـــــار
ملكنا بقتله سائر الغرب يا ملــك   ملكنـــا مداينهـــا مع الانهـــار
اراد ديـــاب يملــك القصر وحده   ويقعد بــه سلطان ايـــا مغـوار
حبسه اخي سبع سنين كوامـــل   سبع سنين فـــي بلاء واكـــدار
وأطلقه ابـــو زيد الهلالي غصيبة   وهذه حيلـــة منهم عليــه دار
وجانا دياب مع اكابر قومـــــه   وقلبـــه اسود خائنـــا غـــدار
دياب ذبح حسن فوق عال فراشه   وخلاه يختبط ميمنة ويســـــار
وراح هرب هـــو وكل جموعـــه   دخـل بـلاد الزنـج والاقفـــار
جابـــه أبو زيد طيب بخاطـــره   وارسله مكتـــوب بالاحضـــــار
وبعده اتوا للصيد فـــي عز وهنا   ولعبوا بالجريـــد كـــم مشوار
فشال دياب من تحت باطه لسلامة   دبوس حديـــد فيه الف مسمار
ضرب به سلامـــه أرماه على الثرى   ضربات دياب مـــا عليها عيـــار
فجينا الى عندك طالبين مكارمــك   يـــا برمكي يـــا مكرم الــزوار
وعاد دياب مالك الغرب كلهـــــا   وصار ملـــك والعز لـــه صـــار
هذا ما جرى فينا وهذا ما اصابنا   والدهـــــر دولاب علينـــــا دار

فلما فرغت الجازية من كلامها اشار الملك شمعون يرد عليها ويقول :

يقول الملك شمعون والقول صادق   نـيران قلبـي زايـدات سعـــــار
ألا فابشري بالخير يا ام محمـــد   لقد زال عنكـم سائر الاكـدار
وقلبي على حسن الهلالي موجعـــا   وابو زيـــد خلا الدموع غـــزار
ولكـــن لهـم اولاد يخلفونهـــم   ويسقوا دياب علقمـــا ومـــرار
انا كنت سائر نحوكـــم لاعينكم   وانظـــر ماذا بينكم قـــد صار
ولكن اتيتـــم سالمين بأهلكـــم   فابقـوا واصبروا والفلـــك دوار
وارعوا آراضينا واجنـــوا ثمارها   فانتـــم والله اكـــرم الخطـــار
لكم عندنا الاكرام والخير والهنـــا   والعـــز والنامـوس والاوقـــار

فلما فرغ شمعون من كلامه والجازية تسمع نظامه ، قالت له ارجع فما

الان وقت ذهاب ، لان دياب له سطوة في بني هلال والقى الرعب في قلوب الجميع ، وما انت من رجاله ، فالاوفق نصبر الى ان ياتي الفرج وهو قريب لان دياب كبير السن وما له سوى ولد صغير يرضع ، اسمه نصر الدين ، اما الجازية فتركت اليتامى عند الملك شمعون ، فعين لهم ارضا وصاروا يرعون المراعي ، وما عاد للجازية هم الا تربية اليتامى وتعليمهم الحرب والقتال ، ولما وصل خبرهم الى الامير دياب ، فاراد يجمع العساكر ويذهب اليهم ، فقال له بنو زغبة الاوفق ان لا نذهب اليهم لان بلاد شمعون حارة ، اذا طال بنا الحرب نهلك ونعطش ، وربما بني دريد وزحلان اتفقوا مع الاولاد ، فيطول علينا الحال ، فقال انا خايف ان ينتظروا حتى اموت، ويأتوا ويملكوا البلاد ويدلوا ابني ويدلوكم ، فقالوا له الاوفق ان تكتب كتابا الى الملك شمعون توعده بالمال حتى يقتلهم ، فاستصوب هذا الامر وتوسل الى شمعون يقول :

يقول الفتى الزغبي ديـاب الماجد ونيران قلبـي زايدات سعـير
يا ايها الغادي علـى متن ضامر تسبق هبوب الريـح عند مسير
اذا جيت للكوع فانـزل بربعهـا واعقل جـوادك بالزمـام وغـير
واعط للسلطان شمعـون رسالتي وسلم عليـه يا رشيد كثـير
اريد يـا شمعون تقتـل اليتامى وتدعيهم على وجه التراب عفـير
ولا تغرك الجازية وحسن وجههـا اصل الفتن تأتي مـن الوجه المنير
وخذ امـوال دريـد وجمالهـم وابقى انا لـك بالحروب نصـير

فلما فرغ دياب من الكتاب ، سلمه الى راشد بن نبهان ليوصله الى الملك شمعون ، فسار حتى دخل بلاد الكوع ، فصادفه الوزير ابو الجود ، فأخذ الكتاب وقراه فأدخل الرسول للضيافة واخذ الخطاب واستدعـى الاولاد وقال لهم اقراوا هذا الكتاب . فلما قراوه خافوا وقالوا نحن واقعين عليك يا وزير ، فقال : لا تخافوا لان الملك اذا نظر الكتاب يقتلكم ، لانـه طماع ويخاف من دياب ، وما لكم الا ان ترسلوا له الجازية تدلع عليه ، فهو وقع في هواها ، فقالوا لا يليق بنا ان نكلم الجازية هذا الكلام ، فقال لهم انا احضرها وفي الحال بعث وراءها فجاءت وقرات المكتوب فتكدرت وقالت ما الراي عندك ؟ فقال الراي ان تذهبي الى الملك شمعون وتدخلي عليه ، فانه لا يضركم فقالت له : انا امراة مسلمة وزوجي شريف النسب، فلما سمع ابو الجود كلامها قال في باله هذه امراة تكرم دينها ، فالاوفق ان اساعدها ، ثم قال لها : انتم معكم ثلاثون الف فارس ، وانا عنـدي اثنا عشر الف فارس ، فالجملة اثنان واربعون الفا ، فارسلي اولاد اخيك الى السلطان شمعون ، يقولون له مرادنا نزوجك عمتنا ، فيفرح بذلك لانه

واقع بهواك ، فمتى دخلت عليه يدخل معك شيبان ويذبحه ، ثم نقتل اليهود ونملك البلاد ونقيم حاكما من اولاد اخوتك ، وانا اتزوج بك وتصير البلاد في يدنا ، فاتفقوا على ذلك وذهبوا الى الملك شمعون وعرضــوا طلبهم ، ففرح وقال لهم مهما شئتم فاطلبوا ، فقالوا له لا نريدك الا سالما، ثم احضروا الحاخام فكتب كتاب الجازية على الملك شمعون ، وبعد تمام الفرح دخلت على شمعون فوجدته منتظرها في قاعة النوم وعليه الملابس الخفيفة ودخل معها شيبان بن ابي زيد وبيده الخنجر ، فضربه به وقطع راسه ووقف في طاقة القصر وقال قضي الامر ، وكان الوزير والامــراء منتظرين تحت القصر ، ففاروا على اليهود وابلوهم بالذل ، وقتلوا اعيانهم وملكوا القلاع واهلكوا رؤساء العساكر وما اصبح الصباح حتى انتهوا من الاعمال ودخلوا سراية الحكومة واجلسوا الامير بريقع ابن السلطان حسن ملكا على بلاد الكوع ، وفرق العساكر في جميع الجهات وراق له الحال ، فلما شاهد الرسول ما صار ، خاف على نفسه فهرب الى دياب ، فاخبره الخبر ، فقال له احد الامراء انت قتلت الحية وتركت راسها ، هؤلاء الاولاد لا بد ما يأتوا ويأخذوا منك بثأرهم ، فضحك دياب واخذ يكتب لليتامــى كتابا ، فلما وصل اليهم قراوه ، فقالت الجازية ان دياب قلبه دليله والذي له عدو لا ينام ، ثم كتبت الى دياب تقول :

برق يلمع مــن خــلال اليمانــي	هيج بالقلب وجــدي بعد ما دهاني
والريح هبت في ضميري وخاطري	اللــه يقهــر كــل ظالم خــوان
دياب يــا امير ترسل تهددنــا	كنا لكــم يا امــير بالوغى اخوان
نحنا تركنا لــك بلادا تخصنــا	ولا عدت تنظرنــا بطول زمــان
الله يسامحكــم بها ويطول عمركم	وتدوموا بخير يــا ابا الاحســان
والله عوض ابــا دياب بغيركــم	فصرنا ملوكا وعاد الدهر كما كــان

فلما فرغت الجازية من كلامها ، طوت الكتاب واعطته للرسول ، اخذه وسار الى دياب ، فناوله الكتاب ففضه وقراه ، فقال لا بد ما اركب وادهمهم في بلادهم ، وفي ذات الايام اتوا شعراء فمدحوا السلطان دياب ووصفوا له بنت الامير ماجد بن الهدهاد ، فسأل دياب عنها فاخبروه انها لم يوجد مثلها في الدنيا ، وكان خاطبها السلطان حسن لابنه بريقع ، فعند ذلك قال دياب والله نحن احق بها من الغير ، ثم كتب مكتوبا الى الامير ماجد يطلب بنته ، وبعث المكتوب مع الامير عرندس ، فأخذه وسار حتى دخل على الامير ماجد ، اعطاه الكتاب فقراه وترحب في عرندس واستشار قومه ، فقالوا له ابعث وقل له بنتي مخطوبة الى الامير بريقع ، ولا يليق بي ان افســخ

الخطبة والامير بريقع ابن عمك ، فكتب الى دياب وارسل المكتوب مع عرندس ، ثم قال : هلموا بنا الى نجع الامير بريقع لئلا ياتي فيقتلنا ويقتل اولادنا ، فهدموا البيوت وحملوا حريمهم وساروا يقطعون الفيافي والقفار، قاصدين بلاد الكوع ، اما عرندس دخل على دياب واعطاه الكتاب ففضه وقراه ، فغضب غضبا شديدا وركب بالفرسان والابطال ، قاصدا ماجدا حتى وصل الى بلاده ، وجد الارض قفرة والمزار بعيدا ، فرجع وارسل الجواسيس تفتش عليه ، وكان عند دياب بنت اخته وهي بنت الامير حسن واسمها امينة ، وكانت لما هربت الجازية واخوتها ، بقيت هي ، فأخذها دياب ووضعها عنده ، وكانت بنت دياب تشتم لها اخوتها واولاد ابي زيد وتقول : لا بد ابي ما يقتلهم ! وقد سمعت ان ابي امر يجيب اخوتك ويخدمهم عنده وان ما قبلوا يسير اليهم ، فقالت ان اخوتي صاروا ملوكا، ولا بد ما يأتون ويأخذون بالثأر من ابيك ، فغضبت منها وضربتها فتركتها وراحت الى قبر ابيها ، وصارت تبكي ، واذا برجلين مقبلين واحد ابيض والثاني عبد ، فوصلا الى قبر الامير حسن وأبي زيد ، وصارا يبكيان ، فقالت لهما من انتما وعلى من تبكيان ؟ فقال لها احدهما نبكي على موالينا وأسيادنا انا بدر بن قاشع وهذا عبد اخيك وكنا عائشين بنعمتكم حتى غدر بنا الزمان ، رحنا مع اخوتك وصرنا نسافر مثل المكارية من بلد الى بلد، والان ذاهبون الى بلاد الكوع ، فان كان لك غرض او وصية ، فانا نوصلها لك ، فأشارت تكتب الى اخوتها وتقول :

تقول امينة بنت من ساد ذكرها ... بدمع جرى من مقلة العين عايم
تعاندني الايام والدهر هانني ... وصرت حزينة والعقل صار هايم
اداري انا روحي واكتم بخاطري ... ولا اعرف الراحات والرب عالم
يا ايها الغادي على متن ضامر ... تشق فلاة الارض مثل النسايم
فاهدي سلامي ثم اعطي رسالتي ... رسالة محزونة تذوق العدايم
الى اخوتي عز الملوك اذا علوا ... وسلم على اولاد عمي اللزايم
يجوني على خيل كما الريح جريها ... عليها شباب كالليوث الضياغم
بكل مهندي والرديني بكفه ... لسان الحنش مسقى بسم الاراقم
عسى يأخذون الثار من ولد غانم ... ويدعوه فوق الارض مرمي وعادم
تبقى بلاد الغرب طوعا بيدكم ... وتحكموها مثل ابوكم حاكم

فلما فرغت امينة من كلامها ، طوت الكتاب واعطته الى بدر ، فأخذه وسار هو والعبد حتى وصل الى بلاد الكوع ودخل على الامير بريقع ، اعطاه الكتاب وخصلة الشعر ، فلما نظروا الشعر وقراوا المكتوب ، هاجوا وماجوا

ووقع فيهم البكاء والنحيب وجددوا حزن ابي زيد والامير حسن ، فعند ذلك نهض الامير شيبان وقال لهم : مالنا ولهذا البكاء ! قوموا حتى نركب ونسير الى حرب دياب ، فاما ان نموت او نأخذ ثارنا ونخلص حريمنا ورجالنا من ذل دياب ، فقال بريقع هذا هو الصواب ، ثم انهم ركبوا بستين الف فارس وساروا واليتامى امامهم ، وعندما امسى المساء نزلوا ليرتاحوا فسمعـوا صوت عرب نازلين بالقرب منهم ، وشاهدوا نيرانهم ، فقال بريقع اظن هذا دياب اتى ليقتلنا ، فما لنا الا نرسل من يكشف لنا الخبر ، فقالت الجازية انا اسير واكشف لكم الخبر ، ثم قلعت ثياب النساء ولبست ملابس الرجال وتقلدت بالسلاح واخذت معها شيبان وبريقع واوصت الا احد يشعل النار او يبدي حركة قبل ان يحضروا ، ثم ساروا تحت جنح الظلام حتى قربوا من الربع ، فسمعوا بكاء الاطفال ونبيح الكلاب ، فعلموا انهم عرب راحلون بعيالهم ويمكن هاربين من دياب ، ثم دخلوا بين العرب وسألوهم عـن اميرهم فدخلوا عليه ، فقام لهم واقفا على الاقدام وترحب بهم واجلسهم وقدم لهم الطعام ، فأكلوا ثم قدم لهم القهوة فشربوا ، وبعد ذلك قالت له الجازية كثر الله خيرك يا ابن عمي ماجد ، فقال اراك عرفتني ايها الشاب الظريف وانا ما عرفتك فمن تكون ، فقالت الجازية صدق المثل (من غاب عن العين سلاه الخاطر) ، انا الجازية اخت السلطان حسن ، وهذا بريقع وهذا شيبان ، اتينا نأخذ بثأرنا من دياب ، فوصلنا الى هذا البر في هذه الساعة ، فسمعناكم وقصدنا نكشف خبركم ، فلما سمع ماجد كلامها ، قال اهلا وسهلا بصهري ، وصار يقبلهم وهو لا يصدق من عظم فرحه ، ثم حكى لهم قصته مع دياب وكيف بعث طلب بنته مع عرندس ، فقال له : ان ابنتي مخطوبة الى بريقع ، ثم شاع الخبر ، فصارت تحضر امراء الامير ماجد وتسلم عليهم ، وبقوا مدة وبعد ذلك قال ماجد الحمد لله الـذي صادفنا بعضنا في هذا المكان ، فما عاد لنا الا المسير لاخذ الثار ، وقد بلغني ان دياب صار خرفانا وما عاد عزمه كالاول ، وهو يظلم في الرعية من خفة عقله ، وصار الكل يكرهونه ، فقالت الجازية لنكتب مكتوبا الى بني دريد ونحركهم فيساعدوننا لاخذ الثار ، فقالوا هذا هو الصواب ، ثم ودعوا الامير ماجد وساروا واخبروا الباقين ، ففرح الجميع ، وفي الصباح ركب الامير ماجد واتى وسلم عليهم ، فترحبوا به وقدموا له مزيد الاكرام، ثم اخذت الجازية تكتب الى الامير طوي بن مالك وتنخي قومه لحرب دياب وتقـول :

تقول فتاة الحـي ام محمـد
وقلبي قبـل اليوم كـان مالـوم

وقد كنت محزونـة الهم والاسا
على فقد ابن سرحان والقيـدوم

ابو زيد انـا والنبي مـا نسيتـه
وكان امير الـى الاسرار كتـوم

اميرين واللـه ليس يوجـد مثلهم
وكان لهم سعـد قوي مخـدوم

قتلهم ابو وطفـا ديـاب عـداوة
بجازيه ربـي الواحد القيـوم

لكن ربيت لـه لاخذ الثار عـزوة
امارة كرامـا كلهـم وقـروم

يكيدوا العدا بيـوم كرب وملمة
وما فيهـم الا كل ليث هجـوم

يا ايها الغادي على متن ضامـر
تسبق هبوب الريح وكـل نـوم

اذا جيت الارض القيروان وقابس
تلاقي بهـا الزغبي امير حكـوم

فسلم على طوي خليفة عمنـا
اميراً كريم خليفـة المرحـوم

وسلم على اهل الدريدي جميعهم
امارا ليوثـا ما بهـم ميشـوم

وقال ان الجازيـة ام محمـد
تنبيكـم الاخبار ثـم علـوم

ان كان انتـم تحضروا وتوافقـوا
تحضروا حـالا لنقضـي المعلوم

فلما فرغت الجازية من كلامها ، ارسلت الكتاب الى ابن مالك ، فأخذه النجاب وسلمه الكتاب ، فقراه على امراء بني دريد ، ففرحوا جميعا ثم اجاب يقول :

يقول طـوي والدمـوع غزاري
والنار فـي قلبي تزيد سعـاري

الله اكبر زال عنـا همنـا
وقلوبنـا فرحت بـذي الاخبـار

من خمسة عشر عام فيإسر العدا
وفي القلب منهم دوم شعلة نـار

لما سمعت اخباركم يـا جازيـة
اضاء علينـا الحي ثـم الديار

ففرحوا بكـم اهل الدريد جميعهم
ونسوانهـم فرحت بأخذ الثـار

اقرأوا سلامـي للامير بريقـع
ايضا شيبـان الفتـى المغـوار

يا جازية هاتـي القروم واسرعـي
لعند ابو وطفا لاخـذ الثـار

دياب غدا خرفان وحيلـه انقطع
ما عاد له عـزم على البتـار

فلما فرغ ، طوي ابن مالك من الكتاب ، سلمه للنجاب فأخذه وسار حتى وصل لعند الجازية ، اعطاها الكتاب فقراته بحضور الامراء ثم قالت: ان دياب لا بد ما يغدر بقومنا لان هذا الخبر لا يختفي ، ثم كتبت مكتوبا الى طوي بن مالك تقول له : خذوا حذركم ونهار غد العيد ، اذا حضرتم لعند دياب فالبسوا دروعكم واسلحتكم تحت ثيابكم ، ونحن نصل لعندكم يوم العيد ، وانقسموا فرقتين ، النصف يجلسوا على المائدة والنصف يكونون راكبين خيولهم ، فسار الرسول الى طوي ابن مالك ، فقرأ الرسالة وقال نعم ان بني زغبي اخذوا الخبر عن اجتماعاتنا واوصلوه الى دياب ، فلمـا عرف ذلك قال لربعه : الراي عندي ان نعمل وليمة على العيد ، وعندما تجتمعوا ادهموهم بسيوفكم واقتلوهم ولا تتركوا من اكابرهم احدا ، وفي

يوم العيد عمل دياب الوليمة ومد السماط وكان شيء يدهش العقول ، وعزم بني دريد واكابرهم ، فحضروا ودخل نصفهم وجلسوا على الطعام ، وبقي النصف الاخر على ظهور الخيل ، وفي تلك الساعة ارتفع الصياح من كل ناح ، ووقع الصوت في بني هلال ، وارتجت الارض فدقت الطبول وارتفعت الرايات وزلغطت النساء ، فسأل دياب عن الخبر ، فاخبروه بما جرى من اليتامى ، وانهم نهبوا البوش وقتلوا الرعيان وطافوا على البلد من كل مكان ، فعند ذلك أرسل دياب الى ابن اخته بريقع ، جوابا يهدده بالقتل ان لم يرجع البوش ، وبعثه مع نجاب ، فاخذه وسار الى بريقع واعطاه الكتاب ، فقراه وقال ان خالي خرفان ومراده ان ارد له البوش ونحن لا نرضى بالبوش ولا باخذ روح دياب ، ثم اشار الامير بريقع برد الجواب، فلما قراه دياب امتقع وتقدر ورد عليه بكتاب ، ثم طوى كتابه وختمه وارسله الى بريقع ، ففضه وقراه وعرف رموزه ، فامر بالركوب ، فركبوا اليتامى ودقوا طبول الحرب وتقلدوا بسلاحهم ونشرت بيارقهم وزغردت لهم النساء وانضم لهم قومهم بنو دريد وبنو زحلان ، ونزلت بنو زغبي الى الميدان يتقدمهم دياب وهو من الكبر صار شعره ابيض ، فانتصب ميدان الحرب، فبرز الى الميدان فارس من بني زغبي اسمه الدهام ، وطلب مبارزة الفرسان ، فقالت الجازية ما احد ينزل الى هذا الفارس غيري ، فقالوا هذا عار علينا واذا نزلت له نخاف عليك لئلا تقتلي ، فقالت لهم : ما ينزل الى هذا الفارس غيري ، قال الامير شيبان : اتركوها تبرز الى هذا الفارس ونحن نقف بالقرب منها ، فان رايناها مغلوبة ساعدناها وان رايناها غالبة تركناها ، فبرزت الجازية الى الميدان وهي مقلدة بالسلاح والدرع ، فتلقاها الامير دهام وصار بينهما كر وفر وطعن يقصف العمر ، وضربت هامه ارمت راسه قدامه ، فوقع قتيلا وفي دمه جديلا ، فاغتاظ دياب وقال : من هذا الفارس الذي قتل فارسنا واليتامى ما فيهم فارس الا مخيبر ابن ابي زيد، ومخيبر مات في بلاد الكوع ، ثم برز من بني زغبة فارس اسمه ابو جمرة ابن الاقرع صدم الجازية وضربها بالرمح ، فخلت عنه وضربته بالرمح في صدره طلع من ظهره فوقع قتيلا فقالت بنو زغبة ما لهذا الفارس يا امير سواك ؟ فعند ذلك برز الامير دياب الى الميدان وقال من انت ايها الفارس المفتخر بنفسه على ابناء جنسه ؟ فقالت له انا ابن هذا الميدان ، فما لك وللسؤال ؟ فقال لها انا لا أقاتل الا من كان حسبه مثل حسبي ونسبه مثل نسبي ، فقالت له انا اكثر منك حسبا ونسبا ، انا الجازية اخت الامير

حسن ، وقد جئت لآخذ منك بالثار . فضحك دياب حتى استلقى على قفاه ، ثم قال لها انا لا اقاتلك لانه عار علي ان اقتل امراة ، واذا قتلتك يقول الناس دياب يحارب امراة ، روحي ارسلي الامراء ، فقالت له ما اروح من هنا حتى احاربك ، يا خائن يا غدار وما جزاؤك الا قطع راسك ..

فلما سمع دياب كلامها لعبت براسه نخوة الرجال وضربها على جبينها، فوقعت على الارض ميتة ، فندم عليها ورجع من الميدان وقال ما كان لازم نقتلها ، واما اليتامى فأخذوا الجازية ، كفنوها وعملوا عليها مناحة عظيمة، بكى عليها القريب والبعيد ، وفي ثاني يوم برز بريقع الى الميدان ، فبرز اليه دياب والتقى البطلان كأنهما جبلان وحان عليهما الحين وغنى فوق راسيهما غراب البين ، فقام دياب بعزم الركاب وضرب بريقع بقفا يده ، ارماه الى الارض ، ثم صار يضحك عليهم ويقول في نفسه لولا وصية ابي زيد لي كنت افنيهم عن آخرهم ، ولكن خليهم يعرفوا مقام انفسهم ، واما اليتامى فانهم رفعوا بريقع واحتاروا في امرهم ماذا يفعلون ، فاجتمعوا عند ماجد يتشاورون فقال لهم ماجد الراي عندي ان تهجموا عليه هجمة واحدة ولا بد ما تصيبه ضربة فيقع على الارض ، فلا تتركوه حتى يموت ، فقالوا هذا هو الصواب ، وفي الصباح برزوا يطلبون الحرب والكفاح ودقوا الطبول وتقدم بريقع امام الجميع ، فلما نظرهم دياب ضحك وقال والله مرادي اقاتلهم بلا درع ، فبرز دياب بلا درع وما معه الا السيف والترس ، فالتقاه الامير بريقع ووقع القتال وانحدنوا اليتامى مرة واحدة ، فالتقاهم وصاح فيهم صيحة ارتجت منها الجبال واراد ان يضرب بريقع بالسيف يقطعه قطعتين ، فطوحه صبي بالرمح من بعيد وقع في جنبه فمال دياب على الارض من عظم الالم ، فعند ذلك تقدموا اليه وقال له بريقع كيف حالك الان ؟ فقال دياب انا شبعت من الدنيا وكل موتة لها سبب واشكر الله الذي مت قتيل اولاد حسن وابي زيد ولا قتلني احد غريب ، ثم غاب عن الوجود مقدار ساعة ثم افاق يودع الدنيا ويقول :

يقول الفتى الزغبي دياب المفارق — سبحان ربي مالك الملكوت
سبحان رب العرش جل جلاله — له الحمد والاحسان والمثبوت
سبحان من انشأ من الطين آدم — وخرت له الافلاك بعد خبوت
سبحان من خلق الخلائق جميعها — وعلمهم حسن الكلام او صموت
خلقهم وتكفل تقسيم رزقهم — وكل له أجل ورزق وقوت
هلال وعامر مع دريد وزغبي — اذا شافهم انسان غدا مبهوت
فكم من ملك جاهم وكم قبيلة — وراحوا من يد هلال شتوت

ندمت على فعلي بهـم ندامتـي على مـا جرى لي وفـات الفوت
قتلت امارتهـم واخذت بلادهـم وكـم ملكت عروش وتخـوت
عشرين تخت منهـم ملكتهـا مرصعـة بالـدر والياقـوت
ايا نار قلبي مـن فراق ابو علـي وابـو زيد تغلي كالميـاه وزيوت
انا مفارق الدنيـا وذاهب لغيرها قصدت ربا حاضرا ليس يمـوت

فقال بريقع هذه السكين التي ذبحت بها ابي ، فقطع بها راس دياب وتركه ورجع ، فاتى قوم دياب فاخذوه واكثروا عليه البكاء والعويل ومزقوا ثيابهم ورفعوا البيارق السود ، واجتمع الامراء من كل ناحية وحضر الامير بريقع واخوته ، فأخذوا خالهم ودفنوه بعد ان بكوا عليه وعادوا الى بني زغبة فوجدوهم طائعين سامعين وجلس بريقع ملكا على بلاد الغرب وراقت له الاحوال واقام اولاد شيبان ورزق وزراء عنده ، وما سأل عن اولاد خاله دياب ، اما نسرين زوجة دياب فانها لما قتل زوجها ، قالت لابنها لا بد وان اولاد عمك يعملون حيلة عليك ويقتلونك ويرتاحون من نسل دياب ، لانهم يخافون منك لئلا تأخذ ثارك منهم ، فقم اركب الشهبا لنذهب عند احد من اصحاب ابيك ، لبينما يصير وقت مناسب لاخذ الثار ، فركب نصر الدين على الشهبا واردف امه وراءه وخرجا من البلاد حتى وصلا الى غدير تحت جبل وعليه رعيان تسقي جمالها والبنات والنسوان تلعب حواليه، فحول نصر الدين بوالدته فأكلا وشربا ، ورأى نصر الدين على المنهل صبية كانها شمس منيرة بعينين زرقاوين وحاجبين مقوسين ، شفتاها كالعناب ، تسلب من رآها بحسنها ودلالها وقدها واعتدالها ، فطار عقله واخـذت قلبه ، فتقدم وخاطبها بقوله :

يقول نصر الدين مـن ولد غانـم يا مرحبا فـي نجمة المصبـاح
اهلا وسهلا ثـم الفين مرحبـا فالعقل يـا مليحة معـك راح
بالله اخبريني يـا مليحة باصلـك وعن قومك عساهـم قوم مـلاح
لان قلبي يـا مليحة انكـوى وجسمي انضنى وقلبي منـي راح
وان سألتي يا مليحة نسبتـي اسمي نصر الدين الفارس البطاح
ابوي ترى دياب الماجـد المنتخب جرى صيته فـي برها وبطـاح
جاروا علينا اهلنـا يـا مليحة قتلوا ابـوي كـان عـزه لاح
وصرنا ضيوف الخيرين بأرضكـم حتـى الهـي يخفف الافـراح
ردي جوابي يـا مليحة بالعجـل اخذت العقـل منـي مع الارواح

فلما فرغ نصر من كلامه والصبية تسمع نظامه ، بكت لحاله لما عرفت

انه ابن اكبر فرسان الزمان واحبته ، ثم اشارت تجاوبه وتقول :

قالت فتاة الحي باني التي شكت ... جرى الهوى خلى الفؤاد شعال
حبك يا نصر والله اضناني ... وادعى لقلبي فوق نار هبالي
انا بنت صالح يا امير بلا خفا ... ابي امير فارس قتال
ابوي امير ابن امير وامبرة ... حاكم على المكناس بالاجمال
ايا نصر انا وحيدة عند ابي ... ربيت في قومي بعز ودلال
هيا بنا يا امير نحو نجوعنا ... وحبك بقلبي ليس منه زوال
وارحم فتاة يا ابن ولد غانم ... تعلقت بالحب عامدا الاجيال
ونقضي بقايا العمر سوية ... ونعيش في خير وصفوة بال
مقال فتاة الحي باني التي شكت ... نار الهوى شبت بقلبي ايا مفضال

فلما فرغت الست باني من كلامها ، تقدمت امه الى باني وقبلتها وقالت لها اذهبي الى ابيك واخبريه بحالنا ، فان اراد ان يرسل يأخذنا لداره لان ذهابنا معك يشين بعرضك ، فودعتها وسارت الى ابيها وقالت له يا ابي وجدت على الغدير امراة غريبة ومعها ولد هو ابن دياب ، وهما قاصدانك من بلاد بعيدة ، فلما سمع الامير صالح كلام ابنته ، اخذه العجب ، لان دياب كان خلص له امراته من بعض امراء العرب ، وقتل له خصمه وبقي حافظا له هذا المعروف ، ولذلك أمر العبيد ان ينصبوا صيوانا امام صيوانه، وركب في مائة فارس وسار الى الغدير وتقدم اليه الامير نصر الدين وقبل يديه وقبله صالح وقال : اهلا وسهلا بابن الامير دياب ، ثم اركبوا امه في هودج وسار نصر الدين على شهبا ، وصار الامير صالح لا يرفع عينيه منه لانه رآه جميلا جدا وعلامة الفروسية لائحة عليه ، ولما وصلوا لاقتهم البنات باحتفال زائد ، فنزلوا بالصيوان الذي نصبوه وكان مفروشا بالحرير ومزركشا ومزخرفا ، ولما استقروا للراحة حضر الطعام والمدام وباتوا تلك الليلة منشرحين مسرورين ، وثاني يوم اجتمع الامراء والاعيان عند الامير صالح ، فأتى بهم الى صيوان نصر الدين ، فقام لهم على الاقدام ولاقاهم بالترحيب والاكرام ، وبعد ان جلسوا اخبرهم نصر الدين بقصة والده ، فبكى الامير صالح ، وصاروا يعزون نصر الدين ، وقال له الامير صالح لا تتكدر يا ولدي ، فمن خلف مثلك ما مات ، واصبر على حكم الله ، والان حيث اني كبرت وما عاد لي اقتدار ، فمرادي ان انصبك مكاني حاكما على العشيرة ، وقد زوجتك ابنتي بلا مهر ، فتعجب الامير نصر الدين من كرم الامير صالح ووثب وقبل يديه وشكره على معروفه ، ثم انصرفوا وصار الامير صالح يهيء لوازم العرس ، وارسل الى جميع القبائل يدعوهم الى

عرس ابنته ، فتواردت العربان من كل جانب ومكان ، واقاموا الافـراح والليالي الملاح ودقت الطبول ونفخت الزمور وعين الامير صالح مدة العرس اربعين يوما ، فنحروا النوق والاغنام ودارت ليالي الافراح ، ونهار الاربعين بنوا صيوان الامير نصر الدين والبسوه حلة من الحرير واجلسوه علـى كرسي من العاج وقام الميدان ولعب الجريد بين الابطال ، وعند المساء اخرجوا العروس وهي كالشمس المنيرة وعليها من الجواهر ما يبهج الانظار وركبوها على هودج عال من الحرير المقصب ، وبعد ان نافوا بها ادخلوها على صيوان نصر الدين ، واتى القاضي والشهود وعملوا الفروض الدينية، ثم انصرف الجميع وبات نصر مع العروس في هناء وسرور ، وبعد ذلك جلس نصر الدين حاكما على القبيلة عوضا عن الامير صالح ، وباركت له الامراء والاعيان وصار يتعاطى الاحكام ويعدل في الرعية ويوهب ويعطـي الشعراء والفقراء ، حتى احبه القريب والبعيد وصارت تنقل ذكـره الشعراء من مكان الى مكان ويوصفوا جوده وكرمه ، وصار يركب الى الغابات يصطاد الاسود والفهود ويسطو على كل عاص ونمرود ، حتى طاعت لحكمه كل القبائل وصار له اسم وهيبة اعظم من ابيه .

قال الراوي هذا ما كان من نصر الدين ، وأما ما كان من الامير بريقع ملك تونس ، فانه بعد قتل الامير دياب كثر ظلمه وطغى وبغى وتكبر ، ولا عاد يفكر بين الامير والفقير واكثر جوره على بني زغبة ، وانعكف على معاشرة النسوان واللهو ، ولما اعياهم الامر ، اجتمعوا عند الامير خطير ، اكبر امراء بني زغبة وقالوا ما عاد لنا طاقة على ظلم اعدائنا وهم دائما يتسلطون على اموالنا وحريمنا ، قال يا قوم انتم عملتم بحالكم هذا العمل لانكم تهاونتم وما احد منكم شهر سيفا لاخذ ثار الامير دياب ، ولا يفرجكم من هذا الضيق الا الامير نصر الدين ، فالاوفق نستخبر عنه في اي ارض ونستدعيـه ويستلم قيادة الفرسان ، فقالوا افعل مرادك ، فكلف الامير خطار شاعرا خبيرا بالبلاد ان يسال عنه ، فقال اعطوني رفيقين ، فاعطوه واحدا اسمه حامد والثاني اسمه منصور ، فلبسا ثياب الشعراء وصارا يطوفان البلدان ويمدحان الامراء حتى وصلا الى غدير ماء في بلاد الفاس والمكناس ، فوجدا جماعة من الرعيان فسالوهم عن اسم اميرهم فقالوا اسمه نصر الدين ابن الامير دياب ، فلما سمع الشاعر ناصر هذا الكلام ، كاد يطير من الفرح وقال له : بالله عليك يا بن العم دلنا على هذا الامير ، فنحن من عربه ، فسار كبير الرعيان امامهم حتى وصلوا ، فوجدوا المجلس محبوكا ، فجلسوا في

الخارج ، فالتفت نصر الدين وجد الشعراء خارج الباب ، فقال تفضلوا يا شعراء شرفونا . فدخلوا فامر ان ياتوا بالزاد فاكلوا واحضر لهم القهوة ، وبعد ذلك قال لهم الامير نصر الدين هاتوا اسمعونا ما عندكم من الاشعار ، فعند ذلك اخذ ناصر ربابته وراح يمدحه بشعر جميل .

فلما فرغ ناصر من كلامه خلعوا ملابس الشعراء وقالوا له نحن اولاد عمك وقد اتينا بصفة شعراء لندور عليك في البلدان حتى تجيء وتخلصنا من ظلم بني هلال والحمد لله الذي وجدناك فلما عرفهم نصر الدين وثب اليهم يسلم عليهم ويقبلهم وقال لهم يلزم ان تبقوا عندنا ثلاثة ايام ثـم تعودون وتبشرون اهلي اني بعد ثلاثين يوما اكون عندهم فاقاموا عنده ثلاثة ايام خلع على كل منهم خلعة ملوكية وساق امامهم الانعام فأرادوا ان يستعفوا فقال لهم لا بد ان تأخذوه لاني سمحت لكم وانا لا ارجع بما اعطيت فأخذوا كل ما وهبهم وساروا يقطعون البراري والقفار حتى وصلوا لبيوتهم فأتى بنو زغبي وسلموا عليهم ومعهم الامير خطار وبعد ان شربوا القهوة سألهم الامير خطار عن سفرهم فصار يخبرهم ناصر ويقول :

يقول الفتى ناصر عما جرى لـه ... يا قوم اصغوا للحديث اللي جرى
درنا بلاد الغرب والديـار كلها ... حتى بلاد الفرس وارض الكوجرا
رحلنا الى مكناس في عشرا رجب ... لهم ملك واللـه سبع غضنفرا
اشقر ظريف القد حلـو المباسم ... يشبه دياب الخيل يا اهل الورى
ما شفت مثله بالكرم يا اهل الكرم ... يجري عطاه مثـل فيض الابحرا
له صيوان وميتين اميرا حولـه ... والفين عبدا واقفـة لتؤمـرا
وميتين مملوكـة امامـه تخدمه ... مثل الكواكب حسنهم مـا ابهـرا
يقضي ويمضي والانـام تطيعـه ... مين الذي خالف كلامـه يقهـرا
دخلنا عنـده بالمسا وقت العشا ... وانا بصفة شاعر احوالي منكـرا
وبعد اناكلنا الزاد وشربنا الشراب ... عدلت انا ربابتي يا اهل الـورى
واخبرته عن قصتي وعـن سفرتي ... وعن حالنا يـا قوم واللي جـرى
وثب الينا وقال اهـلا ومرحبا ... انتم عمامـي اولاد عمي الا نصرا
وقال لي روحوا لاهلـي وبشروا ... الى عمومنا واخوالنا والاصهـرا
لازم اجيهم فـوق شهبا مبرشمة ... تشبـه الى ريح الشمال اذا جرى
واقتل عدوي واشتفي من قتلـه ... وافني اكابرهم كذاك الاصغـرا
انـا نصر الديـن مـا في غنا ... ادعي الفوارس بالحروب مقهقـرا
اوهب لنـا هذه الاموال جميعهـا ... تعجز ملوك الارض عنهـا وتقصرا
ايا آل زغبي ابشروا في سعدكم ... قد غاب نجم النحس عنكم واندرا
شدوا حزام خيولكـم يا قومنا ... جانا الفرج من عند رب مقـدرا

فلما فرغ ناصر من كلامه والزغابة تسمع نظامه ، طاروا من شدة الفرح وشكروا ناصر ، ودارت الافراح واخذوا يهيئون حالهم ، وفي اليوم المعين خرج الامراء الى خارج البلد ، وطلعوا الى تل ونظروا الى البر ، فراوا غبارا فصبروا حتى انجلى على فارس راكب ، شقرا كانها البرق ، ووصل اليهم فقالوا له من اين قادم ؟ قال من عند سيدي الامير نصر الدين ، وسبب قدومي لابشر بني زغبي بتشريفه في هذا النهار ، فعند ذلك اعطوا الخبر لجميع بني زغبي ، فخرجوا في تسعين الف فارس في الحديد غواطس ، ومعهم الراية البيضاء التي كان ينشرها دياب ، فخرجت مشيخة الشباب بستين الف فارس ، وما بقي في تونس الا بني دريـــد وبني زحلان ، وجملتهم مائة وثمانون الف فارس ، واما جملة الذين خرجوا للملتقى ، فمائتان واربعون الف فارس ، واما العبيد والاولاد والنساء فلا يعلم عددهم غير رب العباد ، ومشوا مقدار ساعتين فوصلوا الى مكان واسع جميـــل المنظر ، يدعى عين برشان ، فنزلوا هناك الا والغبار ثار ، ثم انجلى عن بيارق مغربية وخيول شامية وفرسان مكناسية ورماح خطية وسيـــوف عجمية وذروع داودية وخوذ سليمانية وطوارق هندية ، وفي اولها فارس طويل القامة ، عريض الاكتاف ، اشقر اللون ازرق العينين ، وعلى راسه خوذة من عمل الهند وعلى كتفيه رمح طويل مكعب ، وعلى يساره سيف ثقيل وتحته شهيا كانها بنت الخضرا الاصيلة ، واذا هو البطل الرئبال الملك نصر الدين ابن الملك دياب الذي خضعت له صناديد الرجال ، وعلى يمينه عمه الملك صالح وعلى شماله ابن الامير صالح الامير الحازم والليث الجازم، ومن ورائه عشرون راية وتحت كل راية خمسة الاف فارس ، فلما وصلوا نزل نصر الدين على عين برشان ، واخذ يسلم على كافة الفرسان ، وبعدها امر بنصب الخيام ، فنصبوا له والى عمه صيوانا من الحرير الاخضر على خمسمائة عمود من النحاس الاصفر ، في اعلاه تفاحة من الذهب الاحمر وفي داخل الصيوان نقوش من تواريخ الاولين ، وعليه صور ملوك سالفين، فجلس نصر الدين على كرسي من الذهب وجلس عمه عن يمينه وابن عمه عن شماله ، وقعدوا امامه والخدام بين يديه ، هذا ما كان من هؤلاء ، واما ما كان من بريقع بن حسن فانه اجتمع مع وزيره شيبان ، وقال له ارى اليوم بني زغبة خرجت خارج البلد في ضجة عظيمة ، فما يكون في ذلك ؟ فقال ليس لي علم بشيء ، وهم في الحديث دخل عليهم عبد وقال : اعلم يا ملك الزمان ان فرسانا اتوا من بلاد الغرب ، يتقدمهم فارس عظيم ،

وخرجت بنو زغبة لاستقباله واجتمعوا على عين برشان وسلموا عليه سلام الاخوان ، فلما سمع بريقع ذلك الكلام ، قال لشيبان من يكشف لنا خبرهم؟ فأرسلوا جاسوسا ، فسار ودخل بين زغبة وعرف الامر وعاد ، فأخبر بريقع ، فعند ذلك صاح بقومه عليهم : ايها الابطال ، ثم امر بدق الطبول ونادى على الفرسان تعتلي فوق الخيل والتمت الفرسان وركب الشجعان، واما بريقع لبس درع ابيه وتقلد بالسلاح وركب بنت الحيصا وشيبان ، عمل مثله وخرجوا من تونس في مئة وثمانين الف فارس ، ولما قربوا الى عين برشان ، ركبت الفرسان الخيول ووقعت العين على العين واصطف العسكران وبرز شيبان بن ابي زيد الى الميدان ، فنزل اليه الامير الجازم وصدمه صدمة جبار فتلقاه شيبان فتلاطما وتزاحما حتى طلع من الاثنين ضربتان قاطعتان فكان السابق في الضربة الامير جازم ، فطعنه بين البزين، طلع الرمح من بين اللوحين ، فوقع الى الارض يتخبط ببعضه ، فلما رأى بريقع ان شيبان قتيل ، نزل الى الميدان وطلب مبارزة الابطال ، قال لا اريد ان ينزل لحربي غير اميركم ، فما اتم كلامه حتى صار نصر الدين امامه، فالتقيا كما تلتقي الارض العطشانة وابل المطر وصار الامير نصر الدين يفتل حول بريقع في الشهبا مثل حجر الطاحون ، واما بريقع وجد حاله مع خصمه مغلوبا فصار يغتنم فرصة ليفر من امامه ولكن نصر الدين لم يمكنه من ذلك بل هجم عليه وقال الى اين يا كلب العرب وانا وراءك في الطلب؟! وجذب سيفه الظامىء وقال الله اكبر ! ونزل به على بريقع قسمه هو والجواد اربع قطع ، واشار بيده فانطبقوا على بني زحلان ، فما كنت ترى الا رؤوسا طائرة ودماء فائرة وفرسانا غائرة ، فما سلم في تلك الواقعة سوى اربعة واحدا من قوم زحلان ، فعندها دخل نصر الدين الى تونس وطلع الى قصر ابيه وتسلطن على كل الغرب ، وصفت له الاحكام وطاعته كل الانام ، وما زالوا في بسط وانشراح مرتاحين من الحروب حتى اتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات .

« تمت قصة تغريبة بني هلال »

فهرس فهرس تغريبة بني هلال قصة ابو زيد الهلالي

تنويه: هذا الفهرس الموجز ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى رؤوس المواضيع . م. سرمد حاتم شكر السامرائي

هذا الكتاب

فلما فرغ ابو زيد من هذا الشعر والنظام ، انطبق الفارسان على بعضهما واخذا في الحرب والصدام ، وكان شبيب من الجبابرة ، فقاتل قتال الاسود وفعل فعالاً تشيب المولود ، فثبت ابو زيد امامه كالجبل الراسي والتقاه بقلب من الصوان ، فكانا تارة يتقدمان وتارة يتأخران كأنهما اسدان كاسران ، وقد تعجبت من قتالهما الفرسان وتعلمت منهما حقيقة الضرب والطعان ، وما زالا على تلك الحال الى قرب الزوال وكان ابو زيد قد انحل عزمه وقصر فرجع الى الوراء ، فعند ذلك دقت طبول الانفصال ، فافترقت العساكر من الميدان ورجع أبو زيد في اسوأ حال مما شاهده من الاهوال .

الثمن ٨٠٠ ق.ل.